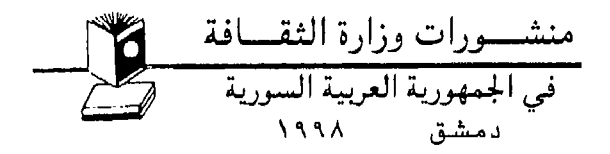
الدكتور قتيبة الشهابي

صمود دمشق

أمام الحملات الصليبية



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٨

صمود دمشق

أمام الحملات الصليبية

Dr. K. Shihabi

Damascus Withstanding
the
Crusades

صمود دمشق أمام الحملات الصليبية/ قتيبة الشهابي.
دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨. - ٣٨٤ص؛ ٢٤سم.

العنوان الموازي:
Damascus withstanding the crussdes

١- ٩٥٦,٠٥٤٥ ش هـ ا ص ٢- ٩٥٦,١١١ ش هـ ا ص
٣- العنوان ٤- العنوان الموازي ٥- الشهابي

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٨٣١ / ١٠ / ١٩٩٨

عميق الشكر والامتنان والتقدير

للسيدة الدكتورة نجاح العطار

وزيرة الثقافة

عرفاناً بفضلها في تشجيع هذا العمل وتفانيها

في رعاية الفكر والفن والتراث

قتيبة

في عام ١٩١٧م دخل الجنرال آلنبي مدينة القدس فأجهر القول :

«الآن انتهت الحروب الصليبية»

وفي عام ١٩٢٠م دخل الجنرال غورو مدينة دمشق فشهر سيفه وقرع به ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي وصاح :

«ها قد عدنا يا صلاح الدين» .

ثم رحل الإنكليز .

ورحل الفرنسيون .

وبقيت دمشق قلعة الصمود .

تمهيد

راودتني فكرة هذا العمل منذ أمد بعيد، لكنني، وفي كل مرّة كنت أحجم عن تنفيذها، فالغوص في متاهات المؤرّخين، من العرب المسلمين، ومن غيرهم أيضاً، ضرب من المغامرة المجنونة، فأنا أولاً لست بمؤرّخ، وثانياً: سبقني الكثيرون إلى تدوين الكتب والمجلّدات والتصانيف عن الحروب الصليبية، من مختلف الجنسيّات، وما أكثرهم.

غير أن أحداً منهم لم يركّز على ما قدّمته دمشق، هذه المدينة الخالدة، من نضال وصمود، عبر تلك الحملات، وما عانته من أهوال وشدائد وويلات، وما بذلته من أرواح وأموال وتضحيات.

وفي هذا السياق يقول الدكتور صلاح الدين المنجّد في كتيّبه ولاة دمشق في العهد السلجوقي ١٠ : « قاتل ولاة دمشق السلاجقة الفرنجَ طوال حكمهم، خلا السنوات الأخيرة من حكم ابق بن محمّد، وأمدّوا سائر الولاة الذين كانوا يقاتلونهم، وكانوا يعودون غالب الأحايين، مظفّرين، فكانت دمشق تشهد مواكبهم تطوف في أسواقها، وفيها الأسلاب والغنائم ورؤوس القتلى.

ولقد عمد طُغتكين إلى بيع الأراضي خارج دمشق، وكانت داثرة معطّلة لا مالك لها، ممن يرغب في عمارتها، وصرف ما حصل من ثمنها في الأجناد المرتّبين للجهاد.

وكان دفاعهم عن دمشق نفسها من غارات الصليبيين عنيفاً، وبذلوا في سبيل ذلك كل شيء، حتى إن والدة شمس الملوك دُقاق لمّا رأت تهاون ابنها في قتالهم ورغبته في تسليم دمشق إليهم سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥م وخروجه عن سُنن آبائه، أرسلت له من قتله.

ولقد تعرّضت دمشق لمؤامرات الصليبيين وكادت تسقط في أيديهم، فقد هاجموها بعد انتقال بانياس إليهم سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م، وخيّموا على جسر الخشب والميدان المجاور له، فهاجمهم تاج الملوك بوري بن طُغتكين وقتل منهم كثيراً».

إلى هنا ينتهي كلام المنجّد.

أقول: وواجهتني المصاعب والمتاهات التي كنت أتوقّعها وأحسب لها ألف حساب:

١ - فأقدم نصّ وصلنا، كان ما دوّنه ابن القلانسي المتوفى سنة (٥٥٥ هـ) في كتابه «ذيل تاريخ دمشق». صحيح أنه عاش تلك الفترة الحرجة إبّان الحملات، وكان فيها شاهد عيان، ووصفها بما أمكنه من إسهاب، إلا أنه أغفل ذكر التفاصيل الدقيقة الهامّة، كأحداث الحصار يوماً بعد يوم، أو التفصيل في وصف القتال، ولم يصل إلى ما وصلته كتابات المؤرّخين غير المسلمين من توصيف دقيق لكل التفاصيل، كوليم الصوري William of Tyre رئيس أساقفة مدينة صور، الذي عاش في نفس الفترة، وأسهب في وصف حصار دمشق، وذكر حتى أدقّ الأمور الصغيرة، كالدكُوك التي كانت بين البساتين، والمعارك التي دارت فيها، وأسلحة المسلمين التي كان المدافعون يستعملونها بنجاح من خلف فتحات تلك

السواتر الترابية .

٢- ومن بعد ابن القلانسي تأتي مرحلة (النقل عنه)، وهنا يبدأ العدّ التنازلي في تناقص المعلومات شيئاً فشيئاً، فابن الأثير المتوفى ٦٣٠ هـ، ويُعتبر من أعظم مؤرّخي القرن السابع للهجرة، يكرّر نصّ ابن القلانسي ويختصره بعض الشيء، وقد يضيف إليه شيئاً قليلاً، كإضافة ما ذكره ابن عساكر عن الفندلاوي. ويتتابع النقص والاختصار من سبط ابن الجوزي مروراً بأبي شامة (وهو الوحيد الذي يورد أكثر من نص) ثم أبي الفداء منتهياً بابن كثير ومن تلاه.

٣- وقد تتضارب التواريخ، كما حدث لتاريخ المحاولة الأولى، ففي حين يذكرها ابن القلانسي وابن الجوزي سنة (٥١٩ هـ)، تأتي عند ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون سنة (٥٢٠ هـ) ! ، ومن الطبيعي أن يكون ما ذكره ابن القلانسي هو الأصحّ، لأنه عاش غمرة الأحداث في تلك الفترة، وشاهدها عيانياً.

٤- وقد تختلف النصوص إضافة أو نقصاً عند بعض المؤرّخين كلما طال الزمن وابتعد، وقد يتبدّل متنها في كثير من المواضع، ومثال ذلك المفارقة بين نصّ ابن القلانسي ونصّ ابن كثير، وهو ما يذكّرني بالطرفة الواقعية التي حدثت عندما أقيم الاتصال البرقي (التلغراف) بين دمشق والإيالات السورية واسطنبول أواخر العهد العثماني، أوردها على سبيل الممالحة، حين أرسلت برقية تهنئة إلى شخص من آل الكيلاني في مدينة حماة بمناسبة بنائه لتكيّة هناك، وكان نصّها في الأصل: (أهنئك يا كيلاني بتكيّة الجيلاني)، فوصل: (هيِك يا كيلاني بتحكي بالألماني) ! ؟

٥- إغفال بعض المؤرّخين عن ذكر محاولات اقتحام دمشق إبّان الحملات، والتي كان أشهرها حصار دمشق سنة ٥٤٣ هـ. فابن العديم مثلاً لم يتطرّق إليه في كتابه (زبدة الحلَب من تاريخ حلب) رغم أنه ذكر كثيراً من الأحداث والوقائع التي دارت في دمشق بين حكّامها المسلمين. وهو أمر أستغربه فكتابه من أهمّ المصادر التاريخية في الفترة الصليبية.

٦- ورود بعض النصوص الفريدة بلا تاريخ، كنص الأمير أسامة بن منقذ حول قصد الفرنج دمشق، والذي لم يذكره أحد غيره.

٧- ذكر البعض لنصوص لم يذكرها البعض الآخر، كالمحاولة الرابعة للهجوم على دمشق سنة ٥٥٣ هـ. فقد ذكرها ابن القلانسي وأبو شامة، ولم يذكرها ابن الأثير وابن كثير.

٨- مما يحيّرني فعلاً في المصادر العربية والغربية تركيز الأضواء على (كونراد الثالث)ملك الألمان وأحد قادة الحملة الثانية، وكان ممن قاد حصار دمشق سنة ٥٤٣ هـ، وأقلّ من ذلك على بلدوين الثالث ملك القدس، وإغفال ذكر لويس السابع ملك فرنسا إلا فيما ندر.

علماً بأن كونراد المذكور فقد تسعة أعشار جيشه في الطريق إلى الشرق، كما يعترف بذلك وليم الصوري وغيره ممن أرّخ للفرنج وكان منهم. ويذكر وليم الصوري أيضاً أنه أوكلت لكونراد مهمّة حماية مؤخّرة القوّات أثناء الحصار وللويس مهمة قلب الهجوم، ودور هذا الأخير أكثر أهمية وخطورة من دور حماية المؤخرّة.

٩- لم أجد في المصادر العربية المؤرّخة لمحاولات الاستيلاء على دمشق أي تحليل لنفسية المقاتلين المسلمين أو قادتهم كما هو الحال في

مؤلفات الفرنج، وكذلك لم أجد أي ذكر لآرائهم الشخصية في المسبّبات واستخلاص النتائج. بل جائت مصنّفاتهم توصيفاً سطحيّاً لا عمق فيه للوقائع ومجريات الأمور.

١٠ - أمّا في مدوّنات المؤرخين الفرنج فقد تباينت وجهات نظرهم بين رافض لحصار دمشق في الأصل، وبين مؤيِّد له. وكذلك اختلفت كتاباتهم عن أسباب فشل الحصار:

- فمنهم من ينسب هذا الفشل إلى طمع حكّام الفرنج بالذهب الذي بذله معين الدين أنر وما تلاه من خديعة القمامصة وعلى رأسهم الملك بلدوين الثالث لملكي ألمانيا وفرنسة وإقناعهما بتغيير موقع الحصار فكانت النتيجة اضطرارهم إلى فكّه والتراجع.

- ومنهم من يعزيه إلى وصول سيف الدين وأخيه نور الدين من الموصل وحلب لنجدة دمشق، وما تلاه من تهديد معين الدين للفرنج بتسليم سيف الدين البلد إن لم يتراجعوا عن الحصار.

- وطرف ثالث يؤكّد على أنه التناحر والحسد والغيرة وفقد الثقة القائم بين أمراء الفرنج حول توزيع المكاسب والمناصب بينهم.

- ورابع يعزيه إلى خوف فرنج الشام من الفرنج الجدد أن يمتلكوا دمشق فيهدّدوا مكتسباتهم ومناصبهم.

- وفريق خامس يصبّ جام غضبه على إمبراطور بيزنطة الذي أظهر عدم الاكتراث بنجاح الحملة الثانية أو حتى بفشلها.

أقول: مهما يكن من أمر فلا شك في أن ما دوّنه المؤرّخون الفرنج - على تحيّزهم العرقي والديني - كان أكثر وصفاً وتحليلاً للنتائج ممّا كتبه

المؤرّخون المسلمون، ولكم تمنّيت لو جاءت نصوصهم أكثر وصفاً من نصّ وليم الصوري مثلاً، ففي حين يسهب في وصف حصار دمشق، ويعدّد - من وجهة نظره - تحرّكات الفرنج ووقائعهم، ثم ينتقل إلى تمحيص أسباب الفشل ورفع الحصار، ويستمع إلى عديد من الروايات والآراء، ويعطي رأيه الشخصيّ في كل ما حدث، نجد ابن القلانسيّ ومن تلاه ونقل عنه يعتمد (التوصيف) المختصر السريع، ويُغفل التحليل وإبداء الرأي الشخصي.

ولا عجب في ذلك، فزمان ابن القلانسي كان زاخراً بالاضطرابات السياسية والأمنيّة والفكريّة والاقتصاديّة، تمور فيه الصراعات بين السلاجقة وغيرهم من الفرق الإسلامية، وفي كثير من الأحيان بين السلاجقة أنفسهم، وفي هذا الخضمّ المتضارب بالمتناقضات يجب ألا نلقي باللائمة على ما كتب ابن القلانسي، وكذلك ما كتب غيره، فهكذا كانوا يكتبون.

وأود التنويه أخيراً إلى أنني لم ألتزم عند اختياري لعنوان هذا الكتاب بقواعد العربية فعباره (صمد له) غير واردة لغوياً، لكنني آثرتها من منطلق ما يقال: «خطأ مشهور خير من صواب مهجور».

دمشق أوائل أيلول ١٩٩٨ — المؤلّف

الفصل الأول

الحروب الصَليبيّة

The Crusades

الحروب الصليبية هي سلسلة من الحملات العسكرية أرسلت من أوروبا الغربية إلى المشرق العربي المسلم بين أواخر القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين، وبالتحديد بين (١٠٩٥ - ١٢٧٠م) وبلغ عددها ثمانية حملات، وقيل بل تسعة، وهذه الأخيرة لم تكن أكثر من تحرشات ومناوشات مستمرة للصليبيين المسلّحين عبر البحر الأبيض المتوسط باتجاه الشرق.

وبدأت جذور الغليان السياسي تظهر في أوروبا نتيجة ظهور السلاجقة الأتراك المسلمين وتوسّعهم في الشرق الأوسط في أواسط القرن الحادي عشر للميلاد، واحتلالهم لسورية وفلسطين وخصوصاً مدينة القدس.

إضافة إلى خطر تهديد هؤلاء السلاجقة للأمبراطورية البيزنطية، وبسط نفوذهم على كثير من المسيحيين اليونان والسريان والأرمن فيها.

وكان الهدف الرئيس الظاهر والمعلن من هذه الحملات هو الاستيلاء على مدينة (القدس) والأراضي المقدّسة، وهي أماكن الحجّ المسيحي في فلسطين، خصوصاً بيت لحم وكنيستها Nativity ، ومن ثم نزعها من أيدي المسلمين، وإقامة الحكم المسيحي فيها، لحماية الحجّاج من الاضطهاد الذي يتعرّضون له أثناء حجّهم إليها [كذا في الأصل].

وفي هذا الصدد يقول الدكتور **فيليب حتّي**:

(في السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥م ألقى البابا اوربانوس الثاني، الفرنسي مولداً، خطبة نارية في مدينة كلرمونت في جنوب فرنسة، حثّ فيها المؤمنين على سلوك الطريق إلى كنيسة القيامة، لانتزاعها من أيدي الغاصبين [كذا في الأصل]، والاحتفاظ بها لأنفسهم، ولعل هذه الخطبة، باعتبار النتائج التي تخلّفت عنها، أشدّ الخطب في التاريخ وقعاً وأبعدها أثراً، إذ تنادى الناس، على الأثر، بصيحة هي: «هكذا يريد اللّه» غدت بمثابة نفير تردد صداه في أوروبا، من أدناها إلى أقصاها، وسرى في الناس على اختلاف طبقاتهم كأنما بعدوى نفسانية عجيبة.

على أن هذه الاستجابة لم تكن بجملتها وليدة الدافع الديني الذي غذّته الكنيسة، بل كان هنالك، فضلاً عن المتعبّدين:

١- القوّاد العسكريون الطامعون بالاستيلاء على مناطق جديدة وجعلها إمارات تخضع لسيطرتهم.

٢- والتجّار، لا سيما تجّار جنوى والبندقية وبيزا، الذين كانوا أشدّ اهتماماً بالشؤون التجارية منهم بالأمور الروحية.

٣- ثم أرباب الخيال البعيد، والنفوس المضطربة، وعشّاق المغامرة، فهؤلاء كانوا على قدم الاستعداد أبداً للانضمام إلى كل حركة بارزة.

٤- وكذلك المجرمون والخطأة الذين نشدوا الغفران بالحج إلى الأرض المقدّسة التي وطئتها قدما المسيح، ومثلهم من منوا بالشقاء الاقتصادي والاجتماعي، فكان «حمل الصليب» راحة وتفرّجاً لهمومهم أكثر

منه تضحية .

وكانت هنالك عوامل أخرى ذات طابع عام، فاختيار البابا لجنوبي فرنسة مكاناً لبدء دعوته لم يكن من قبيل المصادفة المحضة . إذ كانت تلك البقعة من القارة الأوروبية قد اكتسحتها قبائل المسلمين قادمة من اسبانية ، وكان المسلمون خلال أربعة قرون ونصف القرن يوالون الهجوم على مواطن المسيحية : أولاً عن طريق الامبراطورية البيزنطية ، وثانياً عن طريق اسبانية وصقلية وإيطاليا ، وقد آن للمسيحية ان تبدي ردّة ما . وفوق ذلك كلّه ، فان امبراطور الروم ، الكسيوس كومنينوس ، كان قبل أن ألقى البابا أوربان خطبته المثيرة ، قد التمس العون منه على السلاجقة الذين اجتاحوا ممتلكاته الآسيوية حتى جوار القسطنطينية . دفعاً للغزو الاسلامي . ورأي البابا في هذا الالتماس فرصة سانحة لتوحيد الكنيسة اليونانية وكنيسة روما ، بعد الانشقاق الذي وقع بين ١٠٠٩ و ١٠٥٤م ، ولاقامة نفسه رئيساً أوحداً للمسيحية) .

إلى هنا وينتهي كلام الدكتور فيليب حِتّي .

أقول :

أمّا البواعث الحقيقية المستترة التي أدت إلى قيام تلك الحملات كما يؤكد المؤرّخون وتتفّق عليه غالبية المصادر الغربية فكانت :

١ - طموح الباباوات الذين كانوا يهدفون إلى توسيع رقعة نفوذهم وقوّتهم وسيطرتهم الدينية والكنسية والسياسية .

٢ - إنهاء الإسلام ديناً ودولة ، والتخلص من سيطرة العرب المسلمين ، والسلاجقة ، على الأراضي المقدّسة ، خصوصاً بعد انتزاعهم

لمدينة القدس وطردهم فاطميي مصر منها عام ١٠٧١م، وإنزالهم هزيمة ساحقة بالامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع في (مانزيكرت) بنفس السنة ترتّب عنها فقد البيزنطيين كل آسيا الصغرى تقريباً، وامتدّت ممتلكاتهم حتى بحر مرمرة.

٣- هدف (إقتصادي - سكّاني) ناجم عن تدهور الحالة الاقتصادية في أوروبا مما أيقظ الأطماع بالاستيلاء على ثروات الشرق. إضافة إلى أن تزايد عدد السكان في تلك البلدان يهدّد بخطر المجاعة والثورات والاضطرابات، فكان أن اعتبرت الجيوش الصليبية المكان الرحب لامتصاص هذا التزايد والتخلص منه في ساحات القتال.

٤- وفي نفس الوقت تُقدم هذه الحملات فرصاً ذهبية لتجّار المدن الأوروبية في الغرب، خصوصاً المدن الإيطالية كجنوة وبيسا وڤينيسيا.

٥- طموح بعض النبلاء إلى إنشاء الممالك والإمارات، إضافة إلى توق كثير من المجرمين والآثمين.

٦- تشتيت نزاعات حكام أوروبا الدائمة وصرف أنظارهم إلى جهة أخرى توحّد جهودهم وتشركهم في عمل جماعي ينسون بموجبه تلك النزاعات، ويحصلون بنهايته على المكاسب المادية والمعنوية.

٧- الصراعات المستمرّة بين الكنيستين اليونانية (الشرقية) واللاتينية (الغربية)، بحيث صار قدوم الحجّاج من الغرب إلى الأراضي المقدّسة أمراً شاقاً وعسيراً أحياناً، ويعود السبب في ذلك إلى أن البيزنطيين، لا سيما بعد حدوث الانشقاق الديني سنة ١٠٥٤م[١]، لم يعودوا دائمي الحرص على جعل طريق الحجّ هيّناً أو سهلاً. الأمر الذي جعل البابا ڤكتور

الثـاني Pope Victor II (٢) يجـأر بالشكوى إلى الامـبـراطورة تيـودورا Theodora في القسطنطينية حول ما كان موظّفوها يلجأوون إليه من ابتزاز أموال الحجّاج وإهانتهم .

ولجميع ما تقدّم من الأسباب ، كان لا بدّ من احتلال مدينة «القدس» والأراضي المقدّسة .

وهكذا اعتبرت الجيوش الصليبية بالمعنى المجازي كما يقول عنها المؤرّخون الغربيون : (الذراع العسكري للسياسة البابوية) .

كما صنّفوا دوافع المقاتلين الصليبيين وقبولهم التطوّع في الحملات جميعها رغم كل ما يتوقع أن يواجهونه إلى :

آ - الطمع الشخصي عند البعض .

ب - الحماسة الدينية عند البعض الآخر .

ج - حب المغامرة عند الكثير .

د - الاعتقاد بأن المشاركة في مثل هذه الحروب تعني غسل الذنوب والخلاص الشخصي من الآثام والمعاصي Salvation .

خلفيـة الحروب الصليبيـة : نشـأت فكرة الحـروب الصـليبيـة في المجتمعات الأوروبية (الإقطاعية - الكنسيّة) خلال القرن الحادي عشر للميلاد وكانت تلك المجتمعات مُهيّأة أصلاً للقتال فيما بينها نتيجة النزاعات المستمرّة بين ملوكها وأمرائها ، وفي نفس الوقت كانت الكنيسة تكافح لإيقاف هذه النزاعات وإنهاءها .

وفي القرن المذكور انتشرت في أوروبا صحوة دينية واسعة انطلقت

بشكل رئيسي من الأديرة والكنائس الكبرى في مدينة (كلوني Cluny) شرقي فرنسة، ونَصَّب الباباوات أنفسهم على رأس هذه الصحوة وعملوا بشدّة على إعادة تنظيم الكنيسة، وتطلّب الأمر تحريض الناس على الحجّ إلى الأراضي المقدّسة، وكانت تزورها في السابق مجموعات منظّمة من الحجّاج تصل أحياناً إلى الآلاف، ولم تذكر المصادر الغربية أن أحداً منها تعرّض إلى الاضطهاد أو الاعتداء.

في هذا الظرف كان السلاجقة الأتراك (وهم قبائل بدوية من أسيا الوسطى اعتنقوا الإسلام وسيطروا على آسيا الغربية وهُزموا أمام البيزنطيين في مانزيكرت Manzikert بأرمينيا عام ١٠٧١م) قد تغلغلوا في آسيا الوسطى وهدّدوا القسطنطينية، ثم اجتاحوا سورية وأنهوا الحكم الفاطمي فيها واحتلوا مدينة (القدس) عام ١٠٧٦م، فاستنجد البيزنطيون بالبابا وملوك الغرب كي يصدّوا تقدمهم، كما اشتكى الحجّاج المسيحيون من تعرّضهم للأذى بسبب القتال المستمرّ بين السلاجقة والبيزنطيين، وعدم استتباب الأمن في الطريق الذي يسلكونه إلى الأماكن المقدّسة.

وكانت البداية: ظهرت فكرة الحملات الصليبية حين قام البابا أوربان الثاني Urban II [٣] بالدعوة إلى تشكيل جيش مسلّح من المتطوّعة يذهب إلى الشرق ويقاتل المسلمين أعداء الديانة المسيحية [كذا]، وقد أطلق هذه الدعوة في مدينة (كليرمون Clermont) بجنوب فرنسة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٠٩٥م. ولم يكن البابا أوربان معنياً في مساعدة البيزنطيين (وهم غير مرغوب فيهم كثيراً في الغرب

منذ أن رمَت الكنيسة الإغريقية الشرقية والكنيسة الغربية الكاثوليكية الحَرْم الكَنَسي[٤] على بعضهما البعض) أكثر من اهتمامه بامتلاك القدس، وهي الهدف الأكبر للحجّاج المسيحيين. وعلى الرغم من أن مبتغاه الثاني قد يكون توحيد الكنيسة كلها، لهذا توسّل إلى ملوك وفرسان الغرب لنبذ نزاعاتهم وحروبهم، والعمل على توحّدهم لقتال المسلمين وراء البحار بدلاً عن الاقتتال فيما بينهم، وبهذه الطريقة قد تنجح الكنيسة في تعميم السلام واستتبابه في ربوع الغرب.

وكان على المقاتلين من الفرنج Franks أن يخيطوا على ثيابهم صليباً أحمر اللون للدلالة على أنهم من جنود السيّد المسيح، ومن الحجّاج، وتحت السلاح. وتذكر المصادر الغربية أن اسم (الصليبيين) أطلق نسبة إلى شعار الصليب المقدّس الذي حمله المقاتلون. كذلك أطلقت هذه التسمية في القرن الثالث عشر للميلاد على الحروب ضد الوثنيين، والهراطقة المنشقين عن العقيدة المسيحية، والخصوم السياسيين للباباوات.

وهكذا كانت البداية التي كلّفت الأطراف أعداداً أكثر من مخيفة من الضحايا.

وسأوجز ذكر الحملات الثمانية لأن الهدف من هذا البحث هو المحاولات التي جرت لاحتلال دمشق خصوصاً منها الحملة الثانية التي حاصرتها وكانت كارثة عسكرية كبيرة لملوك الفرنج وسمعتهم وجيوشهم.

* * * * *

الحملة الأولى : بدأت مسيرتها في شهر آب من عام ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦م، وانتهت عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م .

وتألفت من شقّين من المقاتلين : شقّ تمثّله مجموعات غير منظّمة من الفلاحين قُتل معظمهم براً في الطريق إلى القسطنطينية ، وشقّ آخر يشمل حملات منظّمة بإمرة النبلاء الفرنسيين .

وتجمّعت هذه الحملة من متطوّعة : جنوب إيطاليا ، وفرنسة وهم الغالبية العظمى ، ومقاطعات اللورين Lorraine (٥) ، وبورغاندي Burgundy (٦) ، والفلاندرز Flanders (٧) .

وحقق الفرنج في بلاد الشام تأسيس أربع ممالك هي :

١ - مملكة القدس اللاتينية Latin Kingdom of Jerusalem وهي الأكبر والأقوى .

٢ - إمارة أنطاكية في (وادي العاصي Orontes Valley) .

٣ - كونتيّة الرها Edessa (وهي مدينة أورفا في تركيا اليوم) وتضم مدينة الرها وأقاليمها .

٤ - كونتيّة طرابلس Tripoly (مدينة طرابلس الساحلية في لبنان) .

ويعتقد المؤرخون الغربين أن انتصارات الحملة الأولى تعود إلى العزلة والتفكّك والضعف النسبي لقوات المسلمين ، والصراعات الجارية بين دولهم في آسيا وإفريقية .

لكن الجيل الذي تلا هذه الحملة شهد بداية اتحاد القوى المسلمة في بلاد الشام بقيادة الأتابكي (عماد الدين زنكي) صاحب الموصل وحلب . وكان أول انتصار له يوم حرّر مدينة (الرها) عام ١١٤٤م كما ذكرت ، وبعدها

بدأ بتفكيك الممالك والإمارات الصليبية الواحدة بعد الأخرى بشكل منظّم ومدروس.

الحملة الثانية: بدأت عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٧م، وانتهت عام ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م.

ودعا إليها البابا (يوجينيوس الثالث Eugenius III) وأيّده في ذلك القديس برنارد عند سقوط (الرها) بيد عماد الدين زنكي عام ١١٤٤م. وقادالحملة كل من (لويس السابع Louis VII) ملك فرنسة، و(كونراد الثالث Conrad III) إمبراطور ألمانيا، ولكنها لم تحقّق أية نتائج سوى حصارها الفاشل لدمشق دون أن تدخلها، وقاد الحصار (بولدوين الثالث Baldwin III) ملك القدس وكان في السابق من ملوك الأراضي المنخفضة (هولندة وبلجيكا). بعدها عاد الفريقان الفرنسي والألماني إلى بلادهما. لذلك تسمّيها المصادر الغربية (الحملة الكارثة).

الحملة الثالثة: بدأت عام ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩م، وانتهت عام ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م.

دعا إليها البابا بعد أن حرّر السلطان صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م.

وقاد الحملة كل من (فيليپ الثاني Philippe II) ملك فرنسة، و(ريتشارد الأول Richard I) ملك إنكلترا، و(فريدريك بارباروس Frederick Barbarossa) إمبراطور ألمانيا الذي غرق أثناء الرحلة. ولمّا لم

يتوصّل الإنكليز والفرنسيون إلى تفاهم أو اتفاق، عاد ملك فرنسة إلى دياره عام ١١٩٦م. لكن هذه الحملة حققت:

١- الاستيلاء على مدينة (عكا Acre).

٢- توصّل ريتشارد الأول ملك إنكلترا إلى هدنة مع المسلمين لمدة ثلاث سنوات تبدأ من ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦م، وحصل من خلالها على ضمانات بحريّة حجّ الأوروبيين إلى بيت المقدس لمن يرغب.

الحملة الرابعة: بدأت عام ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢م، وانتهت عام ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤م.

قامت بتحريض البابا (إنوسنت الثالث Innocent III)، وسيطر عليها المتطوعون من أهل البندقية في إيطاليا.

وكان من نتائجها أن احتلوا القسطنطينية وأسّسوا فيها الإمبراطورية البيزنطية اللاتينية التي استمرّت خلال السنوات (١٢٠٤ - ١٢٦١م).

الحملة الخامسة: بدأت عام ٦١٥ هـ/ ١٢١٨م، وانتهت عام ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م.

قامت أيضاً بتحريض البابا (إنوسنت الثالث Innocent III) عام ١٢١٥م لمحاربة العرب والمسلمين في مصر، لكنها فشلت في احتلالها.

الحملة السادسة: بدأت عام ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨م، وانتهت عام ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م.

وقادها (فريدريك الثاني Frederick II) إمبراطور پروسيا Prussia وضمن فيها بقاء (القدس Jerusalem) و(بيت لحم Bethlehem) و(الناصرة Nazareth) بعيداً عن خطر مهاجمتها وبالتالي تحريرها من قبل المسلمين.

الحملة السابعة : بدأت عام ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨م، وانتهت عام ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤م.

قامت بتحريض البابا (إنوسنت الرابع Innocent IV) عام ١٢٤٥م إثر تحرير القدس، وقاد الحملة فيها (لويس التاسع Louis IX) ملك فرنسة، فسقط أسيراً بيد المصريين وخسر مدينة (دمياط Damietta) المصرية.

الحملة الثامنة : بدأت عام ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠م، وانتهت بنفس العام.

قادها أيضاً (لويس التاسع Louis IX) ملك فرنسة بعد أن أطلق سراحه من مصر وعاد إلى بلاده، لكنه توفي في تونس عند بداية الحملة، وقيل مات بالطاعون.

وخلاصة القول ان الصليبيين فشلوا في تحقيق أهدافهم العسكرية، واستعاد العرب أراضيهم المقدّسة، وسيطر الأتراك على الامبراطورية البيزنطية بعد أن أضعفتها الممالك الصليبية اللاتينية، تلك الممالك التي ساعدت على دعم السلطة البابويّة، ومحاولة بناء دول المدن الإيطالية

(City States) بزيادة الاتجار مع الشرق لكنها لم تحقق شيئاً .

ولاة دمشق في العهد السلجوقي للمنجّد ٩

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لحِتّي ٢/ ٢٢٣

الصليبيون في الشرق لزابوروف ٣

الحروب الصليبية لپاركر ١٤

هنا بدأت الحضارة للشهابي ٤٤

موسوعة Encarta

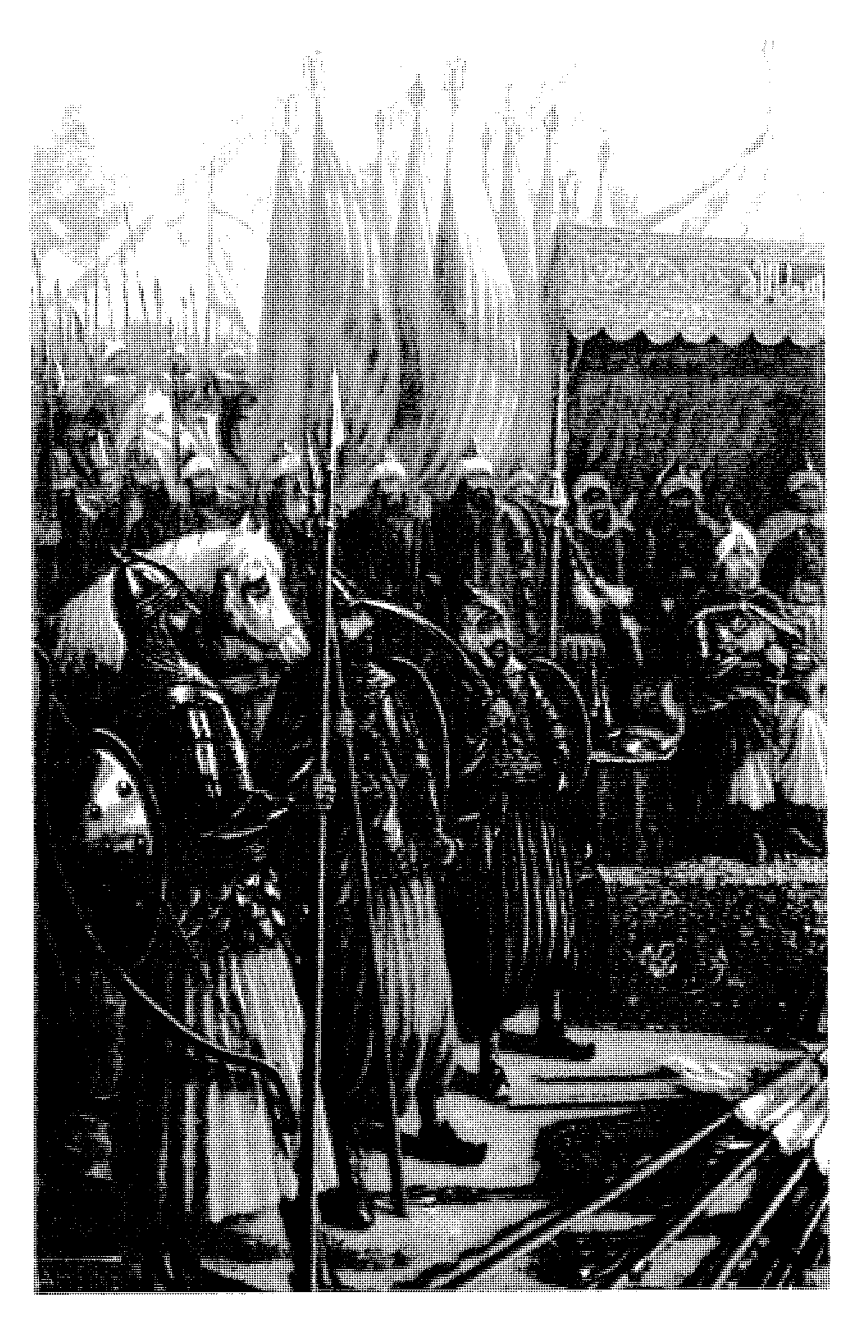
Encyclopedia Americana 8/264

Larousse Encyclopedia 197



البابا أوربانوس الثاني يبارك الفرسان الصليبيين والفقراء المشتركين في الحملة الأولى

عن كتاب : The Crusades and the Holy Land



تفصيل من لوحة «صلاح الدين الأيوبي وملوك الفرنج يستسلمون له» للفنان العربي السوري الكبير سعيد تحسين.

(من مقتنيات متحف دمشق)



صلاح الدين الأيوبي كما تخيّله فنان من الفرنج



كتب عند الصورة: (على الرغم من أن العرب المسلمين استعادوا مدينة القدس، إلا أنهم لم يمنعوا الحجّاج المسيحيين من زيارة المعالم المقدّسة في المدينة، ويشاهد الحرّاس المسلمون أمام مدخل كنيسة القبر المقدّس وهم يسمحون للحجّاج المسيحيين بالدخول إليها).

عن كتاب: **The Crusades and the Holy Land**

هوامش الفصل الأول

(١) يرجع الانشقاق بين الكنيستين اليونانية واللاتينية إلى شقّين، أولهما الشقّ الظاهر وهو الاختلاف على بعض المسائل الدينية مثل زواج القساوسة وعبادة الصور ونحلة التبنّي، أمّا الشق الحقيقي الخفي فهو أعمق من ذلك، بسبب الحركة الكلونية، ذلك أن السلطتين الروحية والزمنية إنما ارتبطتا بالبابا في روما، وعلى بيزنطة أن تدرك أن البابوية، بعد إصلاحها، لن تقبل الاذعان. أنظر: الحروب الصليبية لپاركر، ح ٣.

(٢) البابا فكتور الثاني Pope Victor II : تسنّم كرسي البابوية عام ١٠٥٥ م، وتوفي عام ١٠٥٧م. أنظر: Encyclopedia Americana .

(٣) البابا أوربان الثاني: تولى الكرسي البابوي عام ١٠٨٨م وتوفي عام ١٠٩٩م. أنظر: المنجد في الأعلام ٨٢.

(٤) الحَرْم الكَنَسي Excommunication : حرمان الشخص من حقوق عضوية الكنيسة. أنظر: معجم المورد (إنكليزي – عربي) ٣٢٥.

(٥) مقاطعة اللورين Lorraine : منطقة في شرق فرنسة، بين جبال الفوج وحوض پاريس. أنظر:

Larousse Illustrated International Encyclopedia & Dictionary.

(٦) مقاطعة بورغاندي Burgundy : منطقة في جنوب شرق فرنسة. أنظر:

Larousse Illustrated International Encyclopedia & Dictionary.

(٧) مقاطعة الفلاندرز Flanders : منطقة واسعة تمتدّ في فرنسة وبلجيكا على بحر الشمال، بين مرتفعات أرتوا ومصبّ نهر اسكو. أنظر:

Larousse Illustrated International Encyclopedia & Dictionary.

الفصل الثاني

الحملة الصليبية الأولى

The First Crusade

بدأت هذه الحملة مسيرتها في شهر آب من عام ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦م، وانتهت عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م.

وكانت تتألف من مجموعتين من المقاتلين:

١ - مجموعات غير منظّمة من الفلاحين شكّلت خمسة جيوش من الفقراء، لم تستطع ثلاثة منها بقيادة فولشر صاحب أورليان، وجوتشلك ووليم النجار على التوالي، من الوصول إلى القسطنطينية Constantinople إذ لقي جيشا فولشر وجوتشلك الدمار على يد المجريين Hungarians في حزيران ١٠٩٦م، نتيجة لما ارتكبه الجند في المجر من أعمال العنف والنهب والسلب والتخريب. أما الجيش الثالث، فإنه بعدما اشترك في قتال اليهود بالبلاد الواقعة بوادي نهر الراين Rhine ، وهلك أثناء ذلك نحو عشرة آلاف يهودي، لم يلبث أن تبدّد شذراً في بلاد المجر Hungary .

ووصل الجيشان الباقيان بسلام إلى القسطنطينية، كان أولهما بقيادة والتر المُفْلِس Walter the Penniless وصل في شهر تموز، وثانيهما بقيادة بطرس الناسك، وصل آخر تموز، بعد أن فقد عدداً كبيراً منه فازدادت حالته سوءاً. وعلى الرغم من المعاملة الطيّبة التي غمرهم بها إمبراطور بيزنطة (إلكسيوس)، فإنهما ارتكبا الفظائع مع اليونانيين.

وبعد اتحاد الجيشين عبرا مضيق البوسفور في شهر آب، وفي نهاية

هذا الشهر لم يبق منهما إلى أكوام العظام بعد أن فتك بهما السلاجقة في آسيا الصغرى .

٢- قوآت منظّمة بإمرة النبلاء الفرنسيين : أخذت هذه القوآت بالتجمّع في شهر آذار من عام ١٠٩٦م ، وشكّلت ثلاثة جيوش كبيرة ، بقيادة ثلاثة من الأمراء المشهورين :

I - جودفري أمير بويون Godfrey of Bouillon ، تولّى مع أخيه قيادة قوات اللورين Lorraine بفرنسة ، وبلغ القسطنطينية في ٢٣ كانون الأول ١٠٩٦م .

II - ريموند أمير تولوز Raymond of Toulouse بالاشتراك مع الأسقف ادهيمر ، المندوب البابوي ، قادا قوات البروڤنساليين القادمين من إقليم Provence بفرنسة ، وبلغا القسطنطينية في آخر نيسان ١٠٩٧م .

III - بوهمند أمير تورنتو Bohemond of Taranto بالاشتراك مع ابن أخيه تانكرد ، قادا جيشاً من النرماندين القادمين من نورماندیا Normandy بفرنسة ، ووصلا القسطنطينية في نفس زمن وصول ريموند .

وكانت كل مجموعة من الجيوش مسؤولة عن تمويل ذاتها ، كما كانت مسؤولة تجاه قائدها ، وعليها التوجّه إلى القسطنطينية بشكل إفرادي حتى تتجمّع هناك ، فتقوم بالهجوم المعاكس على الغزاة من سلاجقة الأناضول بالتعاون مع الامبراطور البيزنطي وجيشه . وبعد أن تصبح الأناضول تحت سيطرتهم يقومون بحملة على المسلمين في سورية وفلسطين وهما نهاية أربهم .

وتجمّعت هذه الحملة من متطوّعة : جنوب إيطاليا ، وفرنسة وهم

الغالبية العظمى، ومقاطعات اللورين Lorraine، وبورغانـدي Burgundy، والفلاندرز Flanders .

وعلى الرغم من المشاركة الكبيرة في هذه الحملة، لم تنجح إلا فئة قليلة في الوصول إلى البلاد الإسلامية لأن معظمها (نَفَق) في الطريق، وفئة أقل منها عاشت لترى احتلال القدس.

وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية في تشرين الثاني من عام ١٠٩٦م واستمر وصولها إلى أيار ١٠٩٧م، ثم ظهر التنافس والخلاف بين ملوكها وبين الامبراطور البيزنطي (أليكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus) الذي طلب إليهم تسليمه المناطق البيزنطية التي احتلتها، وعلى الرغم من غيظ معظم القادة الصليبيين لهذا الطلب، استجاب كثير منهم بالموافقة، لكن الشكوك بدأت ترتادهم بنوايا بيزنطة.

ويلخّص (إرنست باركر Ernest Barker) أسباب الحملة الأولى ودوافعها الأساسية فيقول:

١- كانت الكنيسة البابوية في روما هي التي ابتكرت فكرة الحملة الصليبية الأولى، لأن رجال الدين يؤمنون بالحجّ من أجل التوبة، فيجوز أن تتحوّل الحرب ضد السلاجقة إلى الحجّ لكنيسة القيامة.

٢- ولأن رجال الدين أيضاً يرغبون في أن يوجّهوا ويشبعوا ما عند العلمانيين من غريزة المُقاتلة.

٣- إن ما تشتهر به بيت المقدس من اسم مقدّس يجعل المسير إليها يتّسم بالبراءة وعدم الريبة.

٤- وفوق كل ذلك، أرادت البابوية أن تحكم في الأرض المقدّسة

كنيسة عالمية خالصة .

٥- على أنه من الأصوب ، إن لم يكن كل الصواب ، أن نقول : ان رجال الدين هم الذين فجّروا «الحرب الصليبية» لتبرير المصالح والمطامع التي حدث أن اتّفقت مع ما اختاروه من وسائل ، على الرغم من أن هذه الحروب انطلقت لتحقيق أغراض مخالفة لأغراض الكنيسة .

٦- تعدّد الأطماع والطموحات والمصالح الفردية والجماعية والاقتصادية في أوروبا ، وعلى سبيل المثال طموح الأمير المغامر ، والابن الأصغر (لجويسكارد) الحريص على أن يقيم لنفسه إمارة في الشرق . وكذلك (بوهمند) ، ثم إن هناك مصالح تجّار المدن الإيطالية التي حرصت على الحصول على منتجات الشرق بسعر رخيص وعن طريق مباشر ، بفضل ما تشيّده من مستودعات في شرق البحر الأبيض المتوسّط . لذلك يُعتبر النوع الأول الذي يمثّله (بوهمند) القوّة المحرّكة التي كفلت نجاح الحملة الأولى ، في حين فشلت الحملات المتأخّرة بسبب افتقارها إلى هذا المؤثّر .

أمّا النوع الثاني الذي تمثّله مصالح المدن الإيطالية فيعتبر الحليف القوي المتين . والذي بفضله وحده استطاع بلدوين الأول ، وبلدوين الثاني ، أن يقيما مملكة بيت المقدس .

٧- أمّا النتائج الماديّة الدائمة التي أدّت إليها الحروب الصليبية في الشرق ، فترجع إلى إلى حدّ كبير لهذين العاملين السابقين . لأن الحماس المضطرب وغير المنظّم لم يكن له إلا الضئيل من التأثير ، ويكاد أن يكون بلا تأثير مطلقاً . أما الحماس [الاقتصادي] الذي اتخذه ووجّهه كل من النورماني الماكر ، والبندقي أو الجنوي الذي لا يقلّ عنه مكراً ، فهو الذي أدى إلى

النتائج المحقّقة.

٨ - وكانت المجاعة والأوبئة اللتان انتشرتا في أوروبا، من الأسباب الدنيوية لا الدينية التي أدّت إلى التحاق جموع الدهماء بتلك الحملات، ففي سنة ١٠٩٤م وقع وباء انتشر من الفلاندر Flanders وامتدّ إلى بوهيميا Bohemia ، وفي عام ١٠٩٥م حدثت مجاعة في اللورين Lorraine، فلا عجب أن تتدفّق الجموع البشرية نحو الشرق هرباً وخلاصاً من الضيق والفقر والمرض. تماماً كما كان يحدث عندما يندفع سيل من المغامرين المتباينين نحو منجم ذهب اكتشف حديثاً في الغرب الأمريكي. غير أن هذا السيل عُرف بما كان يحمله في ثنايا المياه العكرة، ومن الوسخ الزائد، والأفّاقين والمفلسين وقُطّاع الطرق.

إلى هنا ينتهي ما قاله باركر.

وكانت النتيجة:

١ - في شهر أيار ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٧م بدأ هجوم الصليبيين على الهدف الأول نيكايي Nicaea (حالياً إزنيك Iznik) عاصمة الأناضول فاستسلمت للبيزنطيين ورفضت أن تستسلم للصليبيين، وذلك في شهر حزيران من نفس العام، مما أكّد الشكوك بأن الأمبراطور أليكسيوس كان يسعى إلى استغلالهم للحصول على المكاسب الذاتية.

وتلقّت بيزنطة الصدمة الأولى بعد وصول القوات الصليبية المكوّنة من مئات الألوف من الجنود، ففي حين كان إمبراطورها يأمل في أن تكون هذه القوّات التي استنجد بها عوناً له على استرداد آسيا الصغرى، تحقّق من

أنها تعمل بشكل مستقلّ عنه، ولا تخضع لأوامره ولا لسلطانه، وأنها تهدف بشكل مستقل إلى الاستيلاء على بيت المقدس لحسابها الخاص.

وهكذا كان الصراع خفياً بين الفريقين، كلّ يجرّ اللّحاف إلى نفسه ويأمل بالغنيمة الكبرى، ولم يكن الصليبيون يعملون بصورة مستقلة عن مصالح الامبراطورية البيزنطية فحسب، بل أصبحوا في آخر الأمر يشكّلون القوة المعادية لها.

وهذا هو الصراع الأزلي الأبدي بين الشرق والغرب والذي ما يزال.

وبعد سقوط مدينة نيقية Nicaea (هي اليوم مدينة إزنيق Iznik التركية) بفترة وجيزة عزّز الصليبيون انتصارهم بلقائهم جيش الأناضول السلجوقي الرئيسي بقيادة السلطان (قلج أرسلان)[1] في دوريلايم Dorylaeum (وهي اليوم مدينة إسكي شهر Eski şhehir)[2] فانتصروا عليه في أول شهر تموز من عام ١٠٩٧م انتصاراً ساحقاً أباد معظم أفراده ولم ينج سوى القلّة، وذلك بعد معركة عنيفة استمرّت زمناً طويلاً برز فيها اسم (بوهمند أمير تورنتو Bohemond of Taranto) كواحد من أبطالها.

ونتيجة لذلك لم يعد الصليبيون يواجهون سوى القليل من المقاومة خلال حملاتهم في آسيا الصغرى، فقطعوا البلاد بلا عناء مارّين بمدينة (قونية) Konya[3] وجبال طوروس الشرقية، فخلى السلاجقة لهم الطريق، ولقوا في منطقة (مرعش) بعض المساعدة من سكّانها.

٢- الهدف التالي للصليبيين كان مدينة (أنطاكية Antioch)[4] الساحلية السورية، وكان صاحبها السلجوقي (ياغي سيان) مملوك السلطان أرسلان، فحاصروها في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول عام

٤٩١ هـ/ ١٠٩٧م، فأرسل ياغي سيان ولده إلى صاحب دمشق الملك دُقاق بن تُتُش بن ألب أرسلان(٥) يطلب منه المعونة، فجهّز دقاق عسكراً لنجدته، وكان الفرنج قد تقدّموا فنزلوا على (بغراس)(٦) و(أرتاح)(٧) و(البارة)(٨)، وتلاقى الجيشان عند البارة فتقاتلا، فعاد الفرنج إلى الروج(٩) وأنطاكية التي صمدت ولم تسقط في أيديهم إلا في الثاني من رجب ٤٩١ هـ/ الثالث من حزيران ١٠٩٨م، وكانت أول ما يسقط من المدن السورية.

ويذكر المؤرّخون بأن الاستيلاء على أنطاكية يرجع إلى خيانة الأمير (فيروز) السلجوقي أحد قادة ياغي سيان الذي دخل في مفاوضات مع (بوهمند) على تسليمه المدينة.

ولم يمض وقت طويل على احتلالها حتى وصل إليها جيش جديد من سلاجقة الموصل بقيادة (كربوغا) أميرها، جاء للدفاع عنها، لكنه وصل متأخّراً واستطاع الفرنج ردّه في الثامن والعشرين من حزيران في نفس العام المذكور.

وكان إرسال الجيش السلجوقي من دمشق لنجدة أنطاكية أول تجريدة عسكرية دمشقية تدافع عن أرض الوطن خارج المدينة، ومنذ ذلك الحين تبوّأت مركزاً حربياً جديداً، بوّأها إياه حكامها من السلاجقة الأشدّاء، وبقيت كذلك أيام نور الدين [الشهيد] وصلاح الدين الأيوبي، وأيام الملك الظاهر بيبرس في العهد المملوكي.

٣- وبعد أن استراحت قواتهم في أنطاكية بقية الصيف، بدؤوا يستعدون للزحف على هدفهم الرئيسي (القدس Jerusalem)، فتحركوا باتجاهها على الطريق الساحلي أواخر شهر تشرين الثاني ١٠٩٨م، متجنّبين

الهجوم على المدن و الحصون الدفاعية ليحافظوا على قواتهم .

وفي أيار ١٠٩٩م وصلوا الحدود الشمالية لفلسطين ، ثم أشرفوا على جدران القدس مساء السابع من حزيران في نفس العام وعسكروا هناك .

وفي هذا الوقت كانت المدينة تحت السيطرة المصرية والدولة الفاطمية فيها ، وكان المدافعون عنها بأعداد كبيرة ، ومجهزين تجهيزاً كاملاً لمقاومة الحصار ، لكن الفرنج هاجموا بسرعة ، وكان لوصول النجدات من (جنوى Genoa) الإيطالية ، واستعمال آلات الحصار المبنيّة حديثاً ، أثره في اقتحامها كعاصفة هوجاء يوم الخامس عشر من تموز عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م بعد حصار استمرّ ما يزيد عن الشهر ، ففتكوا بمعظم أهلها تقريباً ، وانتهكوا حرماتها ومقدّساتها ، وكانوا يتفاخرون : «بأن المدينة طُهِّرت بدماء المهزومين الكفّار ! ؟» .

وبعد أسبوع من احتلالهم للقدس انتخب الصليبيون أحد قوادهم ملكاً عليها ، وهو (كودفري أمير بويون Godfrey of Bouillon)[١٠] دوق اللورين الأسفل .

وفي الثاني عشر من آب ١٠٩٩م هزمت قواته الجيش المصري الفاطمي قرب مدينة (عسقلان Ascalon) بفلسطين .

عندها غادرت الغالبية العظمى من الصليبيين عائدة إلى بلادها أوروبا وتركت (كودفري) وبقية قليلة من القوات الأصلية ليرسّخ سلطة اللاتين (الأوروبيون الغربيون) بحكومة تدير المناطق المحتلة .

وأسّس الفرنج في بلاد الشام أربع ممالك :

١ - مملكة القدس اللاتينية Latin Kingdom of Jerusalem وهي

الأكبر والأقوى.

٢- إمارة أنطاكية في (وادي العاصي Orontes Valley).

٣- كونتيّة الرها Edessa (وهي مدينة أورفا في تركيا اليوم) وتضمّ مدينة الرها وأقاليمها.

٤- كونتيّة طرابلس Tripoly (مدينة طرابلس الساحلية في لبنان).

ويعتقد المؤرخون الغربيين أن انتصارات الحملة الأولى تعود إلى العزلة والضعف النسبي لقوات المسلمين نتيجة التفكّك والانقسام والتناحر الدائم بين الفاطميين في مصر والعبّاسيين في بغداد، الناجم بالدرجة الأولى عن اختلاف المذهبين الاسلاميين فيهما.

غير أن الجيل الذي تلا هذه الحملة شهد بداية اتحاد المسلمين في بلاد الشام بقيادة الأتابكي (عماد الدين زنكي) صاحب الموصل وحلب. وكان أول انتصار له يوم استردّ مدينة (الرها) عام ١١٤٤م كما ذكرت، وبدأ بعدها بتفكيك الممالك والإمارات الصليبية بشكل منظّم ومدروس.

ولاة دمشق في العهد السلجوقي للمنجّد ٩

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لحتّي ٢/ ٢٢٣

الصليبيون في الشرق لزابوروف ٣

الحروب الصليبية لباركر ٢١

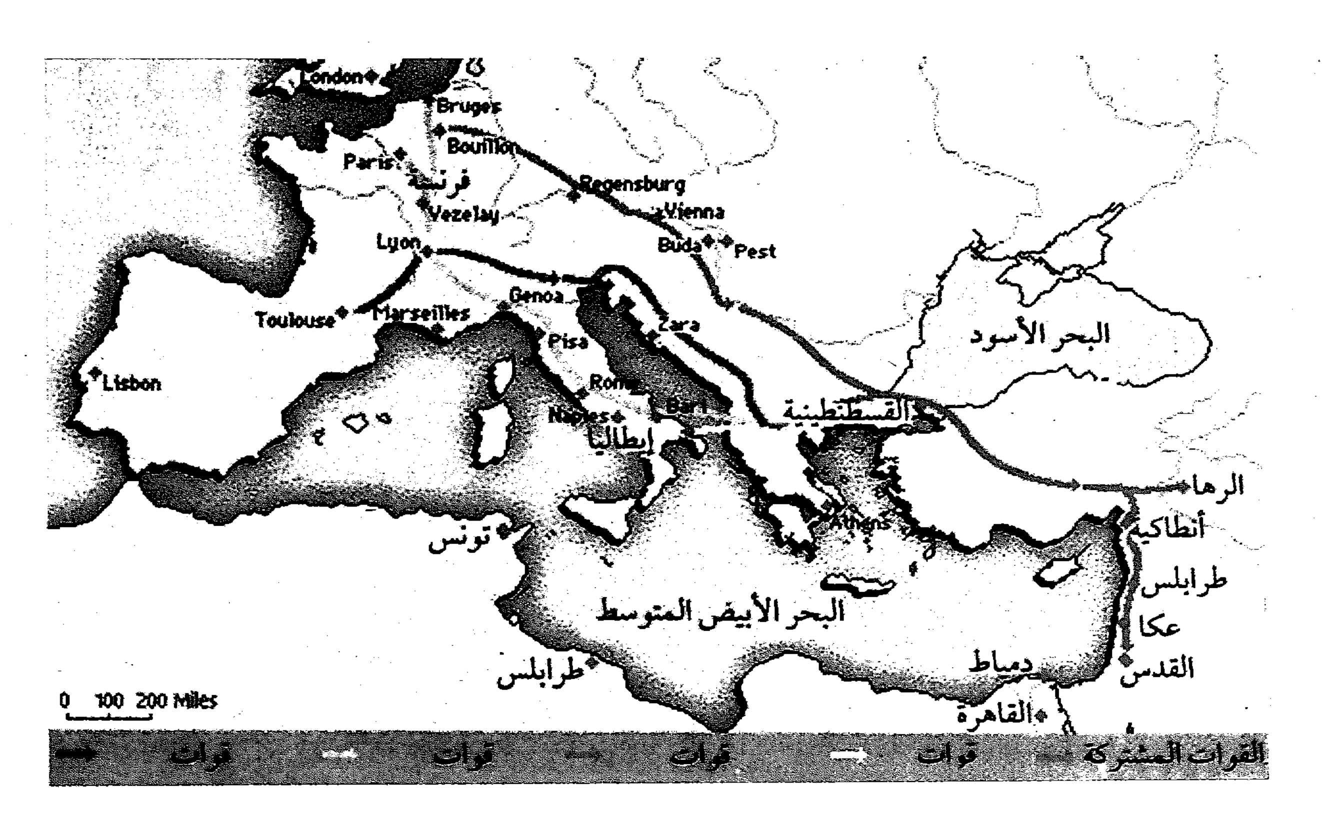
هنا بدأت الحضارة للشهابي ٤٤

موسوعة Encarta

Encyclopedia Americana 8/264

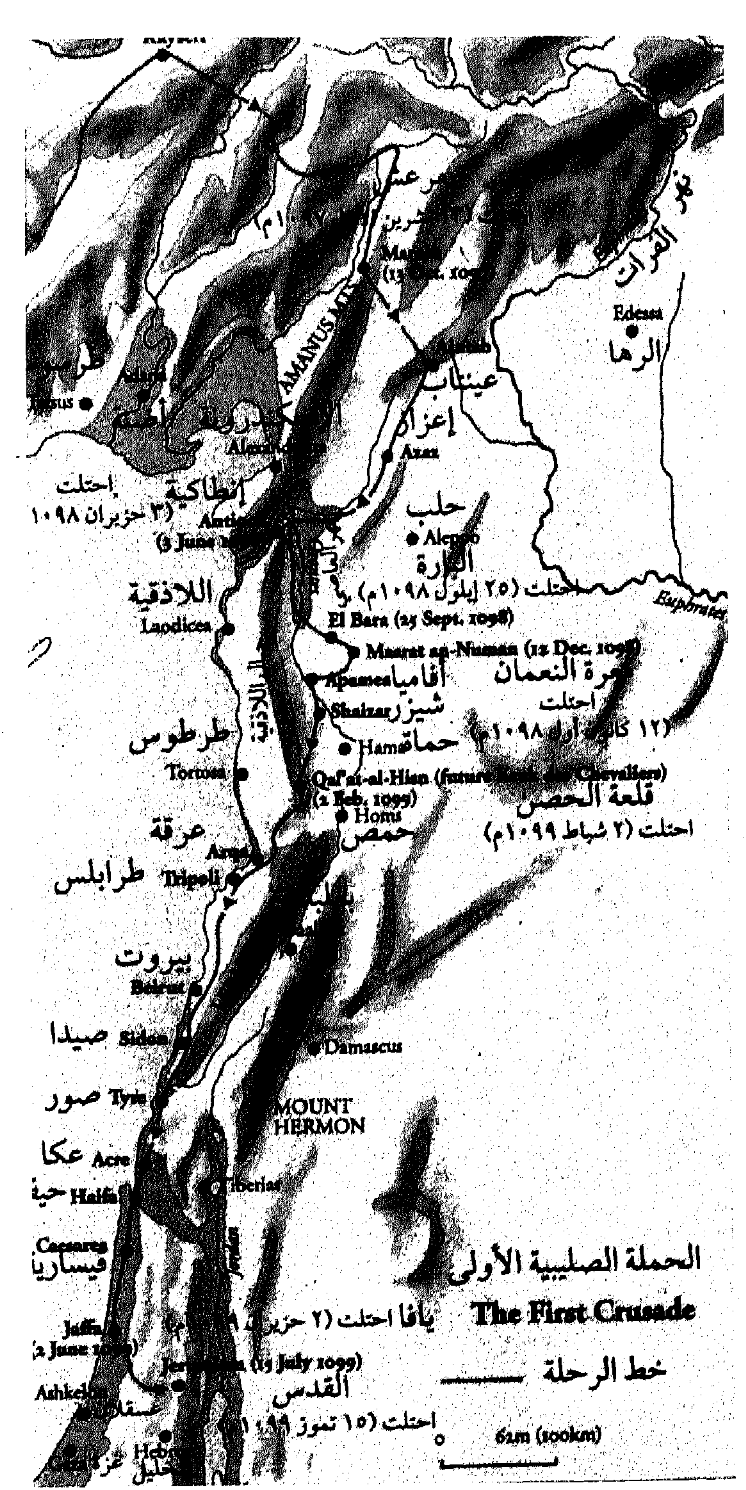
Larousse Encyclopedia 197

الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م
(تجمّع جيوشها ومسارها لاحتلال القدس)



من ترنتو في جنوب إيطاليا	من بويون في شمال فرنسة	من الفلاندر (هولندة وبلجيكا)	من ثولوز في جنوب فرنسة

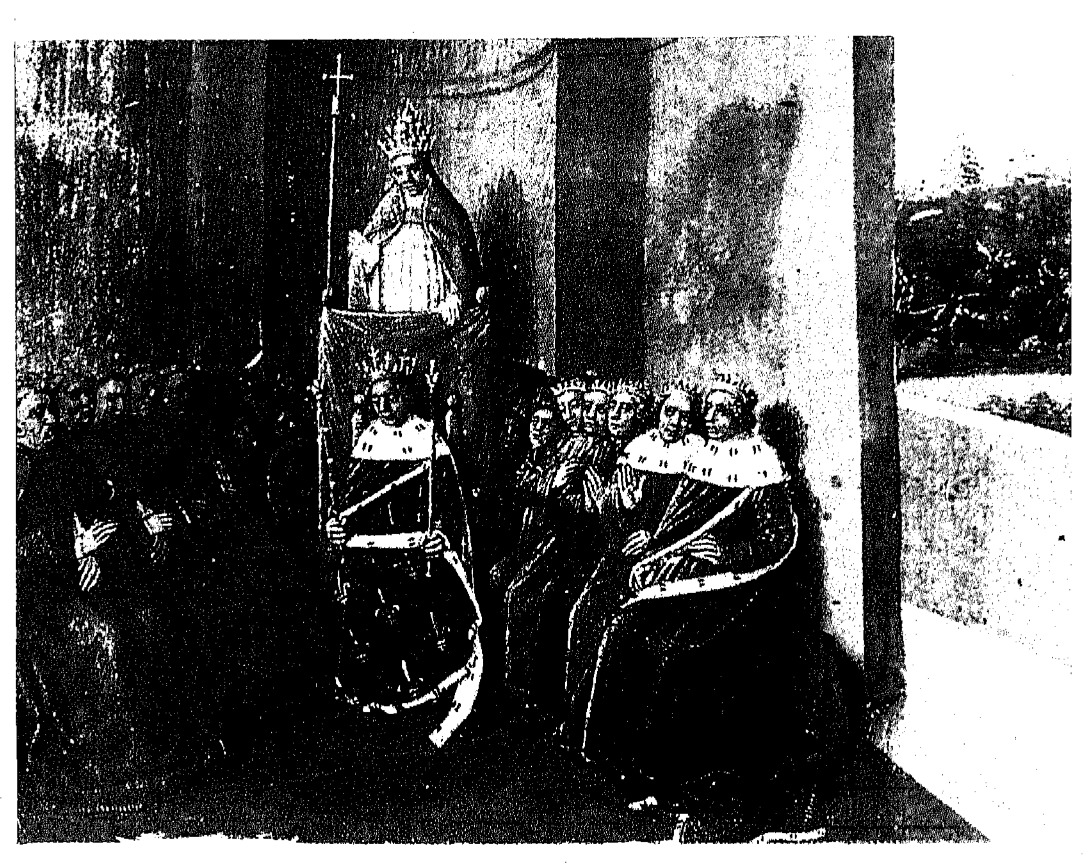
بتصرف عن موسوعة Encarta



خط سير
الحملة الصليبية الأولى

بتصرّف عن كتاب:

The Crusades
and the Holy Land



البابا أوربان الثاني يبشّر بالحملة الصليبية الأولى أمام فيليپ الأول ملك فرنسة

(منمنمة في المكتبة الوطنية بباريس تعود لعام ١٤٦٠م)

عن كتاب: **The Crusades and the Holy Land**



قادة الحملة الصليبية الأولى

جودفري أمير بويون، ريموند الرابع أمير تولوز، بوهيموند أمير تورنتو، وتانكريد أمير هوتڤيل

(لوحة حفر بلا التاريخ)

عن كتاب: **The Crusades and the Holy Land**



جودفري أول ملك لمملكة القدس اللاتينية

(لوحة حفر بلا التاريخ)

عن كتاب: **The Crusades and the Holy Land**

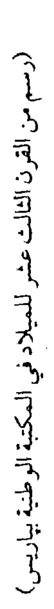


الرئيس الاكبر لفرسان الداويّة (فرسان الهيكل)

(لوحة حفر من القرن الثالث عشر للميلاد)

عن كتاب : **The Crusades and the Holy Land**





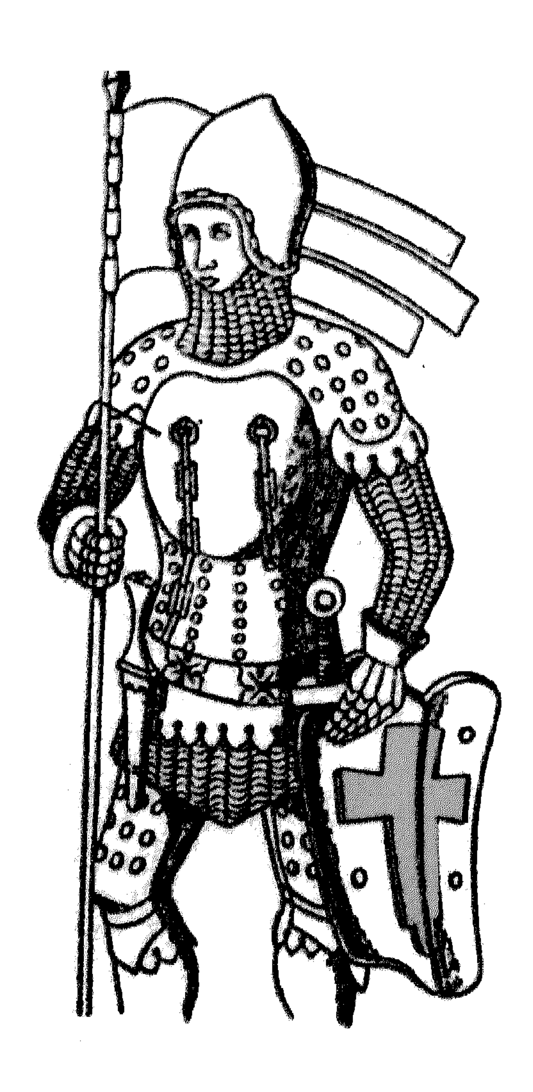
(رسم من القرن الثالث عشر للميلاد في المكتبة الوطنية بباريس)

فارس من الداويّة

عن كتاب :

The Crusades

and the Holy Land



مقاتل صليبي

Crusader

عن موسوعة

The Reader's Digest
Great Encyclopaedic Dictionary

هوامش الفصل الثاني

(١) قلج أرسلان: لم أتوصّل إلى ترجمة كاملة له أكثر من كونه سلطاناً سلجوقياً حكم آسيا الصغرى بصورة مستقلّة واتّخذ مدينة «قونية» عاصمة له.

(٢) دوريلايم Dorylaeum: هي مدينة إسكي شهر Eski shehir في الأناضول، وتتصف بكونها مدينة صغيرة أقامت فيها والدتي وجدّها وأسرته بعد أن نفتهم (وبالعامية: سركنتهم) السلطات التركية مع عدد من العائلات السورية إلى هناك إثر إعدام جمال باشا السفّاح للمناضلين الوطنيين الذين عُرفوا بشهداء ٦ أيار ١٩١٦م، وكان خال والدتي (الأمير عارف الشهابي) من بينهم.

(٣) قونية: مدينة في الأناضول فيها ضريح (جلال الدين الرومي) مؤسّس المولويّة الصوفيّة، وكذلك فيها قبر (جحا) المشهور بما تروى عنه من نكات ونوادر.

(٤) أنطاكية Antioch: مدينة تاريخية عريقة، أسّسها في العهد اليوناني «سلوقس نيكاتور» عام ٣٠٠ ق. م، وأصبحت عاصمة للدولة السلوقية، وغدت في العهد الروماني ثالث مدينة بعد روما والاسكندرية، وحرّرها العرب سنة ٦٣٨ م، وفي الثاني من شهر رجب ٤٩١ هـ/ الثالث من حزيران ١٠٩٨م استولى عليها الصليبيون وأسّسوا فيها «إمارة أنطاكية»، وحرّرها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨م. واحتلّها العثمانيون عام ١٥١٦م، ثم الفرنسيون عام ١٩١٨م، وسُلخت عن الوطن الأم سورية حينما منحها الفرنسيون ولواء الاسكندرونة (اللواء السليب) إلى تركيا عام ١٩٣٩م. أنظر: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، وهنا بدأت الحضارة للشهابي ٢٠٦.

(٥) دُقاق : هو شمس الملوك دُقاق بن تُتُش بن ألب أرسلان، أبو نصر، ولي إمرة دمشق بعد قتل أبيه تاج الدولة تُتُشْ سنة ٤٨٧ هـ، وكان عندها في مدينة حلب، فراسله سراً خادم لأبيه اسمه (ساوتكين) كان نائباً لأبيه في قلعة دمشق لكي لا يعرف أخوه رضوان بن تتش صاحب حلب بذلك، فخرج دُقاق إلى دمشق وحصل بها، وأجلسه ساوتكين في منصب أبيه. ثم دبّر هو وطُغتكين (زوج أمّ الملك دُقاق) قَتل ساوتكين فقُتل. وأقام دقاق بدمشق. وقدم أخوه رضوان فحاصرها لكنه لم ينجح فرجع إلى حلب، ثم عرض لدُقاق مرض تطاول به، وتوفي في الثاني عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة. فغلب طُغتكين حينئذ على دمشق. وقيل مات مسموماً سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، وأن أمّه زينت له جارية فسمّته في عنقود عنب معلّق في شجرة ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم. وأن أمه ندمت على ذلك بعد الفوت، وأومأت إلى الجارية أن لا تفعل، فأشارت إليها أن قد كان، وتهرّا جوفه فمات. أنظر: ولاة دمشق في العهد السلجوقي للمنجّد ١٩.

(٦) بغراس: قرية في جبال الأمانوس (اللكام) بلواء الاسكندرونة (اللواء السليب)، واسمها التركي الحالي: (أوتان جاي). أنظر: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

(٧) أرتاح: حصن منيع كان في أعمال حلب. أنظر: معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٨) البارة: قرية في جبل الزاوية من محافظة إدلب. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

(٩) الروج: سهل على نهر العاصي، إلى الغرب من مدينة إدلب والشمال من جسر الشغور.

(١٠) گودفري الرابع أمير بويون Godfrey of Bouillon : دوق اللورين الأسفل، قائد فرنسي في الحملة الصليبية الأولى، ولد عام ١٠٦٠م، وأنتخب أول ملك لمملكة القدس اللاتينية بعد الاستيلاء عليها عام ١٠٩٩م، وتوفي فيها عام ١١٠٠م. أنظر:
Larousse Illustrated International Encyclopedia & Dictionary.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الثانية وقادتها

(الحملة الكارثة Disastrous Crusade)

(بدأت عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٧م، وانتهت عام ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م)

كان لتحرير مدينة الرها[١] من سيطرة الصليبيين وسقوطها بيد الأتابكي عماد الدين زنكي بن آق سنقر السلجوقي[٢] صاحب الموصل عام (٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م)، وانتصاره على (جوسلين الثاني) صاحبها الصليبي، وتوطد أقدامه في العالم الإسلامي، أثره الكبير في تفجير شرارة الدعوة في أوروبا إلى حرب جديدة في الشرق، والسبب المباشر لتشكيل الحملة الصليبية الثانية.

حينما بدأ البابا (يوجينيوس الثالث Eugenius III)[٣] بالتبشير لها وتنظيمها، يدعمه في ذلك القدّيس (برنارد Bernard)[٤] رئيس دير (كليرڤو Clairvaux) في شمال شرق فرنسة، الواسع النفوذ، كما كان رئيس جمعية الرهبان السيسترسيين ، ومن المساهمين في تأسيس جمعية فرسان الهيكل، ويُعتبر من أكبر ملهمي هذه الحملة همّة وعزيمةو والمنظّم المباشر لها.

وعنه يقول زابوروف: «وإلى برنار بالذات عهد يوجينوس الثالث بالدعوة إلى الحرب المقدّسة. أمّا البابا نفسه، المستغرق في شؤونه الإيطالية والأوروبية عامّة، فلم يكن بمقدوره أن يهتم مباشرة باعداد هذا المشروع.

أما برنار، الذي لقّبه معاصروه بـ«غول زماننا»، ورفعته الكنيسة في

وقت لاحق إلى مصاف القدّيسين، فقد كان يبدي اهتماماً كبيراً منذ زمن بعيدبمصائر دول الصليبيين في الشرق».

عندها قام الملك (لويس السابع Louis VII)[٥] ملك فرنسة الشابّ، الذي استجاب مباشرة لدعوة البابا، وطلب إلى أمراء مقاطعاته ونبلائها الدعوة إلى تنظيم الحملة.

ولكن لم يستجب عامّة الفرنسيين لها، كما أبدى قسم كبير من الفرسان قدراً من اللامبالاة، واعترض عليها بكلّ حدّة رجل الدولة البارز (سوجر) وكان رئيساً للدير وأقرب المستشارين للملك لويس.

وأرسل البابا يوجينوس الثالث إلى الملك لويس الكاردينال (غويدو) الفرنسي نائباً عنه خلال الحملة.

كما رافقته زوجته الملكة إليونور داكيتين.

وانطلق بجحافله التي تقارب السبعين ألف مقاتل من مدينة (متز Metz) الفرنسية، والتحقت بهم جموع غفيرة من الفلاحين الفقراء، بما فيهم النساء والشيوخ والأولاد.

كما استجاب أيضاً ملك ألمانيا (كونراد الثالث Conrad III)[٦] بإطلاق نداء الحرب ضد المسلمين في الشرق، وعلى الرغم من (الغيرة) التي كانت قائمةبينه وبين لويس الفرنسي، وكذلك تحركهما بشكل إفرادي نحو الشرق، إلا أنهما توصّلا إلى تنسيق جهودهما لتحقيق هدفهما الرئيسي المشترك. ورافق كونراد الكاردينال (الاسقف تيوديفين) ممثلاً عن البابا.

بدأ الجيش الألماني رحلته إلى القدس من مدينتي (نورمبرغ) و(ريغنسبورغ) الألمانيتين في أيار ١١٤٧م، وتلاه الجيش الفرنسي بعد

حوالي الشهر.

واجتاز الألمان المجر بعد موافقة ملكها (غيزا الثاني)، ثم ساروا في ممتلكات الروم، ونهبو السكان هناك بلا رحمة، فقام البلغار واليونان بالدفاع عن انفسهما، ولمّا وصل الفرنسيون كان كل شيء مسمّم بنتانة جثث الألمان غير المدفونة. كذلك حدثت اشتباكات ضارية بين الألمان والقوآت البيزنطية بجوار مدينة (فيليپوپول)، ثم احتفل الألمان بوصولهم إلى القسطنطينية بأعمال السلب والنهب.

ووقعت القوات الألمانية في كمين نُصب لها في الأناضول بتركيا ولم ينج منها إلا القليل. أمّا القوات الفرنسية فكانت أوفر حظاً، لكنها تكبّدت خسائر جسيمة خلال مسيرتها الطويلة، ولم يصل إلى القدس عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م غير جزء قليل من القوة الأصلية.

وعند التقاء الملكين (لويس وكونراد) عقدا العزم على مهاجمة دمشق بالتشاور مع ملك القدس (بلدوين الثالث Baldwin III)(٧) الذي أوكلت إليه قيادة قوات الحصار، وتقرّر بدء الهجوم في تموز ١١٤٨م، وهي خطوة وصفها المؤرّخون الغربيون «بالغباء»، لأن بقاء دمشق على حالها دون احتلال يجعلها حاجزاً يفصل بين الممالك الصليبية والموصل عدوّتهم اللدودة. لكن محاولة الاقتحام فشلت، ولم تتمكن قوات الفرنج من دخولها، وردُّت على أعقابها فانهارت الحملة، وأصيبت بكارثة عسكرية، فعاد ملك فرنسة إلى بلاده مع ما تبقّى من قواته بعد فترة قصيرة.

ولهذا تطلق عليها المصادر الغربية اسم (الحملة الكارثة Disastrous Crusade).

وكان النصر الوحيد الذي حققّته في أوروبا هو احتلال مدينة لشبونة عام ١١٤٧م من قبل الصليبيين الإنكليز وصليبيي الأراضي المنخفضة وهم في طريقهم للمشاركة في هذه الحملة عن طريق البحر، وهو الحَدَث الذي أوجد دولة البرتغال.

وقد نجم عن فشل هذه الحملة، أن تجدّدت هجمات نور الدين (الشهيد)، وتمّ في عام ١١٥٠م فتح ما تبقّى بيد الصليبيين من إمارة الرها، بما في ذلك (تل باشر) التي تقع إلى الغرب منها، وحلّت الهزيمة بريموند(٨) أمير أنطاكية، وحرر نور الدين عديداً من المدن الواقعة إلى الشرق من أنطاكية. وبدأ بتطبيق سياسة تضييق الخناق على الممالك الصليبية وممتلكاتها من جميع الجهات، فأخذ طرفا الهلال بالانغلاق عليها، وبلغة اليوم (طرفا الكَمَّاشة)، ففي سنة ١١٥٤م دخلت دمشق في حوزته نتيجة الأخطار التي كانت تتهدّدها من الصليبيين، ونتيجة كراهية أهلها لسياسة الاستكانة التي كان ينتهجها صاحبها مجير الدين(٩) وبدخولها أصبح الطريق ممهّداً بين حلب ومصر.

مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب لابن واصل ١/ ١٢٦
الصليبيون في الشرق لزابوروف ١٧٢، ١٧٨
الحروب الصليبية لباركر ٧٧، ١٥٨
Encyclopedia Americana 8/266
موسوعة Encarta مادة (Crucades)
موسوعة Grolier مادة (Crucades)



مدينة الرها Edessa وحالياً مدينة أورفا في جنوب تركيا،
والمنظر ملتقط من جبل القلعة باتجاه الشمال.
(عن كتاب الرها لمؤلفه ج. ب. سيغال)
(طبع في أكسفورد بانكلترا عام ١٩٧٠ م)



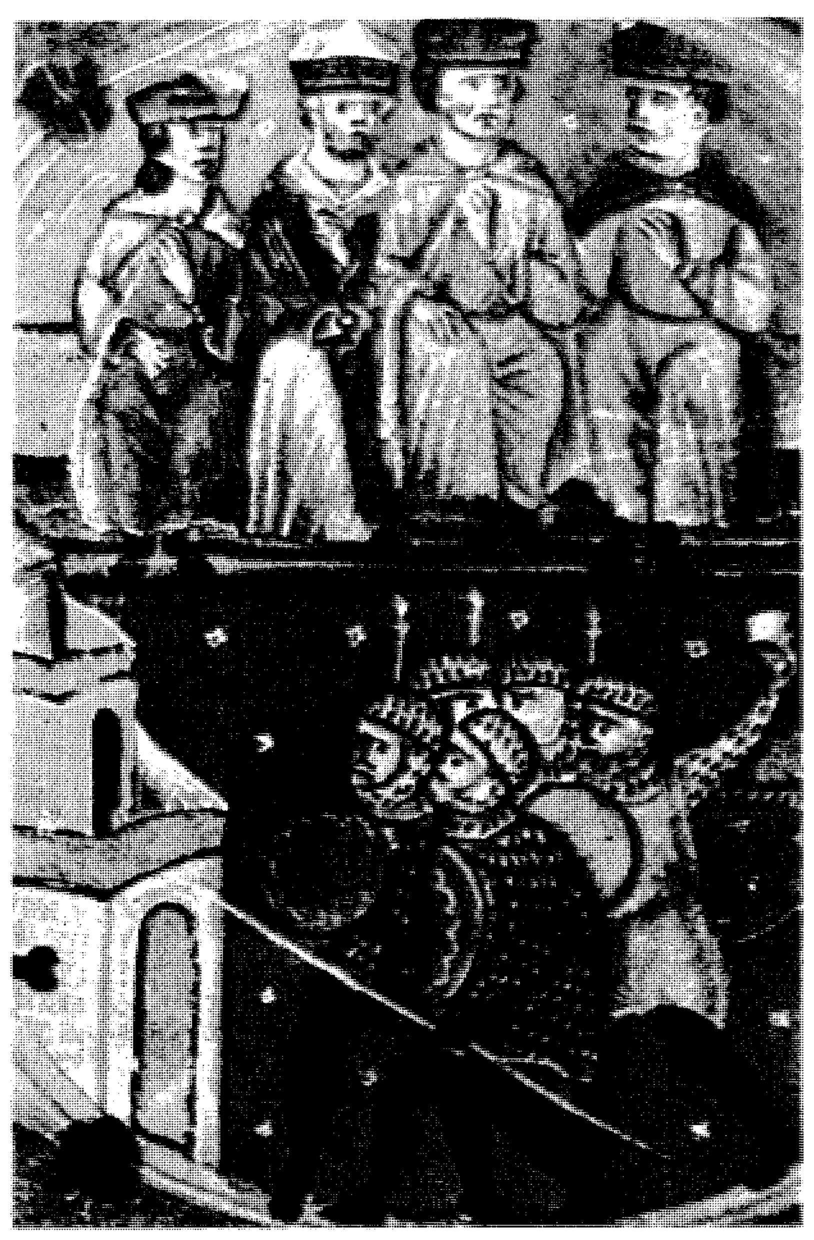
لوحة من الفسيفساء للبابا (يوجينيوس الثالث Eugenius III) الذي دعا إلى الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٥م إثر سقوط مدينة (الرها) بيد عماد الدين زنكي عام ١١٤٤م بالكومبيوتر عن موسوعة Grolier Electronic Publishing, Inc



القدّيس برنارد (رئيس دير كليرڤو) شمال شرق فرنسة يكرّز الحملة الثانية

(منمنمة من مخطوطة قروسطية محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس)

- عن كتاب: الصليبيون في الشرق لميخائيل زابوروف -



مشاهد من الحملة الصليبية الثانية

في الأعلى: الملك لويس السابع، وفي الوسط الملك كونراد الثالث

(منمنمة من مخطوطة أخبار غليوم الصوري في المكتبة الوطنية بباريس)

- عن كتاب: الصليبيون في الشرق لميخائيل زابوروف -



لويس السابع ملك فرنسا عند قدمي القديس برنارد

(لوحة حفر لغوستاف دوري من القرن التاسع عشر للميلاد)

عن كتاب: **The Crusades and the Holy Land**



٧ — اختام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، وبوهمند الثالث امير انطاكية ، وبونز كونت طرابلس ، ووليم بورز امير الجليل

عن كتاب : (تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان)

هوامش الفصل الثالث

(١) الرها أو الرهاء: Edessa (هي مدينة أورفا في جنوب تركيا اليوم).

(٢) عماد الدين زنكي: من أتابكة السلاجقة وصاحب الموصل، ووالد نور الدين (الشهيد)، اغتيل سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م.

(٣) البابا يوجين الثالث Eugenius III : راهب بَنَدَكْتي Cistercian ورئيس دير للرهبان وصديق للقدّيس برنارد (قدّيس كليرڤو Clairvaux) شمال شرق فرنسة، جاء من مدينة پيزا Pisa (مدينة توسكاني Tuscany في إيطاليا اليوم)، واسمه (برناردو پاگانيلّي Bernardo Paganelli) تولى الكرسي البابوي خلال السنوات (١١٤٥ - ١١٥٣م). شجّع البابا يوجين الثالث على الحملة الثانية، وأعاد تنظيم سلوك وتصرّف الرهبانيات، وزيادة نفوذ الكنيسة في الدولة. لكن مشاكله السياسية مع مجلس الشيوخ في روما، خصوصاً مع (أرنولد أمير بريسيا Arnold of Brescia) الذي كان مُصْلِحاً ورئيساً للمجلس، جعلته يغيب عن روما مراراً. وتوفي في الثامن من تموز عام (١١٥٣م). أنظر: موسوعة الكومبيوتر: Encarta .

(٤) القديس برنار: رئيس دير كليرڤو Clairvaux (١٠٩١ - ١١٥٣م) عالم لاهوتي فرنسي ومُصْلح كنسي، وكان راهباً بَنَدَكتياً Cistercian أسّس دير كليرڤو في شمال شرق فرنسة عام ١١١٥م وبقي رئيساً له طيلة حياته، وعمل كثيراً على نشر تعاليم مذهبه البندكتي في غرب أوروپا، وكان له نفوذ واسع في القضايا الكنسية. وهو الواعظ للحملة الصليبية الثانية، وتوفي عام ١١٥٣م. أنظر:
Larousse Illustrated International Encyclopedia & Dictionary.

(٥) لويس السابع Louis VII : هو الابن الثاني لملك فرنسا لويس السادس، ولد نحو عام ١١٢١م، وصار وصيّاً على العرش بعد وفاة أخيه الأكبر عام (١١٣١م)، وتولى عرش فرنسة عندوفاة والده عام ١١٣٧م وبعد زواجه من (إليانور أميرة أكوتين Eleanor of Aquitaine)

بعدة أيام. وإليانور هذه ابنة وليم الخامس دوق أكوتين. لم يرث لويس السابع ملكية مزدهرة فحسب، بل ورث أيضاً مستشارين خبيرين هما (راؤول أمير فيرماندوا Raoul of Vermandois) و(سوگير Suger). لكن يفعه وقلّة خبرته قادتاه إلى طموحات مفرطة في تحقيق المشاريع خلال سنوات حكمه الخمس عشرة. وكان تنظيم الحملة الصليبية الثانية سنوات (١١٤٧ - ١١٤٩م) واحدة من تلك الطموحات التي أدّت إلى كارثة عسكرية، ورغم ذلك، فقد عززت هيبة التاج الفرنسي، وردّت اعتباره على المدى البعيد. وفي عام (١١٥٢م) ألغى لويس زواجه من إليانور التي سرعان ما تزوجت هنري Henry (كونت أنجو Count Anjou ودوق نورماندي Normandy) الذي أصبح ملك إنكلترا (هنري الثاني Henry II) عام ١١٥٤م. وبإضافة مقاطعة (أكوتين Aquitaine) بالزواج إلى ممتلكات هنري، صار أقوى بكثير من لويس، وكم من مرّة كان فيها جاراً عدوانياً وكسب عدداً من المقاطعات الفرنسية. ثم بموت المستشارين راؤول وسوگير في نهاية عام ١١٥٢م كان على لويس أن يعيد تشكيل حكومته ومستشاريه، فخلق رباطاً وثيقاً بينه وبين كونتات مقاطعات (الفلاندرز Flanders وشامپانيا Champane)، وتعاون مع الكنيسة، وشجّع توسع البلدات النامية، وأدار موارد المملكة بكل دقّة وحزم. واستمر في الحكم حتى توفي في ١٨ أيلول عام ١١٨٠م، فخلفه ابنه فيليپ الثاني. كل ذلك جعل من المملكة الفرنسية في عهده دولة أكثر قوة واحتراماً مما كانت عليه قبل توليه السلطة. أنظر: Larousse Encyclopedia 271، وموسوعة الكومپيوتر: Encarta. وأنظر أيضاً: الصليبيون في الشرق لزابوروف ١٧٧.

(٦) كونراد الثالث Conrad III: ولد ١٠٩٣م، وتُوّج ملكاً على عرش إيطاليا في مدينة ميلانو Milan عام ١١٢٨م، لكن البابا توّج (لوثير Lother) كإمبراطور روماني مقدّس عام ١١٣٣م، وبعد سنتين أعترف به كونراد، وبعد موت لوثير عام ١١٣٧م توّج كونراد ملكاً على ألمانيا عام ١١٣٨م، فأصبح المؤسّس الأول لسلالة (هوهنشتُوفِن Hohenstaufen) الحاكمة فيها، وعلى الرغم من أن البابا لم يعد يرفضه بعد ذلك، إلا أن الأحداث في إمبراطوريته منعته من الحصول على حفل التتويج الرسمي باعتباره إمبراطور روماني مقدّس. وكان عدو كونراد اللدود زوج ابنته (هنري المتغطرس Henry The Proud) دوق باڤاريا Bavaria

وساكسونيا Saxony الذي رفض الخضوع لسلطته، بسبب الحروب التي دامت طويلاً بين أسرتيهما، والتي كافح فيها كونراد أسرة صهرة، وناضل لتوحيد الإمبراطورية لكنه لم يستطع الاستمرار في تحقيق هدفه بسبب ظهور الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية التي شارك فيها في خريف عام ١١٤٧م بعد إلحاح القديس برنارد (قديس كليرفو Clairvaux). ثم تخلى عنها بعد فشل حصار دمشق عام ١١٤٨م، وغادرها إلى القسطنطينية فعقد اتفاقاً مع الامبراطور البيزنطي (مانويل الأول كومنينوس Manuel I Comnenus) لمقاتلة (روجر الثاني Roger II) ملك صقلية المنافس له في شبه الجزيرة الإيطالية، غير أنه سرعان ما اضطر للعودة إلى ألمانيا، و توفي في ١٥ شباط ١١٥٢م. أنظر: Larousse Encyclopedia 100، وموسوعة الكومبيوتر Grolier، وموسوعة Encarta.

(٧) بلدوين الثالث Baldwin III: من ملوك الأراضي المنخفضة Flanders (هولندا وبلجيكا الحاليتين). ولادته غير معروفة بالضبط ويُظنّ بأنها كانت عام ١١٣٠م ؟ وخلف والده (فولك الخامس Fulk V) على العرش عام ١١٤٣م، ولمّا رفضت أمه (ميليسيند Melisinde) - ملكة القدس فيما بعد - التنازل له عن وصايتها للعرش، جهّز عليها حملة عسكرية أجبرتها على ذلك عام ١١٥٢م. ثم أمضى السنوات العشر من حكمه في قتال المسلمين بشكل رئيسي. كان بلدوين الثالث قائداً قديراً، لكنه واجه الصعوبات في الحفاظ على مكاسبه أمام قوات المسلمين الكبيرة، وخلفه في المُلك بعد وفاته أخوه (أماالريك الأول Amalric I). وتوفي بلدوين عام ١١٦٢م. أنظر: Encyclopedia Americana 3/83.

(٨) ريموند أمير تولوز Raymond of Toulouse: صاحب أنطاكية في الحملة الأولى، لقي مصرعه عام ١١٥٠م. أنظر: الحروب الصليبية لباركر ٧٧.

(٩) مجير الدين آبق بن محمّد: صاحب دمشق في العهد السلجوقي وآخرهم من آل طُغْتكين، تولاها بعد وفاة صاحبها جمال الدين محمّد سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩م، وتولّى تدبير الأمور فيهامعين الدين أنر، وتوفي ببغداد سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م. أنظر: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام لاسماعيل ١٧٠.

الفصل الرابع

أسلحة المسلمين والفرنج في الحملات الصليبية

Moslems & Franks Weapons

كانت أسلحةالعرب المسلمين في البداية بسيطة وغير مطوّرة، ومع الممارسة القتاليّة اكتسبوا من أعدائهم خبرة واسعة في صنوف الأسلحة التي كانوا يستعملونها، فاقتبسوا أسرار صناعتها، وطوّروها بما يتناسب مع احتياجات المعارك التي كانوا يخوضونها.

كذلك اقتبس أعداؤهم منهم صنوفاً من الأسلحةالتي كانوا يستخدمونها، فكان الأمر تبادل مصالح مشتركة بين الصديق والعدو، على كُره ومَضض من كلا الجانبين.

ولم تكن هناك أسرار حربية تتعلّق بالأسلحة، ولا مؤسّسات تسهر على أمنها، فكل ما يؤخذ غنيمة، أو يُشاهد عياناً كان يُقتبس ويُطوّر.

على أن تلك الأسلحة التي استعملها العرب في حروبهم ضد الفرنج الغزاة كانت من صنع محليّ، اتّصف بعضها بالبساطة، واشتهر بعضها الآخر، ومن بينها (السيف الدمشقي) خصوصاً فولاذه المعروف بالجوهر.

وتألّفت تلك الأسلحة من:

١ - القوس والسهم (القوس والنَشّاب) Bow & Arrow: يُصنع من شجر جبلي صلب، عادة شجر المُرّان، وكان ينبت في دمشق على السفوح الغربية لجبل قاسيون، وإليه كان يُنسب «دير مُرّان» في أعلى الجبل المذكور، غربيّه.

والقوس والنَشّاب من أقدم الأسلحة التي استخدمهاالإنسان في الصيد والحرب، وتصنع من قضيب من الخيزران أو الخشب أو القرون أو المعدن على شكل نصف دائرة تُرمى بها السهام.

ولعل أقدم الأقواس تلك التي عثر عليها في الدانمرك عام ١٩٤٤م، ويرقى تاريخها إلى عام (٧٠٠٠ ق. م) تقريباً. وتفنَّنت بعض الشعوب في إنتاج الأقواس، فكان اليابانيون يُعنون بزخرفتها ويضعون عليها توقيعهم. ولا تزال جماعات الأسكيمو وبعض القبائل الإفريقية والأمريكية اللاتينية تستعملها إلى اليوم.

٢- الرُّمح Spear : وهو عصا طويلة تُصنع من خشب صلد ونحوه، وفي نهايته رأس مؤنّف حادّ من الخشب أو العظم أو العاج أو المعدن.

والرمح سلاح يدويّ فرديّ، وسلاح مقذوف، عُرف واستعمل منذ عصور ما قبل التاريخ، وفيه أنواع منها:

I - الحَرْبَة Pike: يحملها جنود المشاة وتُصنع عادة من جسم خشبي متين يتراوح طوله بين ٢,٤٤ و ٢,٧٤ متراً، وفي نهايته خطّاف Hook متّصل بالرأس المؤنّف الحاد.

II - المِزْراق Lance : وهو رمح طويل يستعمله الفرسان عادة، واستمرّ استعماله حتى بدايات القرن العشرين الميلادي، ويتراوح طوله بين ٣,٠٥ و ٣,٣٥ متراً،

ولا زال الرمح يستعمل إلى الآن لصيد الحيوانات والسمك في

بعض أنحاء العالم، وقد يُطلى رأسه بمادّة سامّة للتأكيد على قتل العدو أو الحيوانات الكاسرة أو المتوحّشة.

٣- السيف أو الحسام Sword : سلاح قتاليّ يدوي قوامهُ نَصْلٌ أو شفرة ومقبض أو نصاب، وهو أشرف الأسلحة عند العرب، وآخرها استعمالاً في المعركة، إذ تبدأ هذه برمايات السهام عن بُعد، يليها الطعن بالرماح عند الاقتراب من العدو، بعدها يبدأ تجريد السيوف في الالتحام، وقد تُشارك بمختلف صنوف الأسلحة الفردية كالخناجر والدبابيس أو المطارق وما إليها.

يرقى تاريخ السيف إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد صُنع أولَ ماصُنع من البرونز، وكان باديءَ الأمر قصيرَ النَّصْل مستقيمَهُ، وكان ذا حدَّين، فهو أشبهُ شيء بالخنجر.

حتى إذا كان القرن الثاني عشر قبل الميلاد أمسى نَصْل السيف أطول، بعضَ الشيء، من نَصْل الخنجر. وحوالي القرن العاشر قبل الميلاد شُرِع في صُنع السيوف من الحديد المطرَّق.

وعرف العرب السيوف المستقيمة ذات الحدين منذ عصر الجاهلية، ومع إطلالة القرن الثالث عشر للميلاد انتشرت في الديار الإسلامية السيوفُ المتقوِّسة ذات الحدّ الواحد، وما هي غير فترة حتى حلَّت هذه السيوف محلَّ السيوف المستقيمة ذات الحدَّين. وقد أدّى ظهور الأسلحة النارية إلى فقدان السيف مكانته كسلاح.

واشتهر من السيوف: الدمشقي وجوهره، واليماني، والهندي أو

المهنّد، والمشرفي المنسوب لمشارف الشام، والبُصروي المصنوع ببصرى الشام. والطليطلي نسبة لمدينة طليطلة.

٤- الخنجَر Dagger : سلاح فردي فولاذي صغير يحمل في نطاق المقاتل أو تحت ثيابه ويستعمل عند الالتحام المباشر والطعن خلسة. وهو شبيهٌ بالسيف القصير، ذو شفرة عريضة، مستدقة الرأس، مزدوجة الحدّ. والواقع أن التمييز بين الخنجر الطويل والسيف القصير كان في العصور القديمة والقرون الوسطى غير واضح البتّة، حتى إذا أطلّ القرن الرابع عشر أخذ التمييز بين الخنجر الأوروبي والسيف يتّضح شيئاً بعد شيء. وحتى العصر الحديث كان الخنجر جزءاً من سلاح جُند المشاة (الرجّالة) في كثير من جيوش العالم. وغمدُ الخنجر قد يكون جلدياً وقد يكون معدنياً، وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر صار هذا الغمد يزخرف على نحو يثير الإعجاب.

٥- الدبّوس أو المطرقة Hammer : عصا قصيرة من الحديد لها رأس كروي أو مربّع من الفولاذ أو الحديد أيضاً، يستعملها الفرسان في القتال القريب.

والمطرقة عريقة في القدمَ عرفها الحدادون والنجارون منذ أقدم العصور، واستخدمها المقاتلون كسلاح التحام فردي.

٦- الفأس أو البَلْطَة Battle-Ax : سلاح فردي للقتال القريب،

ويتألف من عصا من الخشب لها رأس من حديد مدبّب من طرف ومشحوذ من الطرف الآخر .

٧- المَنْجَنيْق أو العَـــــرَّادَة Ballista; Mangonel; Catapult :
ويُعــرف عند المـؤرِّخـين بآلة الحـرب. وهو قــاذف الحــجـارة والحــديد والرصـاص وكرات النار، يستعمل لهدم الأسوار والحصون وإحراقها في حالات الحصار لا في وضعية الدفاع. لم يستعمله العرب في الجاهلية، وأول ما استعمله منهم الرسول ﷺ في حصار الطائف.

وهو السلاح الذي طُوِّر أكثر من بقية الأسلحة، وفق متطلبات الحروب، وكان طليعة اختراع المدفع ثم القاذف والصاروخ في العصور الحديثة.

وكلمة «المَنْجَنيق» العربية، و Mangonel الإنكليزية، كلتاهما تحريف عن لفظة Manganon اليونانية ومعناها «الآلة الحربية».

٨- البـرج Tower: وسـمّـاه العـرب القـدمـاء «الدبّابة» لكن هذه التسمية لا تنطبق على التسمية الانكليزية الحالية Tank، لأنها آله حرب حديثة مطوّرة. والدبّابة عند الشعوب القديمة آلة حصار على شكل برج مربّع مـرتفع تتّـخـذ من خـشب يغشّى بالجلد المنقـوع في الخلّ لمنع احـتـراقـه، ويحتمي المقاتلون خلفها أو بداخلها، ويدفعونها إلى الحصون أو الأسوار لنقب جدرانها وإحداث ثقب يمرّون منه لاحتلالها أو لتسلّق أعلاها والهبوط منها إلى الداخل.

وعرف الأقدمون البرج أو الدبّابة، ففي العهد الآشوري اتخذوها سلاحاً فعّالاً في حصار المدن، واستعملها (هاني بعل) في المعارك فوق الفيلة، كذلك عرفها السوريون القدماء والفراعنة والقرطاجيين والفينيقيين والفرس وغيرهم.

وعرفها العرب أيضاً في الجاهلية والإسلام، وغالباً ما كانوا يزوّدونها بكبش النَقْب أو الاقتحام. وفي حقبة لاحقة صارت المرتفعة منها تزوّد بسلالم داخلية تربط بين طوابقها، وكذلك بشرفة أو أكثر تتمفصل معها وتُلقى على السور فيعبر فوقها المقاتلون ويركبون الأسوار.

واستعمل النبي ﷺ الدبّابة في غزوة حصار الطائف، وأرسل لمدينة «جرش» الأردنية حالياً تعليمات لصنع الدبّابات، لاشتهارها بها وبالمنجنيق.

ثم أدخل عليها المسلمون كثيراً من التحسينات في الحقب التالية، حتى صارت ضخمة كثيرة العجلات مرتفعة الجسم بارتفاع الأسوار، واعتبرت سلاح مساند للمنجنيق.

ومن أروع من وصف الدبّابة وصفاً دقيقاً (أبو شامة المقدسي) فقال في كتاب الروضتين: وكان العدو المخذول قد صنع دبّابة عظيمة هائلة، أربع طبقات، الأولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت تعلو على السور، ويركب فيها المقاتلة.

٩- كَبْش النَقْب أو الخَرْق Battering Ram: جذع أو عمود خشبي طويل يتدلّى معلّقاً بوضع أفقي من سقف الدبّابة أو البرج بسلاسل معدنية أو حبال من الجلد المتين، وفي رأسه كتله من الحديد أو الفولاذ تشبه رأس

الكَبْش تماماً، ويُؤرجح المقاتلون هذا الجذع للأمام والخلف فيصدمون به السور حتى تنهار حجارته، فينقبونه وينفذون من الثقب الذي أحدثوه إلى داخل الحصن أو عبر السور.

أو قد يكون عمود الكبش مثبّتاً بالدبّابة، وتكون هذه مزوّدة بعجلات، فيدفعها المقاتلون باتجاه السور أو الجدار، ويستمرّون في دفعها وسحبها للخلف ومعاودة الكرّة حتى يتم نقب الفتحة.

١٠- سلالم الحصار Sieging Ladders: تصنع من الخشب أو الحديد بارتفاع السور، وتُسند إليه من مكان آمن فيتسلّقه المقاتلون ويقتحمون المدافعين والرماة، وكان للسلّم في الحملات الصليبية أهمية تعادل أهمية الدبّابة أو المنجنيق.

واهتم المسلمون بالسلالم فطوّروها وأدخلوا عليها التحسينات، فصارت تُصنع على قاعدة خشبية واسعة تساعد على ثباته، وأحياناً كانت تصنّع من سلمين يلتقيان في ذروتهما ليدعم كلّ منهما الآخر، كما أدخلوا على القاعدة بكرات من خشب أو عجلات ثابتة، ليسهل نقلها من موضع إلى آخر، كما أكثروا من السلالم في حملاتهم لاسترداد ما احتلّه الفرنج من المدن والحصون.

١١- الدّرع Armor; Armour: غطاء واقٍ لجسم الإنسان أو لأجزاء منه وكذلك لأجزاء من جسم الخيل، وكان المقاتلون يلبسونه في ساحة المعركة. وعُرف الدرع منذ أقدم العصور، وأول ما صنُع من الخشب

أو الجِلد، ثم اتُّخذ من المعدن، وتطور في القرون الوسطى حتى أصبح يكسو الجسم كله في كثير من الأحيان. ولم يبق من الدرع القديم غير الخوذة الفولاذية يعتمر بها الجند ورجال الشرطة أحياناً.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن فكرة الدرع مقتبسة من «الدروع» الطبيعية التي تكسو أجساد بعض الحيوانات كالسّلاحف وما إليها.

١٢- النار الإغريقية Greek Fire : يُنسب اختراعها إلى كالّينيكوس Callinicus وهو مواطن من سورية في القرن التاسع للميلاد، وباح بسرّها إلى إمبراطور بيزنطة، واستعملها البيزنطيون الأغارقة ضد سفن الأعداء.

وهي نار تبقى مشتعلة حتى على سطح الماء، واستعملها المسلمون بنجاح كبير في المعارك البحرية ضد سفن الفرنج، وبفاعلية عالية في حالات الحصار لحرق دبّابات الصليبيين وأبراجهم ورؤوس الأكباش أثناء نقب الأسوار. ولا تنطفيء هذه النار إلا بالخلّ. ولم يعرف الفرنج سرّها إلا في وقت متأخّر كثيراً.

وكانت تُطلق على العدو ضمن أوعية من الفخّار أو الطين بواسطة المنجنيق، أو بالقذف اليدوي المباشر من فوق الأبراج.

وتتركّب من مزيج من الكبريت Sulfur والملح الصخري (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) Saltpeter وزيت النّفط Oil of Naphtha.

وهي بهذا تشبه زجاجات مولوتوف (كوكتيل مولوتوف) وهي زجاجات حارقة استعملت في الحرب العالمية الثانية ضدّ آليات ودبّابات الألمان، ولا زالت تُستعمل إلى اليوم في قتال الشوارع.

تطوّر أسلحة الصليبيين

Development of Crusaders Weapons

مرت العصور الوسطى بفترة ركود لم تُطوّر خلالها أسلحة الحرب، لكن هذا الركود لم يستمر طويلاً وعاد إلى الانتعاش أثناء الحملات الصليبية، فقد كانت تحتاج إلى تحسين صناعة الأسلحة والدروع والدفاعات لتواكب متطلبات الحرب.

ومع ذلك بقيت الأسلحة التي استخدمها الصليبيون في البداية تقليدية بالنسبة لتلك الفترة، كالسيف والخنجر والسكين والرمح والعصا والدبّوس والقوس والنشّاب وما إليها.

لكن الحاجة إلى تطويرها تكتيكياً بدأت تظهر بين كل حملة وحملة.

وركّزت العقيدة العسكرية للصليبيين على أمرين:

١- الفرسان ودروعهم: وهم أقوى وأفعل سلاح هجومي.

٢- القلاع والحصون: وهي أفضل وسيلة للدفاع.

وحُسِّنت أثناء تلك الحملات بعض الأسلحة القليلة الأخرى، بما في ذلك (القَوْس والنَشّاب اليدوي Hand Crossbow; Bow & Arrow) الذي طوّره الإنكليز وصنعوا (القوس الطويل Longbow) وجعلوا سهامه قادرة على اختراق الدروع من مسافة قصيرة، وعلى النفوذ في (الزَرَدِيّات Chain Mail) من مسافة ٢٠٠ ياردة.

كذلك طُوِّر (المَنْجَنيق Ballista; Mangonel; Catapult) المنحدر من أصل يوناني. وهو آلة حربية معدّة لدكّ الأسوار والقلاع

والحصون بمقذوفات من الحجر وغيره بغية هدمها، وقد تُقذف بها أيضاً كرات النار للحرق، وعرفت منذ القِدَم، واستخدمها العرب والفرنج على نطاق واسع أثناء الحصار.

الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ٢/ ١٨٥

العسكرية العربية الاسلامية لخطّاب ١٠٨

الدبّابات للجلاد ويوسف ١٣

موسوعة المورد الحديثة

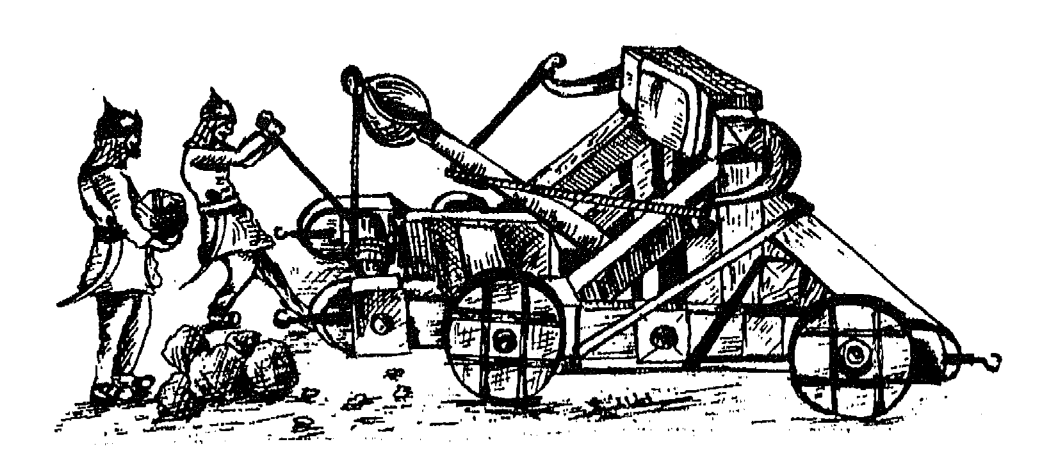
موسوعة Americana 24/787

موسوعة Grolier

موسوعة Encarta

The Crusades and the Holy Land: G. Tate

*****



المَنْجَنِيْق: طليعة اختراع المدفع والقاذف والصاروخ



مقاتل عربي بلباسه القتالي وأسلحته :
(السيف والترس والرمح والدرع والخوذة)



بعض الأسلحة الفردية التقليدية
لقوات المسلمين في الحروب الصليبية

عن كتاب:

The Crusades and the Holy Land

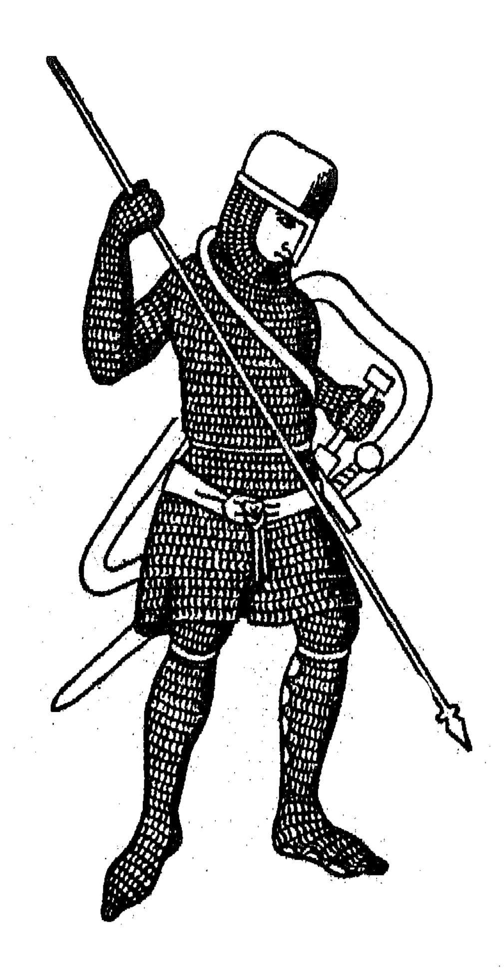


الدّرع Armor

اللباس الواقي الذي ارتداه المقاتلون الفرنج في الحروب الصليبية

عن موسوعة

The Reader's Digest
Great Encyclopadic Dictionary



الزرديّة (درع الزَرَد)

Chain Mail

اللباس الواقي الذي ارتداه المقاتلون الفرنج
في الحروب الصليبية

عن موسوعة

The Reader's Digest
Great Encyclopaedic Dictionary



فارس رَمَّاح

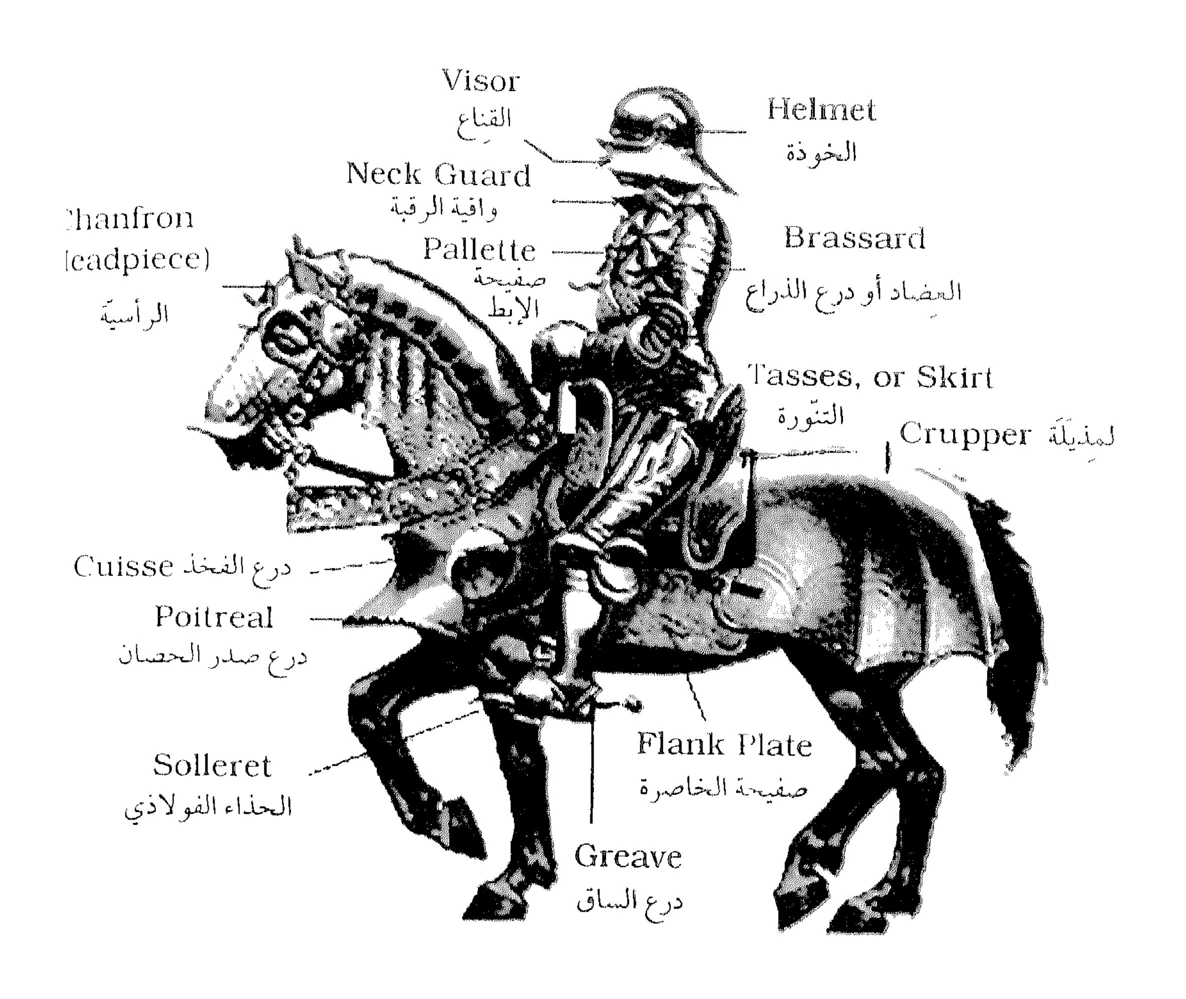
لا علاقة للفارس بالحروب الصليبية لكنني اخترته لتوضيح شكل «الرمح» وطريقة حمله
والوحة بعنوان «البدوي» لڤيكتور آدم، من أرشيف سيغ - غيتس
(عن مجلة: فكر وفن الصادرة بالعربية في ألمانيا عدد ٥٣ عام ١٩٩٦)



English Longbow Archer

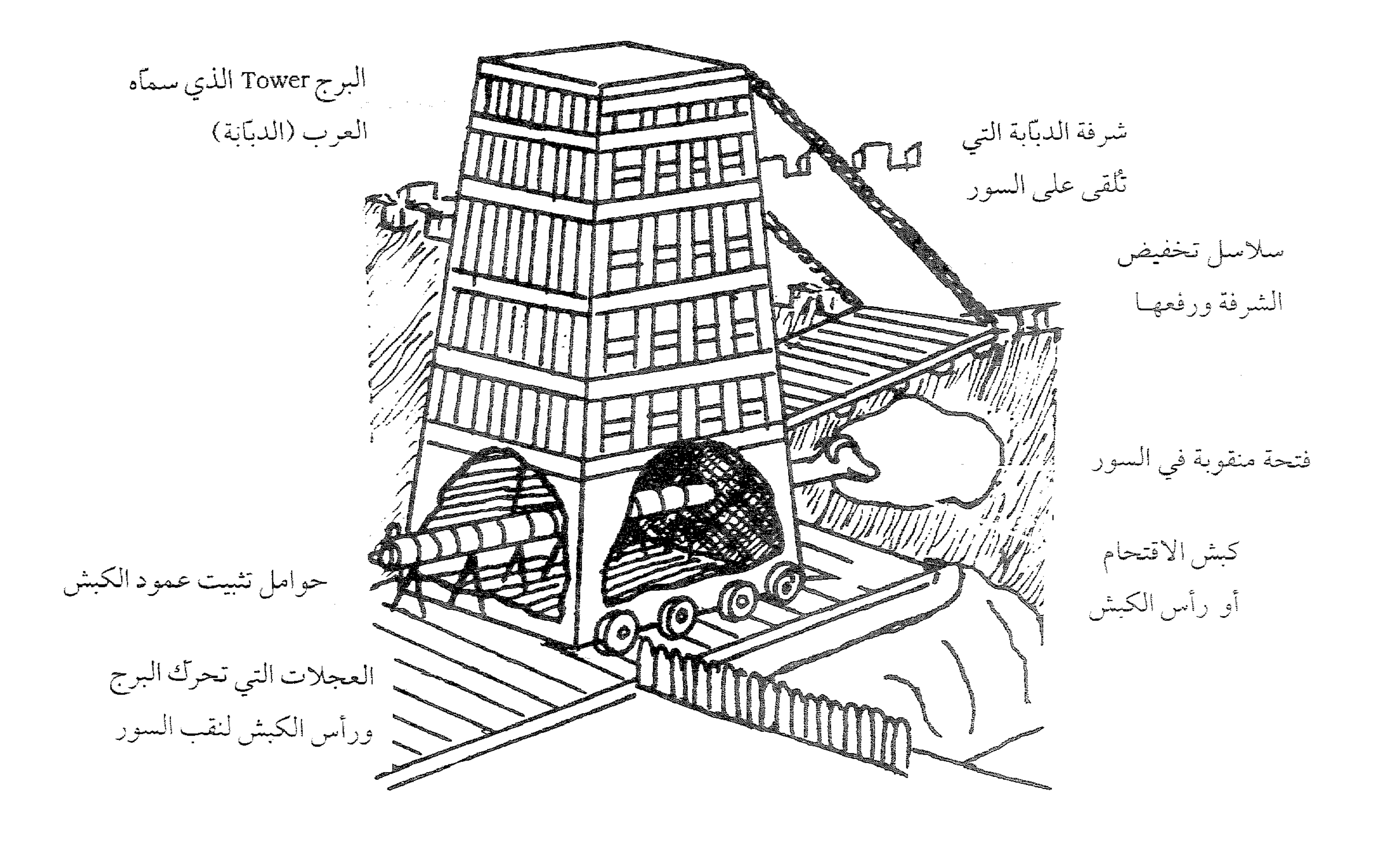
رامي القوس الطويل الإنكليزي

الصورة بالكومبيوتر عن موسوعة Grolier Electronic Publishing, Inc



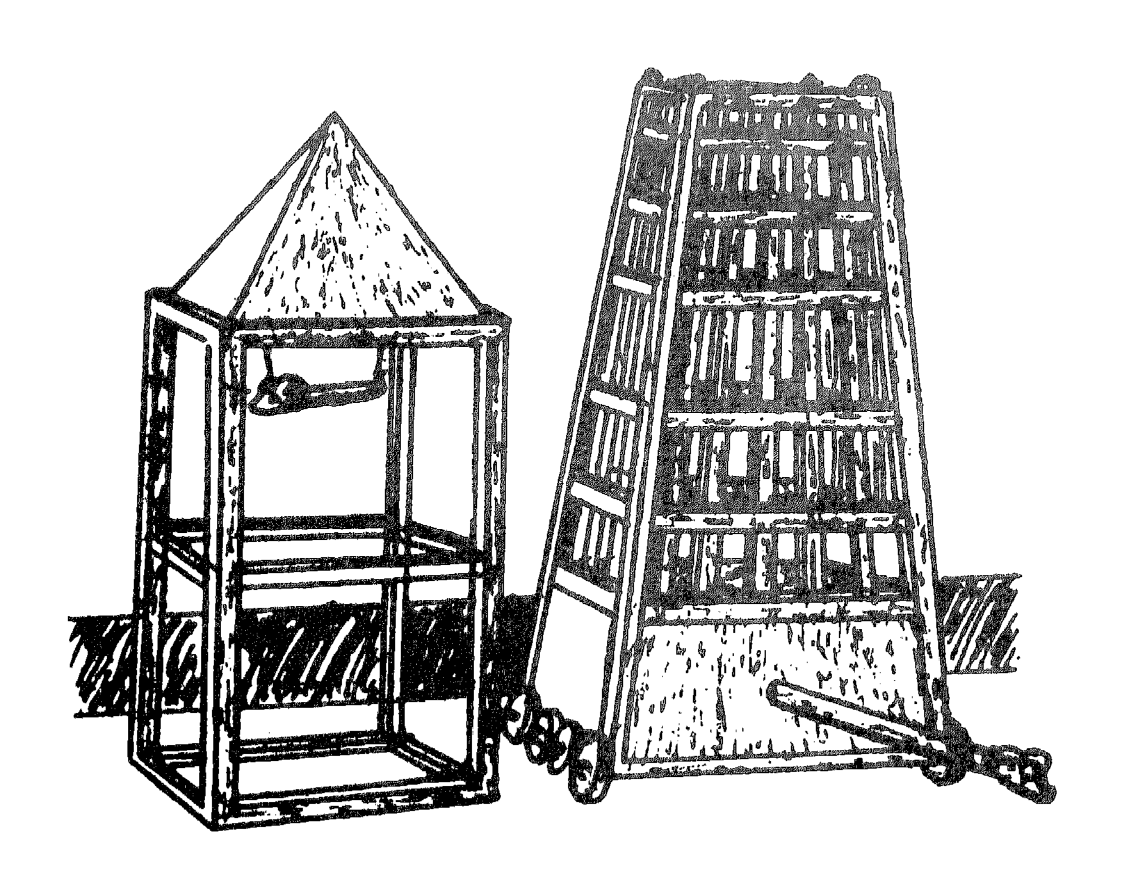
تفاصيل لباس الفارس الصليبي وحصانه

الصورة بالكومبيوتر عن موسوعة Grolier Electronic Publishing, Inc



الدبّابة العربية وفي أسفلها كبش الاقتحام

عن كتاب (السلاح في الاسلام)



نموذجان عربيّان مصغّران لدبابة وبرج

عن كتاب: (الدبّابات)



آلة نَقْب الأسوار (رأس الكبش Battering Ram) التي استعملها الصليبيون
أثناء حصارهم للمدن الإسلامية في كافّة الحملات

عن موسوعة: Americana



أسلحة المسلمين والصليبيين في إحدى الحملات على مصر

(لوحة زيتية لروجيه من القرن التاسع عشر للميلاد في متحف قصر ڤرساي بفرنسة)

عن كتاب :

The Crusades and the Holy Land

الفصل الخامس

محاولات الفرنج
الانقضاض على دمشق

نصّ ابن الأثير

(المتوفى ٦٣٠ هـ)

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وأربعمائة: في هذه السنة في صفر كانت وقعة بين طُغتكين أتابك صاحب دمشق وبين قمص كبير من قمامصة الفرنج، وسبب ذلك أنه تكرّرت الحروب والغارات بين عسكر دمشق وبغدوين [بلدوين الأول ملك القدس خلال ١١٠٠-١١١٨م]، فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، ففي آخر الأمر بنى بغدوين حصناً بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طُغتكين من عاقبة ذلك وما يحدث به من الضرور فجمع عسكره وخرج إلى مقاتلتهم، فسار بغدوين ملك القدس وعكا وغيرهما إلى هذا القمص ليعاضده ويساعده على المسلمين، فعرّفه القمص غناه عنه وأنه قادر على مقارعة المسلمين إن قاتلوه، فعاد بغدوين إلى عكا، وتقدّم طُغتكين إلى الفرنج واقتتلوا واشتدّ القتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طُغتكين وقتلهما، وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتموا به، فقال طُغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته معه، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير. فبذل الرجّالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن فخرّبوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعد، وأمر بالقاء الحجارة في الوادي، وأسروا من بالحصن فأمر بهم فقتلوا كلهم واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس، ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل، وعاد طُغتكين إلى دمشق منصوراً فزيّن البلد أربعة أيّام.

الكامل في التاريخ لابن الأثير (حوادث ٤٩٩ هـ)

نصّ ابن خلدون

(المتوفى ٨٠٨ هـ)

نصّ بلا تاريخ

كان قمص من قمامصة الفرنج على مرحلتين من دمشق، فلجَّ بالغارات على دمشق، فجمع طغركين العساكر وسار إليه، وجاء معرون ملك القدس وعكا من الفرنج بانجاد القمص فأظهر الغنية . . . [بياض في الأصل] عليه وعاد إلى عكا، وقاتل طغركين القمص فهزمه وأحجزه بحصنه ثم حاصره حتى ملك الحصن عنوة وقتل أهله وأسر جماعته وعاد إلى دمشق ظافراً غانماً.

تاريخ ابن خلدون ٥/ ١٧٣

أقول : هذا النصّ غير وارد عند ابن القلانسي ، لكن ابن الأثير ذكره في حوادث سنة ٤٩٩ هـ ولم يشر إلى أن المقصود به الهجوم على دمشق.

وقام ابن خلدون بنقله عنه بصورة مشوّهة ولم يذكر التاريخ الزمني له، كذلك حرّف بعض الأسماء كاسمي (طغركين) وهو في الحقيقة: طُغتكين، ثم (معرون) وهو: بغدوين [بلدوين]. ولا أدري كيف تحوّل بغدوين هذا بقدرة قادر إلى معرون ؟

المحاولة الأولى لاحتلال دمشق

(٥١٩ هـ/ مطلع ١١٢٦م)

خلال الحملة الصليبية الأولى

The First Attempt to Occupy Damascus

(1126 A.D/519 A.H)

تعرّضت مدينة دمشق في بدايات القرن السادس للهجرة/ مطلع الثاني عشر للميلاد خلال الحملة الصليبية الأولى إلى أكثر من محاولة لاحتلالها، لكن بعض تلك المحاولات لم تكن أكثر من مناوشات ضعيفة فاشلة، وغير مجدية، ولم تحقّق شيئاً مما كان يحلم به الفرنج من تحويل هذه المدينة إلى مملكة أو إمارة أو حتى كونتية صليبية.

وكان أهمّ تلك الحملات وأكثرها جدّية وخطورة، الحصار الحقيقي الذي ضربه ملوك الفرنج حولها في ربيع الأول من عام ٥٤٣ هـ/ تموز ١١٤٨م. وهذا بدوره لم يوصلهم إلى أية نتيجة، واضطروا في نهاية المطاف إلى التخلّي عن الأمل الذي كان يراودهم في السيطرة عليها.

وقام حكّام دمشق من السلاجقة الأتراك الذين تسمّيهم المصادر التاريخية (التركمان)[1] بالدفاع عنها ببسالة وجدّية، يرفدهم في ذلك أهلوها، والنجدات التي التحقت بهم من خارجها، وجيوش سلاجقة حلب والموصل وغيرهما.

وقبل الخوض في ذكر أحداث هذه المحاولة الأولى ووقائعها

استناداً إلى نصوص المؤرّخين، لا بد من الإشارة إلى اختلاف التاريخ الهجري لقيامها بين ابن القلانسي وسبط ابن الجوزي من جهة، وبين ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم من جهة أخرى، فعند ابن القلانسي وابن الجوزي هي سنة (٥١٩ هـ)، وعند ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون سنة (٥٢٠ هـ) ! ولكن يبقى ابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ أكثر مصداقية ودقّة وواقعية لأمرين:

- أولهما أنه كان في دمشق خلال تلك الفترة، وعايش الأحداث، وشهد ما شهده منها.

- وثانيهما أنه الأقرب إليها زمنيّاً من غيره، فابن الأثير توفي سنة ٦٣٠ هـ، وابن الجوزي سنة ٦٥٤ هـ، وابن كثير سنة ٧٧٤ هـ وهكذا.

و فيما يلي بعض أهم النصوص التي ذَكَرت هذه الواقعة، والتي دوِّنت بأقلام المؤرّخين المسلمين الحُجّة، ولقد رأيت أن أوردها كاملة كما جاءت عندهم، علماً أن التسلسل الزمني لكتّابها يجعلها في عدّ تنازلي وتناقصي من حيث الحجم والمعلومات والتفاصيل وأحياناً تواريخ السنوات، وفي حالات أقلّ إضافة بعض الجزئيّات والأسماء، ولا بد أن يلعب (تصحيف النُسَّاخ) دوره في نُسَخ المؤرخ نفسه أكثر من مرّة.

والغريب في هذه المحاولة أن أحداً لم يذكر أنها تستهدف مدينة دمشق سوى ابن خلدون، والمؤرّخ الإنكليزي (رَنسيمان) الذي قال: قرر بلدوين أن يقود حملة كبيرة لمهاجمة دمشق... (أنظر مقولته في هذا البحث بعد نصّ ابن كثير). أمّا وليم الصوري فقال بأنها لغزو أرض دمشق.

*****

نصّ ابن القلانسي

(المتوفى ٥٥٥ هـ)

سنة تسع عشرة وخمسمائة: اتّصلت الأخبار من ناحية بغدوين ملك الفرنج صاحب بيت المقدس [بلدوين الثاني Baldwin II][٢] بالاحتشاد والتأهّب والاستعداد لقصد حوران من عمل دمشق للعيث فيها والافساد وشرع في شنّ الغارات على الجهات القريبة من دمشق والمضايقة لها وقطع الطرقات على الواردين إليها.

فعند المعرفة بذلك والتحقّق له شرع ظهير الدين أتابك[٣] في الاستعداد للقائه والاجتماع على جهاده، وكاتب أمراء التركمان ومقدّميهم وأعيانهم باعلامهم صورة الحال ويستنجد بهم عليهم ويبذل لهم الاحسان والانعام، وبرّز في عسكره وقد ورد عليه خبر قربهم من طبريّة قاصدين أعمال البلد من مرج الصفّر[٤] وشرخوب[٥] وخيّم به.

وكاتب ولاة الأطراف بامداده بالرجّالة [المشاة]، واتّفق وصول التركمان في ألفي فارس أولى بأس شديدٍ ورغبةٍ في الجهاد ومسابقة إلى الكفاح والجلاد، فاجتمع إليه خلقٌ كثيرٌ. وكان الافرنج حين عرفوا نزول أتابك والعسكر بمرج الصفّر رحلوا إليه وخيّموا بإزائهِ، ووقعت العين على العين وتطاردت طلائع الفريقين.

فلمّا كان يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي الحجّة من السنة، اجتمع للقضاء المقضي والحكم النافذ من أحداث دمشق والشباب الأغرار

ورجال الغوطة والمرج والأطراف وأحداث الباطنيّة المعروفين بالشهامة والبسالة من حمص وغيرها والعقبة(٦) وقصر حجّاج والشاغور خلق كثير رجالةٌ وخيالة بالسلاح التامّ والناهض مع المتطوّعة المتدينّين، وشرعوا بالمصير للحاق المصافّ قبل اللقاء، وقد شاع الخبر بقوّة عسكر الإسلام وكثرته واستظهاره على حزب الافرنج وشدّة شوكته، ولم يشكّ أحد في هلاك الافرنج في هذا اليوم وبوارهم وكونهم طعمةً متسهّلة.

واتّفق أن فرقة وافرة من عسكر التركمان غارت على أطراف الافرنج ونالت منهم واستظهرت عليهم، وخاف الافرنج وعلموا أنه لا طاقة لهم بهذا الجمع، وأيقنوا بالهلكة، ورحلوا بأسرهم من منزلهم الذي كانوا فيه عائدين إلى أعمالهم على غايةٍ من الخوف والوجل، ونهاية من الذلّ والوهل.

ونشبت فرقة من التركمان في فريق منهم وهم راحلون فغنمت من أثقالهم ودوابهم غنيمة وافرة وظفرت بالكنيسة المشهورة التي لهم في مخيّمهم.

وطمع العسكر عند ذاك فيهم، وحملوا عليهم وهم مولّون لا يلوون على تابع ولا يقفون على مقصّرٍ لاحقٍ، وقد شملهم الرعب وضايقوهم مضايقة ألجأتهم إلى رمي نفوسهم عليهم إمّا لهم وإمّا عليهم، فتجمّعوا وعادوا على العسكر الإسلامي وحملوا عليه حملتهم المعروفة فكسروهم وهزموهم وقتلوا من شَطبَهُ الوجل وخانه الاجل.

وتمّ العسكر في الهزيمة على حاله وعادوا على جميع الرجّالة وهم العدد الكثير الجمّ الغفير وأطلقوا السيف فيهم حتى أتوا عليهم وتتبّعوا المنهزمين بالقتل حتى وصلوا سحورا (٧) وقربوا من البلد من شرخوب

مع بعد المدى والمسافة وصبر خيولهم.

ووصل ظهير الدين أتابك والعسكر إلى دمشق آخر نهار هذا اليوم، وبنوا الأمر بينهم على مُباكرتهم في غد للإيقاع بهم فصادفوهم قد رحلوا عائدين إلى عملهم خوفاً ممّا عُزم عليه من قصدهم، وتتبّعهم، والله يحكم ما يشاء.

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، حوادث ٥١٩ هـ
تاريخ دمشق لابن القلانسي، تحقيق د. زكّار ٣٣٨

*****

نصّ ابن الأثير
(المتوفى ٦٣٠ هـ)

في هذه السنة [٥٢٠ هـ] اجتمعت الفرنج وملوكها وقمامصتها[٨] وكنودها[٩]، وساروا إلى نواحي دمشق فنزلوا في مرج الصُّفَّر عند قرية يقال لها سقحبا [شَقْحَب][١٠] بالقرب من دمشق، فعظم الأمر

على المسلمين واشتدّ خوفهم، وكاتَبَ طُغتكين أتابك صاحبها [يقصد كان أتابكَ شمس الملوك دقاق المتوفى ٤٩٧ هـ] أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم، وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة الفرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري(١١)، فكان بها كلما جاءت طائفة أحسن ضيافتهم وسيّرهم إلى أبيه، فلمّا اجتمعوا سار بهم طغتكين إلى الفرنج، فالتقوا أواخر ذي الحجّة واقتتلوا واشتدّ القتال فسقط طغتكين عن فرسه فظن أصحابه أنه قُتل فانهزموا، وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الإفرنج وبقي التركمان لم يقدروا أن يلحقوا بالمسلمين في الهزيمة فتخلّفوا، فلمّا رأوا فرسان الإفرنج قد تبعوا المنهزمين وأن معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام، حملوا على الرجّالة فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد، ونهبوا معسكر الإفرنج وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم، وفي جملته كنيسة فيها من الذهب والجواهر مالا يقوّم كثرة فنهبوا ذلك جميعه وعادوا إلى دمشق سالمين لم يعدم منهم أحد.

ولمّا رجع الفرنج من أثر المنهزمين ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة، تمّوا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه، وكان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها.

الكامل في التاريخ لابن الأثير، حوادث (٥٢٠ هـ)

*****

نصّ سبْط ابن الجَوْزِي

(المَتوفى ٦٥٤ هـ)

السنة التاسعة عشرة وخمسمائة [مطلع ١١٢٦م]، وفيها. . جمع بغدوين صاحب القدس وحشد وقصد حوران، وشرع في الغارات على الأماكن القريبة من دمشق.

فجمع طُغتكين التركمان، وكاتب الأطراف، ووصل إليه من التركمان نحو من ألفي فارس طالبين للجهاد، وخرج من دمشق في خلق كثير، ونزل مرج الصفَّر في السابع والعشرين من ذي الحجّة، وخرج من دمشق أحداثها[١٢] ورجال الغوطة والمرج وقصر حجّاج وعقيبة وغيرها بالسلاح التام، وقالوا نلحق المصاف، ولم يشك أحد في ذلك اليوم أن النصر للمسلمين.

وجاء الفرنج إلى مرج الصفّر، والتقت الطلائع فلمّا شاهد الفرنج ذلك الجمع العظيم علموا أنهم لا طاقة لهم به، فعادوا إلى خيامهم ومنزلتهم فتبعتهم طائفة من التركمان والأحداث، وتفرّق العسكر في نهب خيام الفرنج، فلمّا رأى الفرنج ذلك عادوا فحملوا على المسلمين فكسروهم من أواخر مرج الصفّر، وهزموهم إلى عقبة سحورا، فقتلوا جميع الرجّالة والتركمان إلا من نجا بفرسه.

وانهزم طُغتكين إلى دمشق فوصلها آخر النهار، وقد قُتل رجاله وأسر

أبطاله، وغنم الفرنج غنيمة لم يغنموا مثلها، وباتوا على عقبة سحورا عازمين على منازلة البلد، واستعدّ أتابك للحصار وأصبحوا وقد رحل الفرنج إلى منزلتهم.

النصّ من كتاب: الحروب الصليبية ٢/ ٧٦٥ للدكتور زكّار
ونقلناه بإذن خاصّ منه فله كل الشكر.

* * * * *

نصّ ابن كَثِير

(المتوفى ٧٧٤ هـ)

ودخلت سنة عشرون وخمسمائة، وفيها اقتتل طغتكين صاحب دمشق وأعداؤه من الفرنج فقتل منهم خلقاً كثيراً، وغنم منهم أموالاً جزيلة ولله الحمد والمنّة.

البداية والنهاية لابن كثير، حوادث (٥٢٠ هـ)

* * * * *

ويوجز لنا رَنسيمان Runciman أحداث هذه المحاولة فيقول :
وفي يناير [كانون الثاني] سنة ١١٢٦م قرر بلدوين أن يقود حملة كبيرة لمهاجمة دمشق، فأغار على حوران، وخرج طُغتكين لملاقاته، ووقع الصدام بين الجيشين عند تل الشقب [شَقْحَب] على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من دمشق. ورجحت كفّة المسلمين في القتال أول الأمر، ونفذت سرية من تركمان طغتكين إلى خيمة الملك، غير أن بلدوين أحرز النصر آخر الأمر، فطارد العدو حتى منتصف الطريق إلى دمشق. على أنه نظراً لما لحقه من خسائر جسيمة، رأى أنه من الحكمة أن يعدل عن القتال، فعاد إلى بيت المقدس بعد أن أصاب غنائم وفيرة.

تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٢٧٨

* * * * *

نصّ ابن خلدون

(المتوفي ٨٠٨ هـ)

منازلة الافرنج دمشق : ثم اجتمع الافرنج سنة عشرين وخمسمائة ملوكهم وقمامصتهم وساروا إلى دمشق ونزلوا مرج الصفّر وبعث أتابك

طغـركين [طُغـتكين] بالصـريخ إلى تركـمـان بديار بكر وغـيـرها وخيّم قـبـالة الافـرنج واسـتـخلف ابنه بوري على دمـشق ثم ناجـزهم الحـرب آخـر السنة فـاشـتـدّ القتال وصُرع طغركين عن فرسه فـانهزم المسلمون وركب طغـركين واتبعهم ومضت خيّالة الافرنج في اتباعهم وبقي رجالة التركمان في المعركة فلمّا خلص إليـهم رجالة الافرنج اجـتـمعوا واسـتـماتوا وحـملوا على رجـالة الافـرنج فـقـتلوهم ونهـبـوا مـعـسكرهم وعـادوا غـانمين ظافـرين إلى دمـشق ورجـعـت خيّالة الافـرنج من اتبـاعـهم منهـزمين فـوجـدوا مـعـسكرهم منهـوباً ورجالتهم قتلى وكان ذلك من الصنع الغريب .

تاريخ ابن خلدون ٥/ ١٧٨

*****

نصّ سيِّد علي الحَرِيري

(المتوفي بعد ١٣١٧ هـ)

في سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٧م اجـتـمع بودوين [بلدوين] الثـاني ملك القدس بجـميع عسكره وعسـاكر الجمعيّات الرهبانية ، وسـاروا إلى نواحي دمشـق فنزلوا بمرج الصفر عند قرية يقال لها شـقحب بالقرب من دمشـق ،

فعظم الأمر على المسلمين واشتدّ خوفهم، وكاتب طغتكين أتابك أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم، وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة الإفرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان بها وكلّما جاءت طائفة أحسن ضيافتها وسيّرها إلى أبيه، فلمّا اجتمعوا سار بهم طغتكين إلى الإفرنج، فالتقوا أواخر ذي الحجّة واقتتلوا واشتدّ القتال فسقط طغتكين عن فرسه فظنّ أصحابه أنه قُتل فانهزموا وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الإفرنج وبقي التركمان فلم يقدروا أن يلحقوا بالمنهزمين، فتخلّفوا، فلمّا رأوا فرسان الإفرنج قد تبعوا المنهزمين، وأن معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حام، حملوا على الرجّالة فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد، ونهبوا معسكر الإفرنج وخيامهم وأموالهم وآلاتهم وجميع ما معهم، وعادوا إلى دمشق سالمين لم يُفقد منهم أحد.

ولمّا رجع فرسان الإفرنج من أثر المهزومين ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة، ساروا منهزمين لا يلوي الأخ على أخيه، وكان هذا من أغرب الحروب، إذ أن طائفتين تنهزمان كل واحدة من صاحبها.

الحروب الصليبية للحريري ٦٤

* * * * *

نصّ ولْيَم الصُوْرِي

(وفاته ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م ومختلف فيها)

(١٨)

من الكتاب الثالث عشر

الملك يغير على أرض الدماشقة فيزحف «طغتكين» لصدّه، شبوب المعركة وعودة رجالنا منتصرين:

فلما كان شهر كانون الثاني [١١٢٦م] من مولدسيدنّا وهو السنة الثامنة من حكم بلدوين [المقصود به بلدوين الثاني Baldwin II]، أمر الملك كبراؤه أن ينادى في الناس قاطبة بعقد اجتماع يحضره الناس صغيرهم وكبيرهم على السواء، وبعث المنادين ينادون بهذه الأوامر في في مدن المملكة، فما انقضت أيّام معدودات إلا وتمّ حشد قوة المملكة الحربية بأكملها، وتركيزها قرب مدينة «طبرية» تأهّباً لغزو أرض دمشق.

*****

وما كاد العسكر يجتمعون في المكان المحدّد لهم حتى صدرت الأوامر الحربية بترتيب الأمتعة وتعبئة الصفوف للزحف، فزحفوا واجتازوا

بلاد «ديكاپوليس»[١٣] وأصبحوا داخل أرض العدو، ثم عبروا من هنا وادياً ضيقاً يسمّونه «كهف رؤاب» أوصلهم إلى سهل «ميدان»، وكان سهلاً فسيحاً مترامي الأطراف، منبسطاً، ليس فيه ما يعوق السير، كما يوجد به فيما بين طبرية و«سكتوپوليس» التي كانت تُعرف سابقاً باسم «بيسان»، أقول كان يوجد به نهر «دن» وهو في طريقه للالتحام بالأردن.

* * * * *

ويظن بعضهم - معتمدين في هذا الظن على الاسم نفسه - أنه هو نفس النهر الذي اشتقّ منه المقطع الأخير من كلمة «الأردن» ذلك أن المياه التي تصبّ في بحر الجليل ثم تخرج إلى مصبّ هذا النهر ذاته تُعرف باسم «أر»، ولكن حين يتّحد نبعا «أر» و«دن» بعضهما ببعض فإن المجرى المائي الذي يتألّف منهما إذ ذاك يُعرف بالأردن.

* * * * *

ومع ذلك فإنه من ناحية أخرى نجد أن «بيدى» وغيره من علمائنا الذين لا يرقى الشك إلى ما يقولونه، يذكرون أن منبع هذين المجريين المائيين قريب من «قيصرية فيليپي» الواقعة عند سفح جبل لبنان [هي بانياس الداخل]، وسمّي أحد هذين النهرين باسم «جور» والآخر باسم «دان»، وتتكوّن من اتحاد هذين الاثنين مياه الأردن حيث يصبحان مجرى واحداً

يصب في بحيرة «جينيسارت» التي هي بحر الجليل، ومن هنا يصبحان مرّة أخرى نهراً واحداً، حتى إذا قطع مسافة تقارب من مائة ميل خلال الوادي الشهير صبّ ماءه في بحيرة الأسفلت التي تُعرف أيضاً باسم البحر المالح أو (البحر الميّت).

* * * * *

أدّى اجتياز جيشنا هذا السهل إلى دخوله قرية يسمّونها «سالومي» وكان جميع سكّانها من النصارى كما هو شأنهم اليوم، فكفّ عسكرنا أذاهم عنهم، ثم زادوا فأحسنوا إليهم وعاملوهم معاملة الأخوة، وأخذ رجالنا في تنظيم كتائبهم، ووضعوا كل فيلق في المكان المحدّد له، حتى إذا انتهوا من ذلك، أسرعوا من هناك إلى موقع اسمه «مرج الصفرّ» الذي تقول الأخبار عنه أن (شاول) مضطّهد كنيسة الربّ ذلك الذئب الشرس سمع صوتاً يقول له: «شاول، شاول، لماذا تضطّهدني» إلى آخر الخبر.

* * * * *

ويبدوا أن العناية الالهيه هي التي جعلت جيش أهل الايمان في الواقع يبلغ هذا الموضع يوم الاحتفال بذكرى هذا الحدث، يوم تحوّل شاول من رجل يضطّهد الكنيسة إلى مهتد وتابع أمين للسيّد.

* * * * *

ظلّ الجيش مقيماً في «مرج الصفّر» مدّة يومين كان يرى فيهما معسكر الخصم في مواجهته وعلى مقربة منه، حتى إذا كان اليوم الثالث التقى الجانبان في ساحة القتال وقد استعدّ كل من الجانبين كل الاستعداد، ورتّب كل واحد منهما صفوفه أحسن ترتيب، وحمل كل منهما على الآخر حملة صدق، ولمّا كانت قوى الطرفين متعادلة، فقد ظلّت نتيجة المعركة فترة طويلة غير معروفة، وضاعف الملك كدأبه من ضغطه على العدو، وراح ينادي رجاله الأشاوس باسمه ويشجّعهم على القتال بالقول ويضرب لهم المثل بنفسه ويعدهم النصر الأكيد، فكانوا أبطالاً في قتالهم اقتداء منهم بقائدهم، فكرّوا على خصمهم بقلوب تملؤها حميّة الإيمان، وحاولوا أن يكفّروا في الوقت ذاته عن أخطائهم، وينتقموا لما ارتكب في حق السيّد من ظُلم.

*****

أما طغتكين فمضى من ناحيته هو الآخر يثير رجاله بمثل هذه الروح من الحماسة بكلماته إليهم ويرفع من معنويّاتهم القتالية بما وعدهم به، وذكّرهم أنهم يحاربون حرباً عادلة من أجل حريمهم وأبنائهم، وأنهم يجاهدون في سبيل حرّيتهم وهي أنبل ما في الحياة، ويدافعون عن أرض أجدادهم ويدفعون عنها اللصوص، فأثّرت كلماته هذه في نفوسهم، فاندفعوا وكلّهم حماسة لا تقلّ عن حماسة رجالنا، وعزم يكافيء عزم قومنا.

*****

ونهج المشاة الصليبيون نهج الملك والفرسان، فهاجم المشاة صفوف الأعداء هجوماً غاضباً وشدّدوا الضغط عليهم، ولم يدعوا كافراً من الكفّار [كذا في الأصل] قد أثخنته جراحه أو أحداً منهم شاء حظّه العاثر أن يصادفوه في طريقهم إلا وأجهزوا عليه بسيوفهم، فسدّوا بذلك على عسكر العدو بأجمعهم كل سبل النجاة.

* * * * *

وعمد مشاتنا إلى من وهى من قومهم فسقط وراحوا يردّونه إلى ساحة القتال، فمن كان مريضاً بعثوا به إلى قافلة الأمتعة للعناية به.

* * * * *

واستنبط البعض منهم خطّة رأوا أنها تحمل الدمار المبرم لرجال العدو يومئذ، قوامها أنهم ركّزوا اهتمامهم على جياد أعدائهم يرمونها بسهامهم فتجرحها سهامهم فيقع من عليها ويصبحون فريسة سهلة للصليبيين الذين كانوا يتعقّبونهم. كما أن الملك هاجم بنفسه صفوف العدو المتراصّة هجمة الليث الهصور، واقتدى به فرسانه الأشاوس العظام فسار الدمار في ركابهم حيث ساروا، ونجم عن ذلك مذبحة ارتاع لها الجميع حتى من كُتبت لهم الغلبة. ولا يوجد في تواريخنا حتى وقتنا الحاضر ذكر لمعركة كهذه المعركة في شراستها وعنفها، وعلى الرغم من امتدادها من الساعة الثالثة حتى العاشرة إلا أنه لم يكن من الممكن حتى الحادية عشرة أن يقرّر أحد ما لمن كان النصر يومذاك حتى شاءت الرحمة الالهيّة أن تتدخّل شفاعة معلّم

المهتدين الأعظم فيلوذ الكفّار بالفرار بأذيال الهرب فراراً مما نزل بهم من مذبحة هيهات أن تُمحى من الأذهان، إذ يُقال أنه هلك من رجالهم في هذا اليوم أكثر من ألفي رجل، وأحصينا من فُقد منا فكانوا أربعة وعشرين فارساً وثمانين من المشاة.

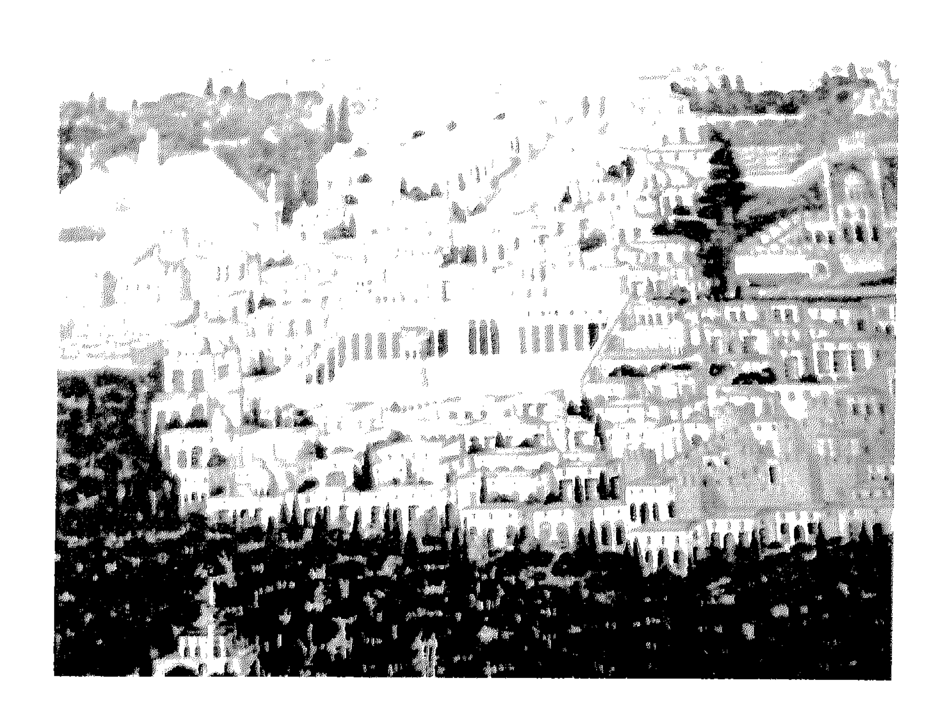
* * * * *

هكذا جاء النصر من السماء للصليبيين فاعتبر الملك من عداد الفاتحين، فشكر الربّ على ما أتاه من نصره، وقاد جيشه مغتبطاً فلمّا كان في طريق العودة إلى وطنه صادف برجاً قد لاذ به ستّ وتسعون من التركمان يرجون السلامة لأنفسهم فاستبسل في الهجوم عليهم وعرضهم جميعاً على السيف فأفناهم عن بكرة أبيهم، ثم استولى بعد زحف قليل على برج حصين آخر فمنّ بالحياة على الأتراك العشرين الذين كانوا به فقد استسلموا من غير كيدولا مقاومة، وكانوا قد جاءوا لحماية البرج الذي أخذ الصليبيون في نقبه ونسفه فما لبث أن هوى كله إلى الأرض مصحوباً بدويّ فظيع. وبعد أن أحرز العسكر عدّة انتصارات مجيدة تستحقّ الذكر الخالد عادوا إلى بلدهم وهم أسعد ما يكون.

الحروب الصليبية لوليم الصوري ٣/ ٥١



رسم لمدينة دمشق عام (١٤٧٠م) الذي يزيّن مقدّمة كتاب (الجغرافيا) لبطليموس، بريشة الفنّان الإيطالي (جاكوبو دو أنجلو) من مدينة فلورنسة في إيطاليا.



دمشق في القرن الثامن عشر، من الشمال إلى الجنوب، بريشة فنّان أوروبي زارها في تلك الحقبة، ويبدو في مركز اللوحة جامع بني أمية الكبير، واللوحة محفوظة في متحف التقاليد الشعبية بقصر العظم في دمشق.

هوامش الفصل الخامس

(١) التركمان Turkoman : قبيلة تركية سكنت في تركستان وإيران وأفغانستان، ومنها انحدرت سلالة اسم جدّها (سَلْجُوق) وإليه نُسبت تسمية (السلاجقة)، وتفرّعت منها فروع حكمت في سورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى، وذلك خلال القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين، قضت فيهما على حكم البويهيين، وقضى عليها جنكيز خان وخلفاؤه. أنظر: المنجد في الأعلام ١٧٠, ٣٠٣.

والسَّلاجقة Seljuqs : أسرة تركية إسلامية حكمت إيران والعراق وسوريا وآسيا الصغرى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد. تُنْسب إلى سَلجوق (النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد) مُقَدَّم عشائر الغزّ التركمانية. مؤسسها الحقيقي طُغْرِلبَك الذي أطاح بالدولة البُوَيهية الشيعية ودخل بغداد (عام ١٠٥٥م.) وبذلك فرض سيطرته على الخلفاء العباسيين. وسرعان ما تجزأت هذه الأمبراطورية الواسعة إلى إمارات صغرى عُمّرت منها واحدةٌ ـ هي سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ـ حتى نهاية القرن الثالث عشر. ومن أشهر سلاطين السلاجقة ألب أرسلان وابنُهُ وخليفتُهُ مَلِكْشاه. أنظر موسوعة المورد الحديثة بالكومبيوتر.

(٢) بلدوين الثاني Baldwin II : ملك القدس منذ عام (٥١٢ هـ/ ١١١٨م) وحتى وفاته عام (٥٢٦ هـ/ ١١٣١م)، وفي عهده امتدّت مملكته إلى أوسع رقعة لها، وكان في عام (٤٩٣ هـ/ ١١٠٠م) كونتاً Count على كونتية الرها Edessa وهي مدينة أورفا في تركيا اليوم. أنظر: Larousse Illustrated International Encyclopedia & Dictionary.

(٣) ظهير الدين أتابك: : الأتابك ظهير الدين طُغْتُكين [وتلفظ بالتركية ضَوْتكين]، أبو منصور، كان عَتيق صاحب دمشق تاج الدولة تُتُش بن محمّد آلب أرسلان السلجوقي ومن رجال دولته، فزوّجه من امّ ابنه الملك دُقاق، ثم ذهب معه إلى (الري) لقتال أخيه، وبعد مقتل تتش عام ٤٨٨هـ

رجع طُغتكين إلى دمشق، وكان أتابك شمس الملوك السلجوقي دقاق طيلة مدّة ولايته، فلمّا مات دقاق مسموماً عام ٤٩٧ هـ/ ١١٠٤م تولاّها وتكنّى بسيف الإسلام، وامتدّت ولايته حتى وفاته بدمشق يوم السبت السابع (وقيل الثامن) من شهر صفر عام ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨م، ودُفن في مقبرة المعتمد عند المسجد الجديد، قبلي البلد، بين مسجد القدم ومسجد فلوس. كان طُغتكين شهماً مهيباً، مؤثراً للعمارة أيام ولايته، شديداً على أهل العيث والفساد، امتدّت أيام ولايته (٢٥) عاماً خاض خلالها عدّة معارك مع الفرنج وانتصر عليهم وردّهم عن دمشق. أنظر: وفيّات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٩٦، وولاة دمشق في العهد السلجوقي للمنجّد ٢٠، ومعجم ألقاب أرباب السلطان للشهابي ١٦.

(٤) مرج الصُفّر: ذكره ياقوت في معجم البلدان دون أن يحدّد مكانه واكتفى بالقول: بدمشق. وأشار إليه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١/ ٤٧٨ عند الحديث عن معركة أجنادين، ، وحدّد ابن طولون موقعه في القلائد الجوهرية ١/ ٣١٦ بين قريتي الكسوة وغباغب، وقال دهمان: يحدّه شمالاً قريتا الطيبة وزاكية، وغرباً مزرعة المازنية وقرية شقحب، وجنوباً أركيس والزريتية، وشرقاً عالقين. أنظر حاشية المنجّد في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١/ ٤٧٨.

(٥) شرخوب: يحتمل أن اللفظة محرّفة أو مصحّفة عن قرية (شَقْحَب) التي ذكرتها بالتفصيل في الحاشية رقن (١٠) الواردة بعد قليل، وتسمية (شرخوب) لا وجود لها في معجم ياقوت ولا في المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

(٦) العقبة: المقصود بها محلّة (العقبة الصغرى) بدمشق وهي اليوم حي العقيبة في منطقة سوق صاروجا.

(٧) سحورا: لم تذكرها المصادر الجغرافية، ويبدوا أنها كانت موضعاً أو قرية آرامية دُرست، فاللفظة ذات جِرْس آرامي أو سرياني يحتمل من (سْحَرْتو: ܣܚܪܬܐ) بمعنى: القَصْر والصرْح، أو من (سْحُوْرُوْتُو: ܣܚܘܪܘܬܐ) أو (سْحُوْرْتُو: ܣܚܘܪܬܐ) بمعنى: الساحة والرَحَبَة. أنظر

اللباب (قاموس سرياني عربي) للقرداحي ٧٩٩.

(٨) القمامصة ج القُمَّص والقُمَّس: في المسيحية أحد أصحاب المراتب الكنسية، وهي في الأصل كلمة يونانية تعني: المُدبِّر، وصاحبها أعلى رتبة من القسّ. لكن دوزي يفسّرها بالكونتات ومفردها كونت Count وهي من رتب النبلاء الفرنسيين. أنظر معجم دوزي Supplément aux Dictionnaires Arabes مادة (قمص). وأعتقد أن المؤرّخين المسلمين استعملوها للدلالة على الكونتات أو الأمراء أو القادة الفرنج.

(٩) الكنود: بحثت طويلاً عن معناها في المعاجم العربية، وكل ما توصّلت إليه كان: كَنَدَ النعمةكنوداً كفرها وجحدها فهو كَنُود. والكَنُود: اللوّام لربّه تعالى، يذكر المصيبات وينسى النِعَم. ولا يتوصّل دوزي إلا إلى كونها لا تشكّل معنى. أنظر: معجم دوزي Supplément aux Dictionnaires Arabes مادة (كَنَد). ويحتمل أن المؤرّخين المسلمين استعملوها بديلاً عن كلمة: الكَفَرَة.

(١٠) شَقْحَب: ذكرها ابن الأثير باسمها السرياني الشرقي القديم (سقحبا) وبالسريانية الغربية (**ܫܩܚܒܐ**) وتلفظ: شَقْحُوبُو وتعني: فَرَّق ومَزَّق، وفي اللفظة إبدال بين الشين السريانية والسين العربية، ومثل هذا الابدال معروف في اللغات القدبمة. أوقد يكون اسمها من (**ܫܩܐ ܚܘܒܐ**) وتلفظ: شقُوحُوبُو بمعنى: سقى وروى، أو منح الحبّ والمودّة. وشقحب اليوم قرية قائمة جنوبي وعرة زاكية البركانية وهي تتبع ناحية الكسوة إلى الجنوب من دمشق. أنظر: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، اسم (شقحب).

(١١) تاج الملوك بوري: هو بوري بن طُغتكين، أبو سعيد، الملقّب بتاج الملوك، ولد في شهر رمضان عام ٤٧٨هـ، وولي إمرة دمشق بعد وفاة أبيه في السابع من صفر عام ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨م، وكانت سيرته كسيرة والده بالحلم والسماحة، وقتل الوزير طاهر بن سعد المزدقاني، أبو علي، الذي كان يشجّع الطائفية في دمشق، وينسب إليه مسجد الوزير، ولم يزل والياً حتى غلب عليه

أعجميّان فجرحاه وقتْلا، ثم مات متأثراً بجراحه يوم الإثنين حادي وعشرين رجب سنة ٥٢٦ هـ/ الثامن من حزيران ١١٣٢م. اسم بوري بالتركية يعني (الذئب)، وإليه ترجع تسمية سلالة (البوريين) الحاكمة. أنظر: وفيّات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٩٦، وولاة دمشق في العهد السلجوقي للمنجّد ٢١، ومعجم ألقاب أرباب السلطان للشهابي ٣١.

(١٢) الأحداث: ظهرت بالشام في فترة الحكم الفاطمي، ومن بعدهم السلاجقة، ثم الأتابكة، بالقرنين الرابع والخامس الهجريين، تنظيمات شعبية شبيهة بتنظيمات (الفتوّة)، واعتمدت هذه التنظيمات في دمشق على مفاهيم الرجولة والمروءة والشجاعة والفروسية والتضحية. ويمكن لنا إطلاق تشبيه عام بين هذا التنظيم وتنظيمات الزُّعْر والشُّطّار، وكانت هذه التنظيمات تشارك في الأحداث الاجتماعية والسياسية للمجتمع الشامي، كما تشارك في كثير من معارك الحروب الأهلية التي كثرت إبّان تلك العهود.

(١٣) ديكابوليس Decapolis: منطقة فلسطينية تقع شمالي بيريه وحول بحيرة طبرية وعلى ضفاف نهر الأردن تحتوي على حلف من عشر مدن هلنستيّة (يونانية قديمة)، وهذه المدن هي على الأغلب: سقيتوپولس Scythopolis (تل الحصن قرب بيسان)، هيبّوس Hippos (قلعة الحصن شرقي بحيرة طبريّا، وهي غير قلعة الحصن في سورية)، دمشق Damascus (عاصمة سورية)، جدارا Gadara (جنوب شرق بحيرة طبرية، واسمها الحالي: أم قيس في الأردن)، كناتا Kanatha (مدينة قنوات في جبل العرب)، رافانا Raphana (لعلها قرية الرافقة في جنوب غرب صلخد من جبل العرب)، جرش Gerash (مدينة في الأردن واسمها الأقدم جراشة)، ديون Dion (تل الأشعري شرق بحيرة طبرية)، فيلادلفيا Philadelphia (في وادي زرقا شرقي نهر الأردن، أطلق اسمها في القرن الثالث قبل الميلاد تكريماً لبطليموس الفيلادلفي)، بيلاّ Pella (في الشرق من نهر الأردن). أنظر: معجم الحضارات السامية لعبّودي ٧٨٠.

الفصل السادس

المحاولة الثانية لاحتلال دمشق

(٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م)

خلال الحملة الصليبية الأولى

The Second Attempt to Occupy Damascus

(1129 A.D/523 A.H)

لم يتخلَّ الفرنج عن الحلم الذي كان يراودهم في احتلال دمشق منذ فشل محاولتهم الأولى عام (٥١٩ هـ/ مطلع ١١٢٦م)، وبعد أربع سنوات عاد ذلك الحلم إلى الظهور من جديد.

وأصبحت الظروف السياسية القائمة في دمشق أكثر ملاءمة لنجاح خطتهم، فاغتيال الوزير طاهر بن سعد المزدقاني[١] في قبّة الورد[٢] بقلعة دمشق عام ٥٢٣ هـ، والثورات التي دبّرها تاج الملوك بوري بعد وفاة والده الأتابك طُغتكين ضد الباطنية الحشّاشين واندلعت في المدينة، واضطراب الأمن في البلد نتيجة ذلك، منحت الملك بلدوين الثاني الفرصة الذهبية التي كان ينتظرها، فقام لاقتناصها وتحقيق الحلم الذي راوده طويلاً في السيطرة على دمشق.

تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٢٨٦

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، حوادث ٥٢٣ هـ

نصّ ابن القلانسي

(المتوفى ٥٥٥ هـ)

ولمّا انتهى إلى الافرنج خبر انتقال بانياس عنهم أحدث ذلك لهم طمعاً في دمشق وأعمالها وأكثروا الحديث في قصدها، وبثّوا رسلهم إلى الأعمال في جمع الرجال والاحتشاد فاجتمع إليهم سائر من حوته بلادهم من: الرها وإنطاكية وطرابلس والساحل ووصلهم في البحر ملك كُند(٣) [المقصود به فولك صاحب أنجو]، وهو الذي قام مقام بغدوين [بلدوين الثاني] الهالك في الافرنج، ومعه خلق كثير، فاجتمعوا ونزلوا على بانياس، وخيّموا عليها وشرعوا في تحصيل الميَر والازواد(٤) للإقامة وتواترت الحكايات عنهم ممن شاهدهم وأحصى عددهم أنهم يزيدون على ستّين ألف فارساً وراجلاً وأكثرهم الرجّالة.

فلمّا عرف تاج الملوك [بوري بن طُغتكين صاحب دمشق] ذلك من عزمهم تأهّب لهذا الأمر وصرف همّه إلى الاستكثار من العدد والسلاح وآلة الحرب وما يحتاج إليه من الآلات التي يحتاج إليها لتذليل كل صعب، وكاتب أمراء التركمان على أيدي رسله المندوبين إليهم بالاستنجاد والاستغاثة بهم وبذل من المال والغلال ما بعثهم على المبادرة إلى إجابة ندائه والسرعة إلى دعائه، ووصل إليه من طوائفهم المختلفة الأجناس كل ذي بسالة وشدّة مراس، راغبين في اداء فريضة الجهاد ومسارعين إلى الكفرة الأضداد وأطلق ما يحتاجون إليه لقوتهم وقضيم خيولهم.

ورحل الملاعين عن بانياس طالبين دمشق على أناةٍ وترتيب،

ونزلوا على جسر الخشب والميدان المعروف المجاور له في . . . [أنظر حاشية نصّ رنسيمان بعد قليل] من ذي القعدة سنة ٥٢٣ [هـ] وخيّموا هناك وأصبح العسكر خَرَجَ من دمشق وانضمّ إليه التركمان من منازلهم حول البلد، والأمير مرَّة بن ربيعة في العرب الواصلين معه، وتفرّقوا كراديس(٥) في عدة جهات ووقفوا بإزائهم لتخرج منهم فرقةٌ فيسارعوا إليها ويزحفوا فيبادروا إلى لقاءهم فلم يخرج منهم فارسٌ ولا ظهر راجلٌ بل ضمّوا أطرافهم ولزموا مخيّمهم، وأقام الناس على هذه الصورة أيّاماً يتوقّعون زحفهم إلى البلد فلا يُشاهد منهم إلا تجمُّعهم وإطافتُهُم حول مخيّمهم وبريق بِيْضهم وسلاحهم وكُشف خبرهم وما الذي أوجب تأخّرهم عن الزحف وتلوّمهم فقيل أنهم قد جرّدوا أبطال خيلهم وشجعان رجالهم للمصير مع البغال إلى حوران لجمع المِيَر والغلال التس يستعان بمثلها على الإقامة والنزال، وأنهم لا حركة لهم ولا قوّة بهم إلى عود المذكورين.

فلمّا عرف تاج الملوك هذه الحال بادر بتجريد الأبطال من الأتراك الدمشقيين والتركمان الواصلين والعرب القادمين مع الأمير مرَّة وأضاف إليهم الأمير سيف الدولة سوار في عسكر حماة، وقرّر معهم نهوضهم آخر يومهم والجدّ في السير عامّة الليل ووصولهم عند الصباح إلى ناحية بُراق(٦) لأن تقدير وصول الملاعين عند عودهم من حوران إلى ذلك المكان. فسارعوا إلى العمل بما مثل لهم وأصبحوا في ذلك المكان وهم على غاية من الكثرة والمنعة ومعهم سواد عسكرهم بأسره في عَدَدٍ لا يُحصى كثرةً فهجموا عليهم فلم يتكامل ركوبهم إلا وقد قُتل منهم جماعة بالنشّاب وضربوا مصافّاً ووقفوا قطعة واحدة وحمل عليهم المسلمون فثبتوا ولم يزل

عسكر الإسلام يكرّ عليهم ويفتك بهم إلى أن فشلوا وانخذلوا وأيقنوا بالبوار وحلول الدمار وولّى كليام دبّور[٧] مقدمهم وشجاعهم في فريق من الخيّالة منهزمين وحمل الأتراك والعرب حملة هائلة وأحدقوا بهم ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ورشقاً بالسهام فما كان إلا بعض النهار حتى صاروا على وجه الأرض مصرعين وبين أرجل الخيل معفّرين وغنموا منهم الغنيمة التي امتلأت أيديهم بها من الكراع[٨] والسلاح والأسرى والغلميان وأنواع البغال، وهو شيء لا يحصر فيذكر ولا يُحَدّ فيُعَد ولم يسلم منهم إلى معسكرهم إلا القليل من الخيّالة الذين نجت بهم سوابقهم المضمرة وعاد الأتراك والعرب إلى دمشق ظافرين غانمين منصورين مسرورين آخر نهار ذلك اليوم المذكور فابتهج الناس بهذا اليوم السعيد والنصر الحميد وقويت به النفوس وانشرحت به الصدور وعزم العسكر على مباكرتهم بالزحف إلى مخيّمهم عند تكامل وصوله وتسرّع إليهمّ جماعة من الخيل وافرة وهم ينظرون إلى كثرة النار وارتفاع الدخّان وهم يظنّون أنهم مقيمون، فلمّا دنوا من المنزل صادفوهم وقد رحلوا آخر تلك الليلة عندما جاءهم الخبر وقد أحرقوا أثقالهم وآلاتهم وعددهم وسلاحهم إذ لم يبق لهم ظهر يحملون عليه، عندما عرفوه من حقيقة الأمر الذي لا يمكن معه المقام مع معرفتهم بكثرة عسكر الأتراك ولا طاقة لهم به، ولم يتمالكوا أن رحلو لا يلوون على منقطع ولا يقفون على مُقصر، وخرج إلى منزلهم فغنموا منه الشيء الكثير من أثاثهم وزادهم وصادفوا جماعة من الجرحى في الوقعة قد هلكوا مع وصولهم ودفُنوا في أماكنهم وخيولهم مصرعة من الجراح والكدّ، ولحق أواخرهم العسكر فقتلوا جماعة من المنقطعين وأغذوا سيرهم في هزيمتهم

خوفاً من لحاق المسلمين لهم، وأمن الناس وخرجوا إلى ضياعهم وانتشروا في أماكنهم ومعائشهم، وانفرجت عنهم الكربة، وانكشفت الغمّة، وجاءهم من لطف اللّه تعالى وجميل صنعه ما لم يكن في حساب ولا خطر في بال، فللّه الحمد والشكر على هذه النعمة السابغة، والموهبة الكاملة، حمداً يستديم جزيل نعمه ويستمدّ المزيد من منائحه وقسمه.

وعاد التركمان إلى أماكنهم بالغنائم الوافرة والخُلَع الفاخرة، وتفرّق جمع الكفرة إلى معاقلهم على أقبح صفة من المذلّة، وعدم الكراع، وذهاب الأثقال، وفقد أبطال الرجال، وسكنت القلوب بعد الوَجَل، وأمنت بعد الخوف والوهل، وأيقنت النفوس بأن الكفرة لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل بعد فناء أبطالهم واجتياح رجالهم وذهاب أثقالهم.

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، حوادث سنة (٥٢٣ هـ)
تاريخ دمشق لابن القلانسي، تحقيق د. زكّار ٣٥٦

*****

نصّ من تاريخ العَظِيمي
(المتوفى ٥٥٦ هـ)

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة : . . . وأوقع تاج الملوك [بوري بن طُغتكين] بدمشق بوزيره أبي علي المزدقاني ، فقتله وعاثت العامّة فقتلوا خلقاً من الباطنية وحماه أيضاً . ووصل إلى الساحل أسطول الفرنج وبلغهم ضعف دمشق فنزلوها وحصروها في الأمم العظيمة ، ونهض منهم للعلوفة صناديد العسكر ومعهم من الكراع والرجّالة ما شاء الله ، فنهض إليهم الأمير سيف الدين سوار ومرى في سرية من الأتراك والعرب فأوقع بهم وقتلهم بأسرهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ووصل من الناجين من خبّر العسكر ، فرحلوا عن دمشق هاربين ، وأحرقوا أكثر الثقل ، وعاد سيف الدين بالوسيق والكراع والأسرى والرؤوس . فبعثت إليه أمدحه بالقصيدة التي أولها :

نأت من سليمى بعد قرب ديارها　　وأقوت مغانيها وشط مزارها

تاريخ حلب للعظيمي ٣٨٢
الحروب الصليبية لزكّار ٢/ ٦٧٨
Journal Asiatique 1938

* * * * *

نصّ ابن الأثير

(المتوفى ٦٣٠ هـ)

لمّا بلغ الفرنج قتل المزدقاني والإسماعيلية بدمشق، عظم عليهم ذلك وتأسّفوا على دمشق حيث لم يتم ملكها وعمتهم المصيبة فاجتمعوا كلهم صاحب القدس [الملك بلدوين الثاني Baldwin II]، وصاحب أنطاكية [بوهمند الثاني Bohemund II]، وصاحب طرابلس [بونز]، وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم، ومن وصل إليهم في البحر للتجارة والزيارة، فاجتمعوا في خلق عظيم نحو ألفي فارس، أمّا الراجل فلا يحصى، وساروا إلى دمشق ليحصروها، ولمّا سمع تاج الملوك [بوري بن طُغتكين] بذلك، جمع العرب والتركمان، فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج في ذي الحجّة فنازلوا البلد وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة والإغارة على البلاد فلمّا سمع تاج الملوك أن جمعاً كثيراً قد ساروا إلى حوران لنهبه وإحضار الميرة سيّر أميراً من أمرائه يُعرف (بشمس الخلاص) في جمع من المسلمين إليهم وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر ولقوا الفرنج من الغد فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدّمهم ومعه أربعون رجلاً وأخذوا ما معهم وهي عشرة آلاف دابّة موقرة وثلثمائة أسير وعادوا إلى دمشق لم يمسسهم قرح فلمّا علم من عليها من الفرنج ذلك ألقى اللّه في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين وأحرقوا ما تعذّر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك

وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم يقتلون كل من تخلّف منهم فكثر القتلى منهم وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة من هذه السنة.

الكامل في التاريخ لابن الأثير، حوادث (٥٢٣ هـ)

*****

نصّ سبْط ابن الجَوْزِي
(المتوفى ٦٥٤ هـ)

السنة الثالثة والعشرون وخمسمائة [١١٢٩م]: . . . وكان ببانياس العجمي فسلمها إلى الفرنج خوفاً من المسلمين، فقويت نفوس الفرنج على قصد دمشق، واستعدّوا لها، وبلغ تاج الملوك بوري فراسل ملوك الأطراف، وبعث بالفقيه عبد الوهّاب ابن الحنبلي إلى بغداد رسولاً عنه، وعن أهل دمشق، يذكر استيلاء الفرنج على بانياس، وأن قصدهم دمشق، وقد أشرفوا عليها، فخلع عليه ووعد بانفاذ العساكر، وجائت الفرنج فنزلوا على جسر الخشب، وأخرج بوري عسكره من باب شرقي بالليل إلى ناحية

براق، فوقعوا على جماعة من الفرنج كانوا قد مضوا إلى حوران يطلبون الميرة، فقتلوهم وأسروا الباقين، فبلغ الفرنج فرحلوا نحو حوران والمسلمون خلفهم ينهبون ويقتلون حتى وصلوا طبرية.

النصّ من كتاب: الحروب الصليبية ٢/ ٧٦٧ للدكتور زكّار
ونقلناه بإذن خاصّ منه فله كل الشكر.

*****

نصّ اليافعي

(المتوفى ٧٦٨ هـ)

لا يخرج نصّه عن تكرار شديد الاختصار لما ذكره من سبقه من المؤرّخين حول هذه المحاولة، كما لم يعلّق عليه شأنه في ذلك شأن بقيّة كتّاب الحوليات التاريخية، وقد أورده ضمن حوادث سنة ٥٢٣ هـ وجاء فيه:

سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة: . . . وجاءت الفرنج فنازلت دمشق ثم تناجى عسكر دمشق والعرب والتركمان فبيتوا الفرنج فقتلوا وأسروا.

مرآة الجنان لليافعي ٣/ ٢٢٩

نصّ ابن كثير

(المتوفى ٧٧٤ هـ)

و فيه اختلاف عن النصّين السابقين حيث يقول: حاصرت الفرنج مدينة دمشق فخرج إليهم أهلها، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وبعث أهل دمشق عبد اللّه الواعظ ومعه جماعة من التجار يستغيثون بالخليفة(٩)، وهمّوا بكسر منبر الجامع [؟] حتى وعدهم بأنه سيكتب إلى السلطان(١٠) ليبعث لهم جيشاً يقاتلون الفرنج، فسكنت الأمور، فلم يبعث لهم جيشاً، حتى نصرهم اللّه من عنده، فإن المسلمين هزموهم وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفساً وللّه الحمد والمنّة. وقُتل (بيمند) الفرنجي صاحب أنطاكية(١١).

البداية والنهاية لابن كثير، حوادث (٥٢٣ هـ)

*****

ويضيف **رنسيمان Runciman** على النصوص السابقة بعض التفاصيل الأدقّ فيقول: لم يكد بلدوين [الثاني Baldwin II] يسمع بوفاة طُغتكين، حتى أرسل من قِبله (هيو باينز Hugh of Payens) مقدّم الداويّة(١٢)، إلى أوروبا لتجنيد العساكر، بعد أن شرح أنه جعل دمشق هدفاً له. . . .

أما بلدوين فإنه قدم إلى بانياس في أوائل شهر نوفمبر [تشرين الثاني] على رأس جيش بيت المقدس بأكمله، وقد ازداد عدداً بمن جاء حديثاً من الغرب من الرجال. فمضى في سيره دون أن يصادف مقاومة تُذكر، ثم عسكر عند جسر الخشب على مسافة ستة أميال إلى الجنوب الغربي من دمشق.

وتقدّم بوري بجيشه حتى صار قبالة جيش الفرنج، بينما كانت دمشق عند مؤخّرة جيشه. وانقضت بضعة أيّام، دون أن يتحرك أي الجيشين من موضعه، وفي تلك الأثناء أرسل بلدوين فصائل من جيش الفرنج، تألّف معظمها من القادمين حديثاً من الغرب، بقيادة وليم بور، لجمع ما يلزم الجيش من المؤن والمواد، قبل أن يخاطر بالتقدّم للإطباق على المدينة.

غير أن وليم لم يستطع ضبط رجاله الذين زاد اهتمامهم بأن يصيبوا لأنفسهم الغنائم، على أن ينتظموا لجمع المؤن. وعلم بوري بذلك، فحدث في وقت مبكّر من الصباح، في أواخر نوفمبر [تشرين الأول]، أن انقضّ فرسان بوري من التركمان على وليم بور، على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب من معسكر الفرنج. وعلى الرغم من بسالة الفرنج في القتال، فانهم غُلبوا على أمرهم، فلم ينجُ منهم إلا وليم بور وخمسة وأربعون من رفاقه، ليرووا للملك أنباء القتال.

على أن الملك بولدوين قرر المضي على الفور لمنازلة العدو، أثناءاحتفاله بما أحرزه من انتصار، فأمر بالمسير قدماً، غير أنه حدث في تلك اللحظة أن أخذ المطر ينهمر، فاستحال السهل بحراً من الطين، وقَطعت الطرقَ أنهار عميقة سبّبتها الأمطار، فأضحي الهجوم مستحيلاً في هذه الأحوال. وإذ استبدّ بالملك اليأس، لم يسعه إلا أن يتخلّى عن فكرة مواصلة

حصار المدينة، وتهادى جيش الفرنج في ارتداده بنظام تام إلى بانياس، ومنها إلى فلسطين، حيث تفرّق الجند.

تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٢٨٨

* * * * *

أقول: تُلقي مقولة رنسيمان بعض الضوء على موقع (جسر الخشب) الذي ذكره ابن القلانسي، فنعلم أنه كان على مسافة ستة أميال إلى الجنوب الغربي من دمشق هذا إذا كان تحديد المسافة عند رنسيمان دقيقاً، والميل الواحد يساوي (١٦٠٩,٣٥ متراً) أي أنه يزيد قليلاً عن الكيلومتر ونصف، فيكون طول المسافة بالأمتار = (٩٦٥٦,١) متراً، أي ما يزيد قليلاً عن تسعة كيلومترات ونصف، فإذا استعنّا بالمقياس الخطّي لخارطة دمشق وأرباضها (بمقياس ١٠٠٠٠/ ١) ورسمنا خطّاً من الزاوية الجنوبية الغربية لسور المدينة باتجاه الجنوب الغربي، ننتهي إلى منطقة تتجاوز «داريّا» بنحو (١,٥) كم، لأن بعد هذه القرية عن دمشق بحدود(٨) كم.

وباعتبار أن الجسور في سورية لا تقام بين جبلين بل فوق الأنهر والجداول، يمكننا الحدس أنه كان مُقاماً فوق نهر الداراني أحد فروع بردى المار من هناك والذي ينتهي في نهر الأعوج.

نصّ ابن خلدون

(المتوفى ٨٠٨ هـ)

نصّ قصير ذكره ابن خلدون في حوادث سنة ٥٢٠ هـ في سياق حديثه عن تاج الدولة بوري [الصواب تاج الملوك بوري] وفيه: وقتل المزدغاني [صوابها المزدقاني] ونادى بقتل الاسماعيلية وبلغ الخبر إلى الافرنج فاجتمع صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وسائر ملوك الافرنج وساروا لحصار دمشق واستصرخ تاج الملك بالعرب والتركمان وجاء الافرنج في ذي الحجّة من السنة وبثّوا سراياهم للنهب والاغارة، ومضت منها سرية إلى خوارزم فبعث تاج الدولة سرية من المسلمين مع شمس الخواص من أمرائه لمدافعتهم فلقوهم وظفروا بهم واستلحموهم وبلغ الخبر إلى الافرنج فأجفلوا منهزمين وأحرقوا مخلفه واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون والله تعالى وليّ التوفيق.

تاريخ ابن خلدون ٥/ ١٧٩

*****

نصّ سيِّد علي الحَريري

(المتوفي بعد ١٣١٧ هـ)

سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م: لمّا بلغ الإفرنج قتل المزدقاني والاسماعيلية بدمشق، عظم عليهم ذلك وتأسّفوا لعدم تملّكهم دمشق، وعمّتهم المصيبة. فاجتمع بودوين [بلدوين] الثاني ملك القدس وصاحب طرابلس وصاحب أنطاكية وغيرهم ومن وصل إليهم في البحر من التجار والزوّار ورهبان الجمعيّات، وزحفوا بجيش عظيم على دمشق ليحاصروها، ولمّا سمع تاج الملوك صاحبها، جمع العرب والتركمان، ووصل الإفرنج إلى المدينة ونازلوها وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة والإغارة على البلاد، فلمّا سمع تاج الملوك أن جمعاً كثيراً سار إلى حوران لنهبه، سيَّر أميراً من أمرائه اسمه شمس الخواص [يبدو أنه نقل الاسم من ابن كثير لأنه عند ابن الأثير: شمس الخلاص] في جمع من المسلمين إليهم، وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر، ولقوا الإفرنج في الصباح فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوهم، فلم يفلت منهم غير مقدّمهم وأربعون رجلاً وأخذوا ما معهم، وهي عشرة آلاف دابّة موفرة وثلاثمائة أسير وعادوا إلى دمشق، ولم يمسّهم جرح، فلمّا علم بودوين ومن معه ألقى اللّه في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه منهزمين وأحرقوا ما تعذّر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك. وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم يقتلون كل من تخلّف منهم فكثرت قتلاهم. وكان نزولهم ورحيلهم في شهر ذي الحجّة سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م.

الحروب الصليبية للحريري ٦٧

نصّ وليَم الصُّوْرِي

(وفاته ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م ومختلف فيها)

(٢٦)

من الكتاب الثالث عشر

ملك بيت المقدس يصاحب أمير أنطاكية وكونت طرابلس وكونت الرها في الإغارة على نواحي دمشق. اضطرار الملك إلى التراجع بعد هلاك قسم من جيشه. موت «ستيفن» البطرك واختيار وليم مكانه:

فلمّا كانت السنة التالية [يقصد ١١٢٩م] عاد «هيو باينز Hugh of Payens» أول رئيس لفرسان الهيكل [الداويّة] إلى بيت المقدس مع ثلّة من رجال الدين كان الملك قد أرسلهم في جماعة من كبار رجالات المملكة إلى أمراء الغرب لدعوة الناس للقدوم لمساعدتنا، وكلّفهم فوق كل شيء بمحاولة إغراء ذوي النفوذ للحضور لمعاونتنا في حصار دمشق، فانصاع كثير من علية الناس لهم وتأثّروا بعذب كلامهم فقدموا إلى المملكة، ومن ثم فإن كافّة أمراء الشرق المسيحيين اعتماداً منهم على المساعدة القوية من جانب هؤلاء القادمين الجدد - اتّفقوا على عقد اجتماع حضره الملك بلدوين [الثاني Baldwin II]، وفولك كونت أنجو Fulk of An. Jou ،

وبونس كونت طرابلس، وبوهيموند Bohemond الصغير أمير أنطاكية، وجوسلين الكبير كونت الرها. وبعد أن طرح هؤلاء القادة فيما بينهم ما جاءوا من أجله قرّروا حشد قوات حربية من شتّى الأرجاء واستدعاء حلفائهم، ثم راحوا يتنافسون ويتحمّسون للقتال استعداداً لحصار مدينة دمشق العظيمة ذات الشهرة المدوية، وكانوا يطمعون في إرغامهم على الاستسلام لهم بتضييقهم الخنّاق عليها، غير أن المشيئة الالهية قضت قضاء عادلاً خفياً بفشل هذا المشروع الكبير، وإذا كان حسن الطالع قد لازمهم حتى دخلوا بهدى الربّ أرض دمشق إلا أنهم لم يكادوا يبلغون موضعاً اسمه «مرج الصفّر» حتى انفصل عن الجيش رجال من ذوي الرتب الصغيرة، فقد صدرت لهم الأوامر بالانتشار هنا وهناك لجلب كل ما يلزم الانسان والدواب من طعام وعليق، وعهدوا إلى «وليم بوري» مع ألف من الفرسان بالاشراف على هذه الجماعات التي انقسمت - كما هو الحال في مثل هذه الغارات - إلى شراذم صغيرة سارت كل واحدة منها في طريق أفضى بها إلى ابتعاد بعضها عن بعض، وشرعوا في مسح الاقليم دون أن يأخذوا حذرهم، ورأت كل جماعة أن تأخذ لنفسها كل ما تجده ولا تجعل لغيرها نصيباً مما وجدت، ولمّا سيطر عليهم هذا القصد انهمكوا في نهب المزارع والبيوت وقصرت كل طائفة همتّها على أن تحمل إلى جماعتها وحدها دون غيرها ما حصلت عليه من الأسلاب والغنائم، كما شرعت في السير بلا تبصّر أو رويّة، وسرعان ما جاوزوا حدود التنظيم الحربي.

*****

ما لبث نبأ هذا السلوك الطائش أن بلغ سمع (تاج الملوك بوري) أمير دمشق الذي كان يعرف كل المعرفة جهل هذا العسكر المطبق بالناحية التي هم فيها الآن ، فطمع في القضاء عليهم لو أنه باغتهم بغارة يشنّها عليهم وهو في صفوة مختارة من محاربيه وأعظم عساكره خبرة بفنون القتال .

وتحقق ما كان يؤمله .

* * * * *

فبينما كان هؤلاء يهيمون على وجوههم على غير هدى بحثاً عن الطعام إذا ببوري يخرج عليهم من حيث لا يحتسبون ، فتبدّد شملهم إذ كانوا مشغولين بأمور أخرى وعلى غير استعداد لمواجهة أي خطر ، وتفرّقوا في الحقول فتناوشت الكثير منهم سيوف أعدائهم الذين لم يكفّوا عن مطاردتهم مطاردة ألزمت كبارهم وصغارهم وزهرة الجيش المكلّفين بحراسة الخارجين في طلب العلف والطعام ، ولاقى الكثيرون من هذه الصفوة المختارة من الجند مصرعم .

* * * * *

فلمّا بلغت أنباء هذه الكارثة سمع العسكر الصليبي استشاطت قلوبهم غضباً ، وتملّكتهم رغبة جامحة في محو هذا العار والانتقام من العدو ، فأسرعوا إلى أسلحتهم فامتشقوها ، واستعدّوا لمواجهة الخصم بعزم ثابت وشجاعة كاملة ، ولكن هيهات للإنسان أن ينجز أمراً لم تقض به الإرادة الالهية ، فقد أغرقتهم السماء بمطر غزير انهمر حتى كأنه السيل الجارف ،

وكان مصحوباً بضباب كثيف نزل عليهم من فوقهم كسفاً تلو كسف، فاستحال السير بسبب المطر، وبلغت العاصفة حداً من الشدّة يئس معها الجميع من الخروج منها أحياء، وقد تمثّلت هذه النذر في السحب السوداء والضباب الكثيف والرياح التي كانت تهبّ من كل صوب، والرعد المستمرّ، والبرق المتواصل، غير أن العقل البشري الذي لا يدري من الغيب شيئاً لم يأبه بالتسامح الإلهي إذ ينذره قبل الجائحة، بل جرت الأمور على العكس من ذلك إذ أبت هذه القوات إلا أن تمضي قدماً ضد إرادة الربّ، فكان ما أقدموا عليه أمراً مستحيلاً، ثم تسنّى لهم أخيراً - لكن بعد لأي - أن يدركوا أن السماء لم ترمهم بهذه العاصفة إلا بسبب آثامهم فتخلّوا كارهين عن مشروعهم وندموا.

* * * * *

والحقّ أن الظروف قد تبدّلت كل التبدّل، فقد كان العدو عند خروجهم في أول الأمر يخشاهم أشدّ الخشية، وترتعد فرائصه منهم، ويراهم تهديداً خطيراً له، أمّا الآن فقد أصبح هؤلاء العسكر ذاتهم كلاً على أنفسهم ذاتها حتى صاروا في حال يرون النصر كل النصر أن يعودوا سالمين إلى أماكنهم، أما العدو فقد غدا آمن السرب، ناعم البال، مطمئناً إلى أن يده صارت الآن هي العليا.

* * * * *

وقد حدثت هذه النكبة يوم السادس من كانون الأول عام ١١٣٠ من

مولد المسيح، وفي السنة الثانية عشرة من حكم الملك (بلدوين)، وجرت تقريباً في نفس البقعة التي كان الملك قد أحرز فيها انتصاراً مؤزراً مهيباً على هذا العدو ذاته منذ أربع سنوات تقريباً.

فما أعظمك أيها المخلص الأبدي !!

*****

وما أقصر إدراك البشر عن استيعاب عظمتك حين تهوي إلى الدرك الأسفل بأولئك الذين غرّهم الغرور ببطشهم.

*****

لقد رميت يا ربّ فأصميت قلوب الذين لم يؤمنوا إلا بالإنسان، وإلا بالسلاح الذي يصنعه الإنسان، فأنزلت بهم من لعنتك ما هم أهل له، ذلك لأنك لا تطلب مساعداً ولا مشاركاً لك في مجدك، لأنك قلت أيها الربّ المبارك: «كرامتي لا أعطيها لآخر»، وقلت أيضاً: «انه مكتوب لي النقمة. أنا أجازى».

*****

وقلت: ليس الهمعي. أنا أميت وأحيي، سحقت وأني أشقى، وليس من يدي مخلص».

*****

أيها السيّد: لقد قلت الحق إذ قلت أن أمل الملك في الظهور على الأعداء هو أمل قوي، ما دام الملك مسلّماً أمره كله إلى رحمتك العلوية، أمّا حين يعتمد على كثرة ما لديه ويغرّه بأسه، ويسكن إلى بأس الرجال فإنك ممسك عنه عطفك، وتاركه وحيداً لا سند له غير ما ملكت يداه. أمّا حين يضع ثقته في عيون الربّ له فإنك ميسّر له النصر على عدوّه رغم قلّة جنده.. إنه مضطرّ للارتداد خائب المسعى رغم من معه من الجموع الكثيرة.

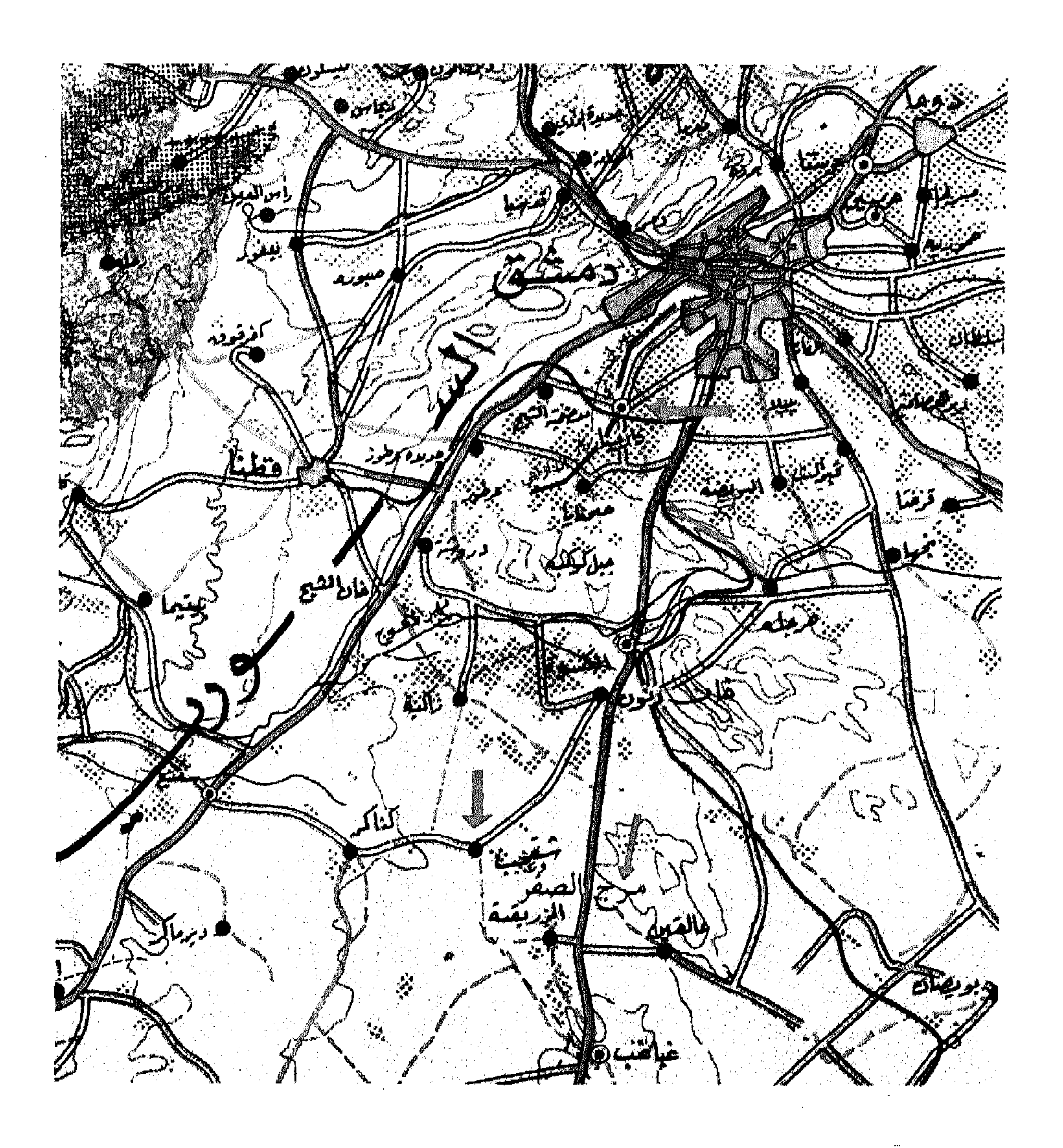
* * * * *

هكذا حاربتهم السماء في هذا الوقت، فقد سلّطت عليهم عاصفة من فوقهم أرغمتهم على الارتداد على أعقابهم ارتداداً عجزوا معه عن إنجاز مشروعهم، ولم يستطيعوا الثأر لاخوانهم الذين أهلكتهم سيوف الأعداء.

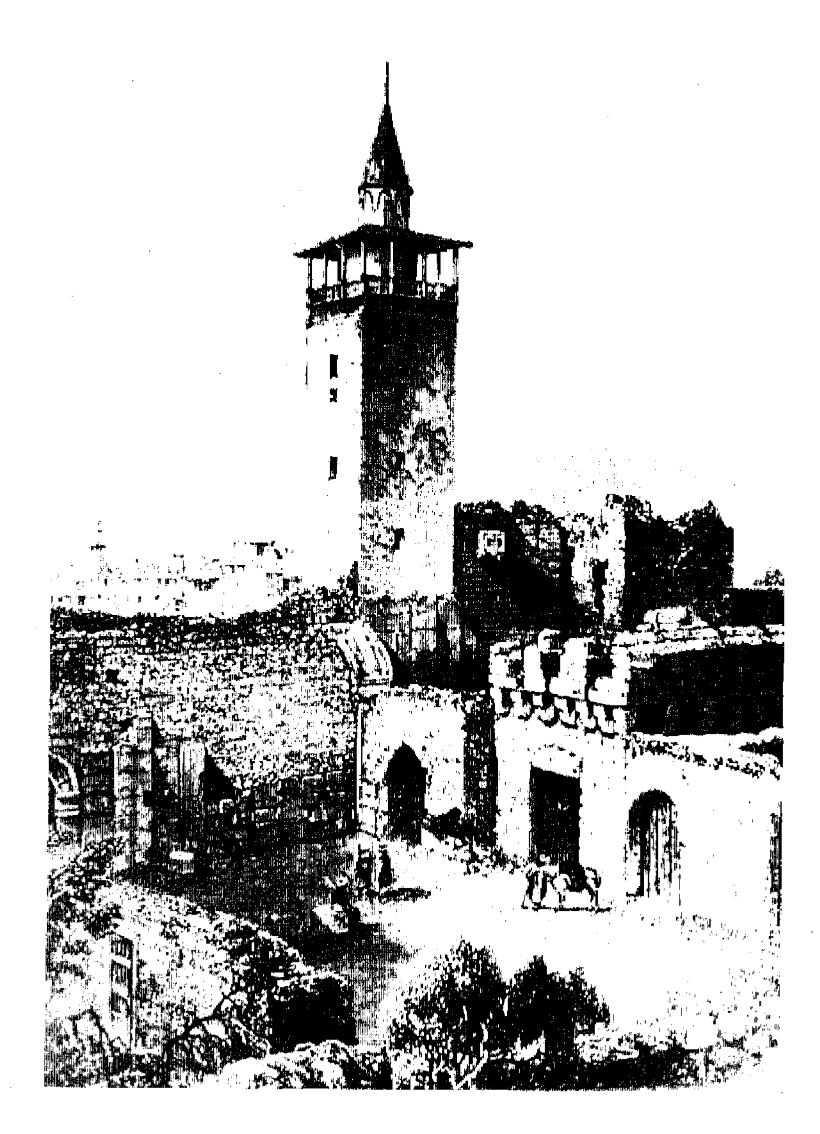
* * * * *

بعد هذه الأحداث المفجعة تفرّق قوّادنا إذ أصبح واضحاً لهم أن لن يُكتب النجاح للعمل الذي اضطروا به، فعادوا كلهم أدراجهم بالتالي إلى ديارهم.

الحروب الصليبية لوليم الصوري ٣/ ٦٨



قرية داريّا ونهر الداراني الذي من المحتمل أن يكون «جسر الخشب» قائماً فوقه في موضع قريب من القرية، وهو الجسر الذي ورد الحديث عن نزول الفرنج عنده في محاولة اقتحام دمشق سنة ٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م. وإلى الجنوب قرية «شقحب» ومرج الصفَّر.



الباب الشرقي الذي خرجت منه ليلاً عساكر تاج الملوك بوري إلى ناحية بُراق لصدّ محاولة الفرنج اقتحام دمشق سنة ٥٢٣ هـ.

هوامش الفصل السادس

(١) المزدقاني: هو طاهر بن سعد المزدقاني، كمال الدين، أبو علي، وزير تاج الملوك بوري بن طُغتكين صاحب دمشق في العهد السلجوقي، كان مؤيّداً للباطنية الاسماعيلية وداعماً لها، قتله تاج الملوك في مجلس تحت قبّة الورد بقلعة دمشق عام ٥٢٣ هـ، وعلّق رأسه على باب القلعة. أنظر: تاريخ دمشق لابن القلانسي تحقيق د. سهيل زكّار ٣٥٠، و شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (حوادث ٥٢٣ هـ).

(٢) قبّة الورد: كانت إحدى القباب السلجوقية داخل قلعة دمشق.

(٣) كُند: لا أدري لماذا ذكر ابن القلانسي هذا الاسم؟ فكُند من قرى سمرقند ولم يصلها الغزو الصليبي، ولا أعتقد بأنه كان يقصد تلك القرية، ولعل هدفه كان الكفَرة من الفرنج - وهو أقرب إلى المنطق - لأن المؤرّخين المسلمين كانوا يستعملون كلمة (كنُود) بديلةعن (الكفّار). أنظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٤/ ٤٨٢، ومعاجم اللغة العربية. أمّا فولك: فهو زوج ميليسند كبرى بنات بلدوين الثاني وأمير إقليم Anjou في شمال غرب فرنسة قبل أن يُضمّ للتاج البريطاني عام ١١٥٦م. أنظر:

Larousse Illustrated International Encyclopedia & Dictionary.

(٤) الميَر جمع مِيْرَة: الطعام الذي يدّخره الإنسان لحين الحاجة. والأزواد ج زاد: الطعام والغذاء ونحوهما.

(٥) الكَرادِيس: طائفة عظيمة من الخيل، ويقابلها بالتعبير العسكري الكتيبة ونحوها.

(٦) بُرَاق : قرية لا زالت إلى اليوم قائمة في حوران، تتبع ناحية المِسْمِيَّة، منطقة الصنمين، محافظة درعا. كان اسمها في العصر الروماني: كونستانسيا، وتكثر فيها اليوم آثار تعود إلى العصرين الروماني والبيزنطي، وفيها قلعة تعرف بقلعة بُراق بناها العثمانيون. أنظر: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مادّة (بُراق).

(٧) كليام دبور: تحريف لاسم (وليم دو باري William de Bury) من قادة الفرنج الفرسان.

(٨) الكُرَاع: اسم يُطلق على الخيل والبغال والحمير. أنظر المعاجم العربية.

(٩) يقصد الخليفة العبّاسي المسترشد بالله فضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله، ولد سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م، وتولّى الخلافة سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨م، وقُتل سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥م. أنظر معجم أرباب السلطان للشهابي ٩٤.

(١٠) هو السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه، توفي سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣١م.

(١١) بيموند أو بوهموند الثاني Bohemund II صاحب إمارة أنطاكية الصليبية، قُتل سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م، قتله التركمان وهو يتقدّم إزاء نهر جيحان لاسترداد (عين زربة)، خلافاً لما ذكره ابن كثير من أنه قتل سنة ٥٢٣ هـ. أنظر: تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٢٩٢.

(١٢) الداويّة Templars: طبقة من الفرسان الصليبيين يعرفون أيضاً باسم: (فرسان الهيكل). وأعتقد أن لفظة (الداويّة) اختصار محرّف بحالة الجمع عن الفرنسية de التي تضاف لاسم من يحمل رتبة من رتب النبالة من الفرنسيين فتأتي بعده وقبل اسم المقاطعة التي يملكها أو يحكمها.

الفصل السابع

المحاولة الثالثة لاحتلال دمشق

التخطيط للهجوم

(صفر ٥٤٣ هـ/ تموز ١١٤٨م)

خلال الحملة الصليبية الثانية

Planning to Attak Damascus

(1148 A.D/543 A.H)

بعد اكتمال وصول جيوش الحملة الصليبية الثانية إلى مدينة (القدس) بفلسطين عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م، قامت الملكة (ميليسيند Melisinde)وابنها الملك (بلدوين الثالث Baldwin III) بدعوة ملكي فرنسة وألمانية ونبلائهم وقادتهم إلى اجتماع بالغ الخطورة والأهميّة في مدينة (عكا Acre) في الرابع والعشرين من حزيران من العام المذكور.

وشارك في الترحيب بالضيوف كل من: الملك بلدوين، وفولشر بطريرك بيت المقدس، ورئيس أساقفة (قيسارية) و(الناصرة)، ومقدّمي الداويّة Templars والاسبتارية Hospitaler أو Hospitaller، وكبار موظفي الكنيسة، والبارونات بمملكة القدس. وممن حضر هذا الاجتماع مع الملك كونراد الثالث، أخوه غير الشقيق هنري باسمبير، وولف دوق باڤاريا، وعدد كبير من الأمراء دونهم رتبة. وعن (اللورين Lorraine) اسقفاها متز وتول. وحضر مع لويس السابع شقيقه روبرت (كونت دريه)، وصهره المقبل هنري

(كونت شامپانيا)، وثييري Thierry (كونت الفلاندرز Flanders)، وبرتراند الصغير (وهو ابن غير شرعي لألفونسو جوردان).

ولم تتسرّب أية معلومات عن المناقشات التي جرت داخل الاجتماع، وعمّن طرح الاقتراح النهائي لتنظيم الهجوم، وكان القرار النهائي للمجلس، بعد شيء من المعارضة، أن تتركّز الجهود جميعها على اقتحام دمشق وتحويلها إلى مملكة صليبية أسوة ببقية الممالك.

ووصف المؤرّخون الغربيون هذا القرار بالغباء والحماقة المطلقة، فرغم أن دمشق قد تكون «جائزة ثمينة» لهم، ويؤدي احتلالها إلى قطع الصلة نهائياً بين مسلمي مصر وإفريقية من جهة، وبين إخوانهم في شمال الشام والشرق من جهة أخرى، إلا إن التضحية بصداقة أمرائها من (البوريين) في حالة الهجوم عليها- وكانوا الوحيدين الذين أقاموا مع الفرنج صلات الصداقة - يمكنها أن تكون خسارة كبيرة لهم تؤدي إلى ارتماء حكامها البوريين في أحضان نور الدين الشهيد صاحب حلب وما يتبع ذلك من صعوبات ومناوشات وضغوط قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

ورأى فريق من الفرنج أن دمشق تشكل حاجز أمان يفصل بين الممالك الصليبية وبين الموصل وحلب، لذلك فإن استمرار القطيعة بينها وبين حلب أمر في غاية الأهمية، ولم تكن حلب تشكل أية أهمية استراتيجية بالنسبة لهم.

وكتب أرنست باركر يقول: (على أن الهجوم على دمشق يُعتبر مخالفاً لقواعد الأدب واللياقة، إذ ان دمشق كانت الحليف الوحيد الذي يستطيع مساعدة الفرنج في وقف تقدّم نور الدين، ومع ما صاحب هذه

الحملة من الحماقة لا يقلّ عمّا اقترنت به من مخالفة الذوق، فاستطاع وزير دمشق، معين الدين أنر، أن يبذر الشقاق بين الفرنج المستوطنين وبين الصليبيين الجُدد ونجح، بفضل ما بذله من الرشاوى والوعود بدفع الجزية، في تحريض الفرنج المستوطنين على أن يتسبّبوا في فشل الحصار، الذي لم يمض عليه إلا أربعة أيّام، وذلك في ٢٨ تموز سنة ١١٤٨م، وبذلك فشلت الحملة الصليبية الثانية).

وتشاحن القادة الفرنج فيما بينهم صراحةً حول مستقبل دمشق عند الاستيلاء عليها، وكان بارونات بيت المقدس يأملون بأن تكون إقطاعاً لمملكتهم، واتفقوا بأن يكون سيّد هذا الاقطاع (گاي بريسيبار) سيّد بيروت، وأقرّت هذا الترشيح فيما يبدو الملكة ميليسيند.

غير أن (ثييري Thierry) كونت الفلاندرز كان يطمع فيها ليجعلها إقطاعاً شبه مستقل، على مثال إمارة طرابلس، وظفر ثييري بتأييد الملك كونراد الألماني والملك لويس الفرنسي، إضافة إلى الملك بلدوين مخالفاً بذلك رأي أمّه الملكة ميليسيند، ويعتقد بأن الدافع له في هذا التأييد كون ثييري متزوّج من اخته غير الشقيقة، ولما علم بارونات الأراضي المقدّسة بأن الملك بلدوين يصانع ثييري، اشتدّ غضبهم ونزعوا إلى التواكل في بذل جهودهم.

أما من رأى من البارونات أن يستمرّ في مقاومة فكرة الهجوم على دمشق فإنهم ظفروا بأنصار جدد. ويؤكد عدد من الباحثين أن هؤلاء البارونات كانوا قد اتصلوا سراً بالأمير (معين الدين أنر)[1] صاحب دمشق، وأنه أغدق عليهم كميّات من الأموال الضخمة تبيّن فيما بعد أنها زائفة. كما

أكد لهم بأنه سيتخلى عن تحالفه مع نور الدين (الشهيد) في حال إلغاء فكرة الهجوم.

ويرى ميخائيل السرياني أن الأموال التي بذلها معين الدين للملك بلدوين و(إليناند) أمير الجليل قد قبلاها خوفاً من أطماع الملك كونراد.

كل هذا جعل البلبلة والتردد يسريان بين بارونات مملكة بيت المقدس.

ولكن صوت الطمع والحرب انتصر على صوت العقل.

وطمع بارونات بيت المقدس في الحصول على الأراضي الخصيبة التي تدين بالولاء لدمشق، ويقول رنسيمان Runciman: (واشتدّ تأثّرهم كلما تذكروا ما تعرّضوا له أخيراً من ذلّة وهوان، ولا بدّ أن تطلّع للانتقام لهم ملكهم الشاب بلدوين، بما امتلأ به من فتوّة ونشاط، ودمشق جرى تبجيلها في الكتاب المقدّس، ولذا فإن استخلاصها من أيدي المسلمين سوف يردد مجد المسيح في سائر الأنحاء).

وتدارس الملوك والأمراء خطّة تنظيم الهجوم والحصار، وتمّ توزيع المهام القتالية لكل من الجيوش الثلاثة على الشكل التالي:

١ - فعهدوا إلى ملك القدس (بلدوين الثالث) بقيادة الفرقة الأولى التي ستتقدّم الهجوم وتشكّل ما يعرف بلغة اليوم (برأس الحربة Arrowhead)[٢]، وكان بلدوين أكثر من البقية معرفة بالمنطقة وطبيعة الأرض فيها.

٢ - وعُهد إلى الملك الفرنسي لويس السابع وجيشه بالنسق الثاني الذي سيدعم النسق الأول عند الضرورة.

توزّع المهام القتالية لقوات الحملة الصليبية الثانية في حصار دمشق

عام (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م)

- وضع د. قتيبة الشهابي -

٣- وعُهد للإمبراطور الألماني كونراد الثالث بقيادة المؤخرة لحماية قوات النسقين من هجوم مباغت يأتي من الخلف، فنزل (بالميدان الأخضر)(٣) وسيطر فيه على نهر بردى.

وتقرّر أن يبدأ الهجوم عبر البساتين رغم أنها تشكّل سلاحاً ذا حدّين وذلك بغية:

١- تأمين غطاء طبيعي للمهاجمين بالتستّر وراء الأشجار الكثيفة.

٢- تموينهم بالماء من الجداول والغدران، وإمدادهم بالفواكه الدمشقية المشهورة التي تُستنبت في تلك البساتين.

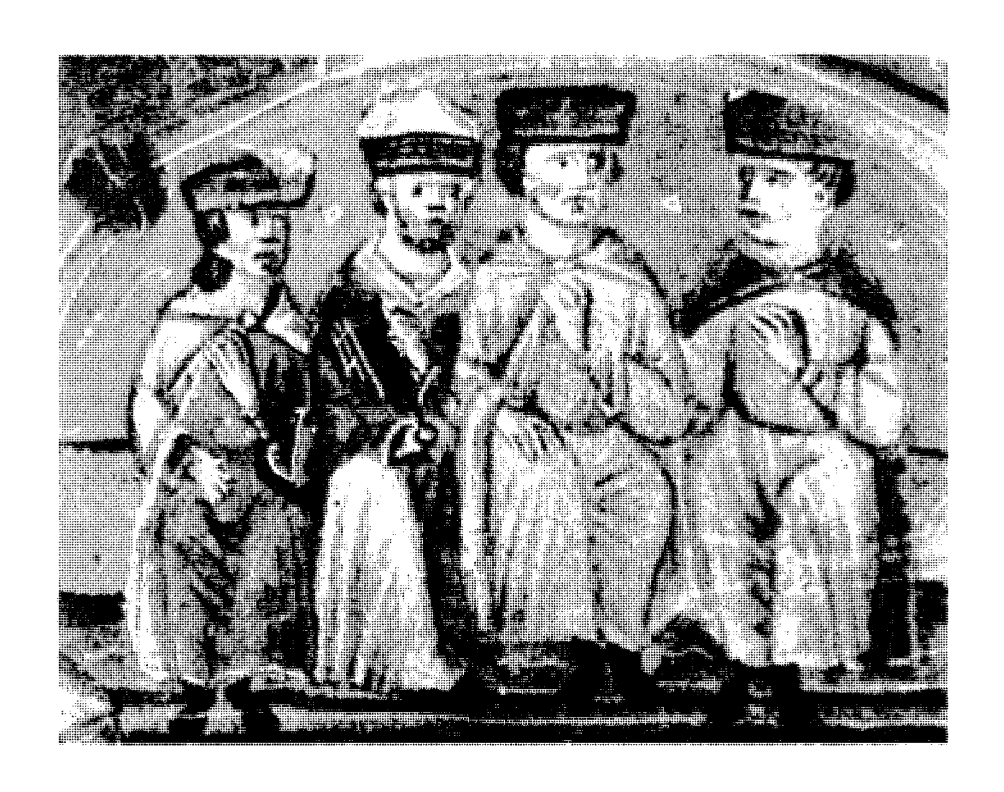
تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٤٥١

الحروب الصليبية لباركر ٧٦

الحروب الصليبية لزكار ١/ ٤٣٣

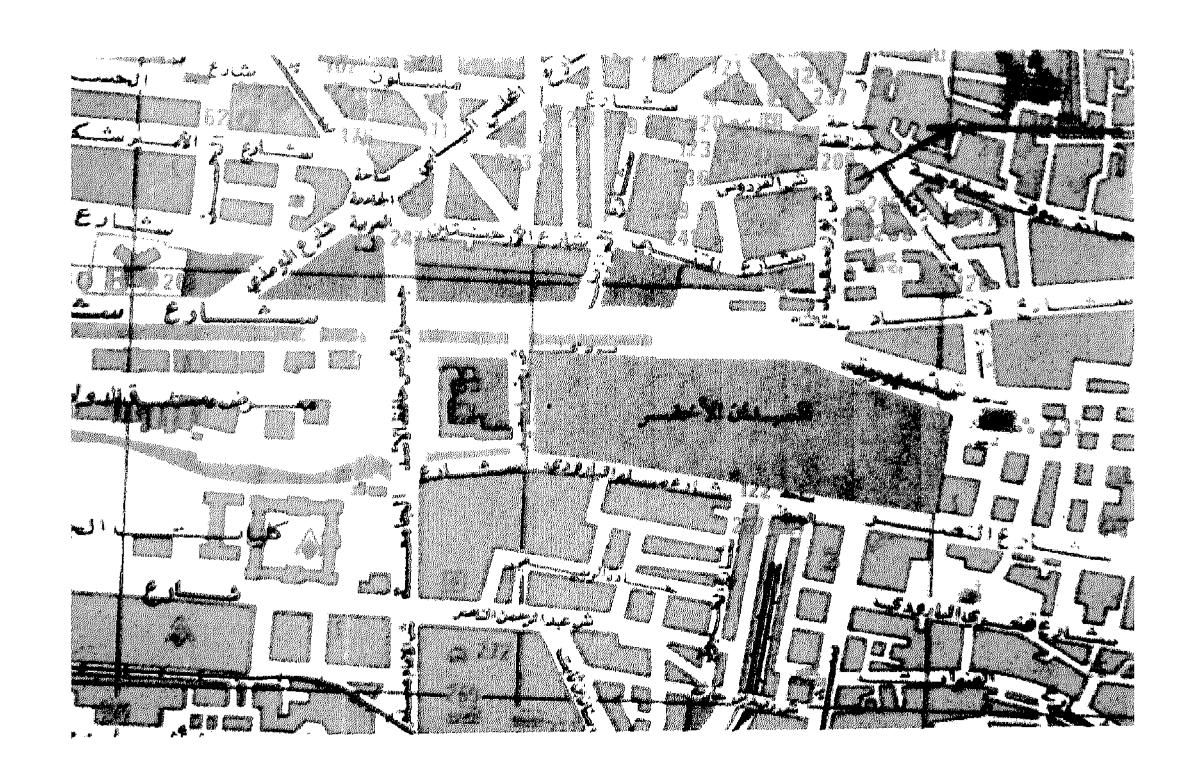
موسوعة Groller

*****



ملكا الحملة الصليبية الثانية ، لويس السابع ، و في الوسط كونراد الثالث

(منمنمة من مخطوطة أخبار غليوم الصوري في المكتبة الوطنية بپاريس)



الميدان الأخضر الذي كان يمتدّ بين ساحة المرجة والتكية السليمانية اليوم، وقد نزل عليه إمبراطور الألمان (كونراد الثالث) وعساكره للسيطرة على النهر لتأمين مصادر المياه اللازمة لسقاية العسكر والخيل، غير أن المصادر التاريخية لم تحدّد أي نهر منهما، فهناك (بردى وفوقه بانياس)، ولكن من الطبيعي أن يكون بردى فهو النهر الرئيسي والأغزر.

حصار الأيام الأربعة لدمشق

Four Days Siege of Damascus

(ربيع الأول ٥٤٣ هـ/ تموز ١١٤٨م)

وباتخاذ قرار الهجوم، سار جيش الفرنج من (الجليل) بفلسطين إلى (بانياس) بالجولان في منتصف شهر تموز من عام ١١٤٨م، وكان هذا الجيش أضخم ما قذف به الفرنج من الجيوش إلى ساحة المعركة، قيل بأن تعداده يناهز الخمسين ألف مقاتل.

*****

وفي يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول / الرابع والعشرين من تموز وصل الفرنج إلى دمشق، وعسكروا على حافة البساتين والحدائق في الموضع المعروف (بمنازل العسكر)[٤] على بعد أربعة أميال أو خمسة جنوبيّها، فصادفوا الماء معدوماً فيه، مقطوعاً عنه، فقصدوا ناحية (المزّة) فخيّموا عليها لقربها من الماء [فنهر المزّاوي من فروع بردى يمر فيها، إضافة إلى الينابيع العديدة التي كانت تتفجّر في أرضها]. وقيل بل نزلوا قرب قرية(داريّا) وتبعد عن دمشق نفس المسافة تقريباً وهي اليوم (٨ كيلومتر).

فلاحت لهم أسوار المدينة وأبراجها البيضاء من ثنايا الأشجار الكثيفة في بساتينها.

وركب أهل دمشق أسوار المدينة للحراسة والدفاع ومراقبة تحرّكات

العدو. وفي صباح الأحد قاموا بهجوم مضادّ وعلى رأسهم الأمير معين الدين، فأبلوا وأكثروا فيهم القتل والجراح.

* * * * *

وكانت المفاجأة التي لم يتوقّعها الفرنج تكمن في البساتين التي تقرّر الهجوم منها، فهي ذات ممرّات غاية في الضيق، وفي كثير من الأحيان لا تكفي إلا لمرور شخص أو دابّة واحدة، أضف إلى ذلك أنها مسوّرة بجدران (دكوك) عالية لمنع اللصوص من دخولها، وكانت هذه الدكوك الطينيّة تحمي المدافعين المزوّدين بالرماح والنبال وغيرهما وتشكّل نوعاً من الكمائن، ولها فتحات صغيرة للمراقبة أو لاطلاق الرماح والسهام التي كانت تستقر في أجساد المهاجمين من الفرنج [ولا تزال هذه الدكوك مستعملة إلى أيّامنا في كثير من بساتين الشام].

لذا كان عليهم فتح ممرات عبر تلك البساتين للوصول إلى المدينة، غير أن واجهوا صعوبات أخرى تكمن في أن أعداداً كبيرة من أهل دمشق زحفت وتحصّنت خلف تلك الدكوك (أو السواتر) وأثخنت العدو فتكاً وقتلاً.

* * * * *

وفوجئوا أيضاً أن في هذه البساتين أبراج وأبنية محصنّة قام أصحابها بالدفاع عنها بشكل مستميت، وكانوا يَصْلُون الفرنج بوابل من السهام جعل تقدّمهم الجماعيّ غاية في الخطورة.

وكان لويس السابع أول من قاد قواته الفرنسية عبر الممرات الضيقة بين البساتين، ودخل في كثير من المعارك والمناوشات والمضايقات، وهلك من رجاله عدد كبير، لكنهم استمرّوا في الضغط والتقدّم، وتراجع أهل دمشق يتحصّنون خلف أسوارها، واستولى الفرنج على مصدر المياه الرئيسي وهو النهر (٥).

* * * * *

وحاول جيش دمشق من المسلمين منع أو عرقلة انتقالهم إليها، لكنه لم يتمكّن من ذلك لقلّة عدده وعتاده بالمقارنة معهم، فارتدّ إلى داخل الأسوار يتحصّن بها، وظنّ أهل دمشق أنهم خسروا كل شيء، فبدؤوا يحصّنون المدينة ويقيمون المتاريس داخل الأحياء والحارات للدفاع عن وجودهم حتى الرمق الأخير.

* * * * *

وفي نفس الوقت كان الفرنج يقطعون الأشجار من البساتين الممتدّة جنوبي دمشق حيث يعسكرون، ويقيمون بجذوعها متاريس تحميهم من هجمات المسلمين المتكرّرة، ويهدمون القناطر، ثم إنهم خصّصوا قسماً من جيشهم لتطهير تلك البساتين من المقاومين الذين كانوا يشنّون حرب عصابات عليهم، وكانت المناوشات بينهما سجالاً متواتراً كل يوم باسلوب الكرّ والفرّ، وهو الاسلوب الذي أثبت نجاعته في إنهاك جيش الفرنج وتشتيت قوته الكبرى التي كانت تحاول اقتحام المدينة. أضف إلى

ذلك المعارك التي جرت في منطقتي المزّة والربوة وغيرهما .

*****

وعند النيرب [٦] قرب الربوة على الماء ، على نحو نصف فرسخ عن دمشق ، استشهد يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول الفقيه الإمام حجّة الدين (يوسف الفندلاوي)[٧] المغربي المالكي ، وكان معين الدين قد رآه وهو راجل فقصده وسلّم عليه وقال له : (يا شيخ أنت معذور لكبر سنّك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين) وسأله أن يعود فلم يفعل ، وقال له : (فوالله لا أقلته ولا استقلته) يعني قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة﴾ وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قتل ، وكذلك استشهد معه الشيخ عبد الرحمن الحلحولي الزاهد[٨] .

وحول مقتله قال ابن الحكم الأندلسي في قصيدة له أنشرها - على الرغم من ركاكة سبكها - لأنها توضّح بعض المواقع والأمكنة الهامّة التي نزلها الصليبيون :

بشطّي نهر داريا[٩] ... أمور ما تواتينا
وأقوام رأوا سفك الـ ... ـدماء في جلق دينا
أتانا مائتا ألف ... عديداً أو يزيدونا
فبعضهمو من أندلس ... وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصر ... ت أقواماً مجانينا
ولكن حرقوا في عا ... جل الحال البساتينا

وجازوا المرج والتعديـ ـل أيضاً والميـادينـا
تخالهـم وقـد ركبـوا فطائرهـا حـراذينـا
وبين خيامهم ضمّوا الـ ـخنـازر والقرابينـا
ورايـات وصلبانـاً على مسجد خاتونا[10]
وقلنـا إذ رأينـاهـم لعـل اللّه يكفينـا
سما لهـم معيـن قـد أعان الخلـق والدينـا
وفتـيـان تخالهـم لدى الهيجاء شياطينا
فولّوا يطلبـون المـر ج من شرقيّ جِسْرِينا[11]
ولكـن غـادروا اليا س تحت الترب مدفونا
وشـيخاً فنـدلاويّـاً فقيهـاً يعضـد الدينـا
وفتيانـاً تفانـوا من دمشـق نحـو سـبعينـا
ومنهـم مائتـا علـج وخيـل نحو تسـعينـا
وباقيهـم إلـى الآن مـن القتـل يفرّونـا

* * * * *

وقام الفرنج بشقّ طريق سستراتيجي بين البساتين التي سسيطروا عليهـا وبين منطقـة الربوة[12] لتـأمـين خطوط مـواصـلاتهم وإمـداداتهم، وشارك في هذا الشقّ ملك ألمانيا كنراد الثالث شخصياً.

لم يحفل الأمير معين الدين أنر صاحب دمشق السلجوقي في أول الأمر بما وصله من أنباء حول الحملة الصليبية، فقد سبق له أن سمع ما

تكبّدته من خسائر فادحة في الأناضول، كما لم يتوقّع أن يستهدف الصليبيون دمشق، فلما اكتشف الحقيقة، أصدر الأوامر إلى ولاة الأقاليم السورية بأن يبعثوا إليه على عجل بكل من يستغنون عنه من الرجال، وأرسل على جناح السرعة إلى سيف الدين بن زنكي (صاحب الموصل)، وإلى أخيه نور الدين محمود بن زنكي الملقّب بالشهيد (صاحب حلب) يطلب منهما النجدة. ثم بدأ يعدّ العدّة للدفاع عن المدينة كأحسن ما يكون، يرفده في ذلك أهلها من الأجناد والسلاجقة الأتراك التركمان والسكان والمتطوعة وكل قادر على حمل السلاح، ويشاركهم رجال الغوطة والمرج، وأهل الأرباض خارج الأسوار كالعقيبة وقصر حجّاج والشاغور.

* * * * *

وفي اليوم الثاني للحصار، صارت الكرة في ملعب المسلمين، وتحوّل المد الصليبي الهادر إلى جزر، فما طلبه معين الدين من إمداد ونجدات، أخذت تتدفّق على دمشق وتدخلها من أبوابها الشمالية (باب توما وباب الفراديس) حيث لم يحاصرها الفرنج من تلك الناحية.

ولم يكن باب السلام مفتوحاً في ذلك الوقت لأنه فُتح وباب الفَرَج في عهد نور الدين الشهيد.

* * * * *

ويصف لنا ابن القلانسي (المتوفى عام ٥٥٥ هـ) تلك الأحداث التي ايشها فيقول: «وكانت المكاتبات قد نُفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ الاستنجاد وحصلت خيل التركمان تتواصل ورجَّالة الأطراف تتتابع وباكرهم المسلمون [أي باكروا الفرنج] وقد قويت نفوسهم وزال روعهم وثبتوا بإزائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل (الجرخ)(١٣) بحيث تتَّبع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل. ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجَّالة كثيرة من الرُماة فزادت بهم العِدّة وتضاعفت العُدّة وانفصل كل فريق إلى مستقرّه هذا اليوم وباكروهم من غدِه يوم الثلثاء كالبُزاة إلى تعاقيب الجبل والشواهين إلى مَطار الحجل وأحاطوا بهم في مخيّمهم وحول مجثمهم وقد تحصّنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشَّاب وحذفاً بالأحجار. وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحدٌ وظُنّ بهم أنهم يعملون مكيدة ويدبّرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرّجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجنة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً أو يجدون لفرِّهم احتيالاً وليس يدنوا منهم أحدٌ إلا صُرع برشقةٍ أو طعنةٍ وطمع فيهم نفر كثير من رجَّالة الأحداث والضياع وجعلوا يرصدونهم في المسالك وقد أيّنوا [تعبوا] فيقتلون من ظفروا به، ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها وحصل من رؤوسهم العدد الكثير».

*****

وبدَعْم من هذه القوات قام الأمير أنر بهجوم مضادّ ردّ به الفرنج عن أسوار المدينة الغربية قبالة باب النصر وباب الجابية.

ثم أعاد الكرّة بالهجوم في اليومين التاليين، وفي نفس الوقت تسرّبت أعداد من قوات المسلمين إلى داخل البساتين والحدائق ثانية، وبدؤوا بقتال الكرّ والفرّ والفتك وإنهاك عساكر الفرنج حيثما اختبأوا.

* * * * *

وأصبحت هذه الهجمات تشكّل خطراً كبيراً على قوات الفرنج لم يكن في الحسبان، لأنهم في البداية بيّنوا لجنودهم أن احتلال دمشق ليس أكثر من نزهة، فكان وبالاً ثقيلاً لم يتوقّعوه في النهاية.

فدعا لويس السابع، وكونراد الثالث، وبلدوين إلى مجلس حربي طارىء، وقرّروا الانسحاب من بساتين المدينة الجنوبية والتحرّك صوب الشرق، وإقامة معسكرهم في مساحات أرضية مكشوفة لا تمنح المسلمين الغطاء القتالي الطبيعي والمخبأ الآمن لحرب العصابات التي يشنّونها في البساتين والجنائن.

وفي السابع والعشرين من تموز تحرك الجيش الصليبي بكامله إلى السهل الواقع خارج السور الجنوبي والشرقي.

* * * * *

أقول:

لم يكن هذا القرار غير صائب فحسب من وجهة النظر التكتيكية، بل كان بالغ الخطورة بالنسبة لقوات الفرنج لثلاثة أمور:

١- قلّة المياه والفواكه والأشجار الساترة بالمقارنة مع الموضع السابق في البساتين.

٢- مواجهة القوى الصليبية لأمتن وأقوى قطاع من السور، خصوصاً بين الباب الشرقي وباب كيسان حيث الأبراج الدفاعية الحجرية الحصينة التي أقامها الرومان والبيزنطيون.

٣- إعطاء قوات المسلمين حرّية التحرك والالتفاف حول البساتين للهجوم من اتجاهات مختلفة.

*****

ونتيجة لهذه الصعوبات الكبيرة التي واجهت قوات الفرنج في الموضع الجديد، سرت بين عساكرهم همسات تفيد بأن (باروناتهم) في فلسطين ــ وهم الذين نصحوا ملوك الحملة بالقيام بها وسهّلوا لهم أمر اقتحام دمشق وكأنه نزهة أو (سيران) ــ لا بد وأنهم تقاضوا رشوة من معين الدين أنر كي يسدوا هذه النصيحة اليهم، ويجعلوهم يغوصون في مستنقع الهزيمة للتخلّص من وجودهم بين ظهرانيهم وما قد يسببه هذا الوجود من خطر على مراكزهم ومكتسباتهم إذا تمّ لهم النصر.

وفي هذا السياق أودّ ذكر بعض ما كتبه باللاتينية عام ١١٤٨م شاهد عيان هو الراهب (أودو راهب دويل Odo de Deuil) في كتابه «رحلة لويس

السابع إلى الشرق» وكان قسّيسه الشخصي ورافقه في كثير من الوقائع والاشتباكات، قال:

«وجزاء لذنوبنا، بدأ الدمشقيون بالعمل على أساس معرفتهم بشره وشدّة جشع بعض الناس، فحاولوا عن طريق الرشاوي تملّك قلوب هؤلاء الذين لم يكن لديهم الأمل في قهر أبدانهم، وإثر هذا وبناء عليه قامت منافسات بارعة، قادها بعض النبلاء الذين مارسوا دور يهوذا الخياني وأقنعوهم عن طريق الوعود بتسليم مبالغ طائلة من المال تمّ جمعها، بالعمل على رفع الحصار، وقام هؤلاء الرجال، يقودهم الجشع، أصل الشرور جميعاً، بالسماح لأنفسهم بالفساد عن طريق تسلّم الرشاوي والوعود، فغرقوا في مستنقع الجريمة، وهكذت أقنعت مقترحاتهم الخبيثة الملك [يقصد بلدوين] وأمراء الحجّ الذين وثقوا بهم تمام الثقة، وركنوا على إخلاصهم، أقنعوهم بترك البساتين، وتحويل الجيوش إلى الجهة المعاكسة من المدينة، وحتى يتمكّنوا من تغطية جريمتهم احتجّوا بقولهم بأن الجهة المعاكسة من المدينة، التي تواجه الجنوب والشرق، لا يوجد فيها بساتين حماية [يقصد للمسلمين] ولا نهر ولا خندق يعيق الوصول إلى الدفاعات، كما أعلنوا أن السور المنخفض والمبني بطوب مجفّف بالشمس، من المستحيل أن يصمد في وجه أول هجوم، وسيكون هناك حاجة قليلة لآلات الحصار، وللجهود الكبيرة المبذولة في تلك الجهة، فالسور سينهار مع أول ضربة، ولن يكون من الصعب شق طريقهم بالقوة إلى داخل المدينة، وكان هدفهم الوحيد من هذه الحجج العمل على تحويل الجيش من موقعه الحالي، ذلك أن المدينة هناك كانت قد تعرّضت للضغط الشديد، وباتت

منعدمة القدرة على الاستمرار في الصمود، ومع ذلك لم تسقط، بينما في الجهة الأخرى من المحتمل عدم قدرتها على الاستمرار في مقاومة الحصار. وانطلت هذه الحيلة على الملوك وكبار قادة القوات المتّحدة، وآمنوا بصحّة الأقولا المخادعة، وهكذا تمّ التخلّي عن الموقع الذي تمّت حيازته بالجهد الكبير، وبفقدان الرجال، وتحولّت جميع الفرق تحت قيادة الخونة عن مواقعها، وأقيم المخيّم [المعسكر] في الجهة المعاكسة من المدينة، وفي الحال أدركوا أن هذا الموقع كان بعيداً عن الفواكه الكثيرة والماء المتيسّر الوصول إليه، ولمّا بدأت الأطعمة في النقصان لاحظوا أن الخيانة قد عملت عملها، وعندها - إنما بعد فوات الأوان - أخذ الجميع يتمتمون بأنهم خُدعوا في تحويلهم من ذلك الموقع الممتاز».

إلى هنا ينتهي كلام الراهب أودو.

*****

أقول: أود التأكيد على موضوع (الرشوة) بالذات، خصوصاً وأن معظم من كتب من الفرنج عن الحملة الثانية استعملها (كقميص عثمان)، وعندي أن مثل هذا الاستعمال لا يخرج عن كونه محاولة يائسة لإخفاء أسباب الهزيمة المُرّة التي أصابتهم بإلقاء التبعية على (كبش فداء)، هم بعض النبلاء المتّهمين بتناول تلك الرشوات، وقد يكون فيها بعض الصحّة لكنها ليست كل شيء. فأسباب الفشل الحقيقية تكمن في :

١ - المقاومة الجبّارة والصمود الفعّال لقوات المسلمين على قلّة عددها وعدّتها وتنظيمها، وتدريبها القتالي بالنسبة لقوّات الفرنج.

٢- استجابة الجموع الغفيرة وتلاحمها المصيري في تلبية الدعوة للجهاد المقدّس، من داخل المدينة ومن خارجها.

٣- حرب العصابات غير المتوقّعة (الكرّ والفرّ) التي قام المسلمون بشنّها في البساتين وغيرها والتي أدّت إلى إرباك قوات الفرنج وإنهاك قواها وتخبّط أفرادها في تنفيذ الأوامر القتالية.

٤- العامل النفسي للمقاتلين، فبينما قاتل المسلمون قتال العقيدة دفاعاً عن شرفهم وأعراضهم وأموالهم وأراضيهم، قاتل الفرنج قتال تنفيذ رغبات أمرائهم بالاستيلاء والجشع. وبعضه قاتل طمعاً في الحصول على الغنائم الشخصية.

٥- فشل الخطّة العسكرية لاقتحام دمشق، خصوصاً تحوّل القوات إلى جهة الشرق هرباً من الهجمات الضارية المستمرّة لمجموعات المسلمين.

٦- تناحر وتزاحم الملوك الثلاثة فيما بينهم، فكلّ كما يقول المثل الشائع: (يريد جرّ اللحاف إلى نفسه).

٧- تخوّف بارونات الشام وبيت المقدس من ظهور إمارة جديدة تزاحمهم و تؤثّر أو تحدّ من مكتسباتهم.

* * * * *

وفي هذه الأثناء كان سيف الدين غازي بن زنكي السلجوقي(١٤) صاحب الموصل قد وصل إلى (حمص) واستصحب معه أخاه نور الدين

محمود بن زنكي الملقّب (بالشهيد)(١٥) صاحب حلب، وبدأ يتفاوض في شروط مساعدته لمعين الدين، وكان الشرط الأهم الذي طرحه هو السماح لقواته بدخول دمشق، لكن معين الدين أنر كان يعمل لكسب الوقت خصوصاً وأن الكرة صارت في ملعبه، إذ كان الجيش الصليبي في وضع حرج أمام الأسوار، ولم يكن يتوقّع قدوم الإمدادات الكبيرة ولا جيش نور الدين الذي لن تمرّ أيام إلا ويصبح في قلب المعركة. وتعالت صيحات الصليبيين بأن الدمار لن يحلّ فقط بكامل الجيش الصليبي، بل ستقدّم دمشق على طبق من ذهب لنور الدين، وهو عدوّهم الأكبر في الشرق.

*****

ويذكر ابن الأثير أن نور الدين أرسل إلى الفرنج يتهدّدهم إن لم يرحلوا عن البلد. فكفّ الفرنج عن القتال خوفاً من كثرة الجراح، وأرسل معين الدين إلى الفرنج بأن ملك المشرق [يقصد سيف الدين] قد حضر فإن رحلتم وإلا سلّمت البلد إليه وحينئذ تندمون، وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية.

وضاعت آخر فرصة للفرنج للاستيلاء على دمشق بفضل تحرك الجيش إلى الموضع الجديد، وبفضل تزايد أعداد الملتحقين بالجيش العربي المسلم.

وبعد وصول الأنباء بأن سيف الدين غازي تحرك من الموصل، ونور الدين (الشهيد) تحرّك من حلب لنجدة دمشق، ووصلا إلى

مدينة (حمص)، ارتفعت معنويات الناس، وكثرت الهجمات المعاكسة لقوات المسلمين على الفرنج، وبصورة خاصّة من خارج الباب الشرقي باتجاه الجنوب، ومن باب كيسان، ومن الباب الصغير أيضاً.

وأضحت جحافل الجيش الصليبي، لا دمشق المحاصرة، في موقف الدفاع بدلاً من الهجوم.

وأخيراً اقتنع من تبقى من بارونات فلسطين، وبعد فوات الأوان، أنه من الحماقة المضي في حصار دمشق، وفرضوا آراءهم على الملكين كونراد ولويس. وجأر الملكان بالشكوي لما اكتشفاه من خيانة قضيتهم، ومن الافتقار إلى الحماس لمتابعة الهجوم، فاتّخذا قرار الارتداد على مضض.

* * * * *

ويسهب **رنسيمان** Runciman في ذكر الشجار الذي وقع في المعسكر المسيحي سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م إثر الفشل في اقتحام المدينة فيقول: (وبينما تردّد بين الجيش المسيحي، التخاذل والهمسات عن الخيانة، تشاحن القادة صراحة حول مستقبل دمشق، إذا استولوا عليها، وكان بارونات بيت المقدس يأملون بألا تكون دمشق سوى إقطاع للمملكة [يقصدون مملكة بيت المقدس]، واتفقوا على أن يكون سيّد هذا الاقطاع، جاي بريسيبار، سيّد بيروت، وأقرّ هذا الترشيح، فيما يبدو، الملكة ميليسند والكندسطبل[١٦] مناسيس، غير أن ثيري Thierry كونت فلاندرز Flanders

كان يطمع في دمشق. التي أراد أن يحوزها إقطاعاً شبه مستقلّ، على مثال إمارة طرابلس. وظفر ثييري بتأييد كونراد ولويس، والملك بلدوين، نظراً لأن ثييري متزوّج من أخت غير شقيقة لبلدوين. ولمّا علم البارونات المحلّيون بأن الملك [بلدوين] يصانع ثييري، اشتدّ غضبهم ونزعوا إلى التواكل في بذل جهودهم. أمّا من لجأ من البارونات المحليين إلى الاستمرار في مقاومة الهجوم على دمشق، فإنهم ظفروا بأنصار جدد عديدين. ولعلّهم اتصلوا سراً بأنر، إذ دارت الهمسات، أن ما جرى فعلاً دَفْعه من مبالغ ضخمة من النقود التي تبيّن أنها كانت زائفة، انتقلت بين دمشق وبلاط بيت المقدس، وإليناند أمير الجليل. ولعل أنر أخطرهم بأنهم متى تراجعوا على الفور، فسوف يتخلّى عن التحالف مع نور الدين، وسواء حرص أنر أم لم يحرص على الإفادة من هذا العرض، فلا شك أنه أثار التردّد بين بارونات بيت المقدس.

ويشير ميخائيل السرياني إلى ما تردّد من شائعات عن الأموال التي جرى بذلها للملك بلدوين وإليناند أمير الجليل. والتي قبلاها خوفاً من أطماع كونراد الثالث ملك ألمانيا.

وكان نور الدين فعلاً بحمص، يتفاوض في شروط مساعدته لأنر، وطلب نور الدين أنه ينبغي السماح لعساكره بدخول دمشق [الغريب أن بعض المصادر العربية لم تذكر أنه نور الدين بل سيف الدين غازي صاحب الموصل].

غير أن أنر كان يعمل لكسب الوقت. إذ كان جيش الفرنج في وضع حرج أمام دمشق، ولم يتوقّع قدوم إمدادات، على حين أنه لن تمرّ أيام قليلة

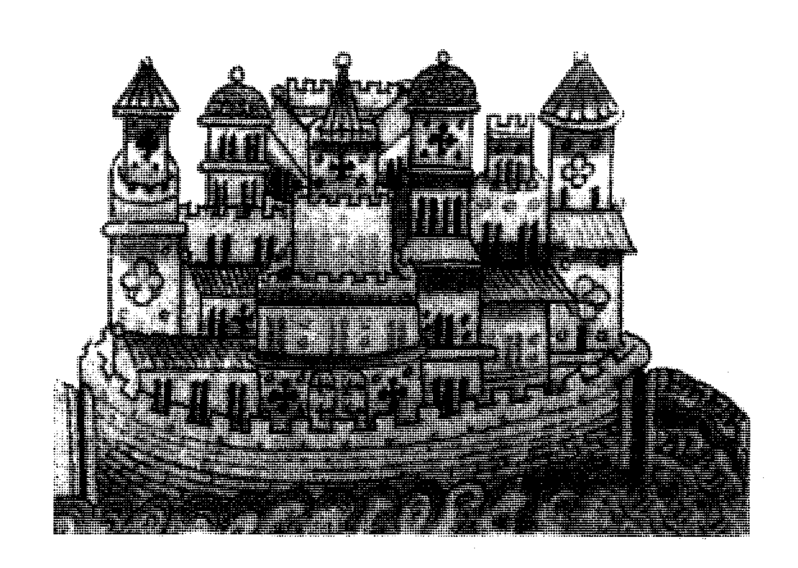
حتى يصير جيش نور الدين في ساحة المعركة، فإذا وصلت قوات نور الدين، فلن يحلّ الدمار فحسب بكل الجيش الصليبي، بل صار من المحقّق أن تنتقل دمشق إلى حوزة نور الدين.

واقتنع بارونات فلسطين، بعد فوات الوقت، أنه من الحماقة المضي في مهاجمة دمشق، وفرضوا آراءهم على الملك كونراد والملك لويس.

وألقى كونراد تبعية ما حدث على البارونات المحليين المعروفين باسم (البولاني) وهم الفرنج الذين نشأوا في الشرق.

وارتاع القادمون من الغرب لما حدث، فليس بوسعهم تتبّع ما يجري من مناقشات سياسية بارعة، غير أنهم أدركوا أنه لا يتحقّق عمل من الأعمال إلا بمساعدة الفرنج المحليين. وجأر الملكان بالشكوى لما اكتشفاه من خيانة، والافتقار إلى الحماس للقضيّة، غير أنهما أمرا بالارتداد عن دمشق.

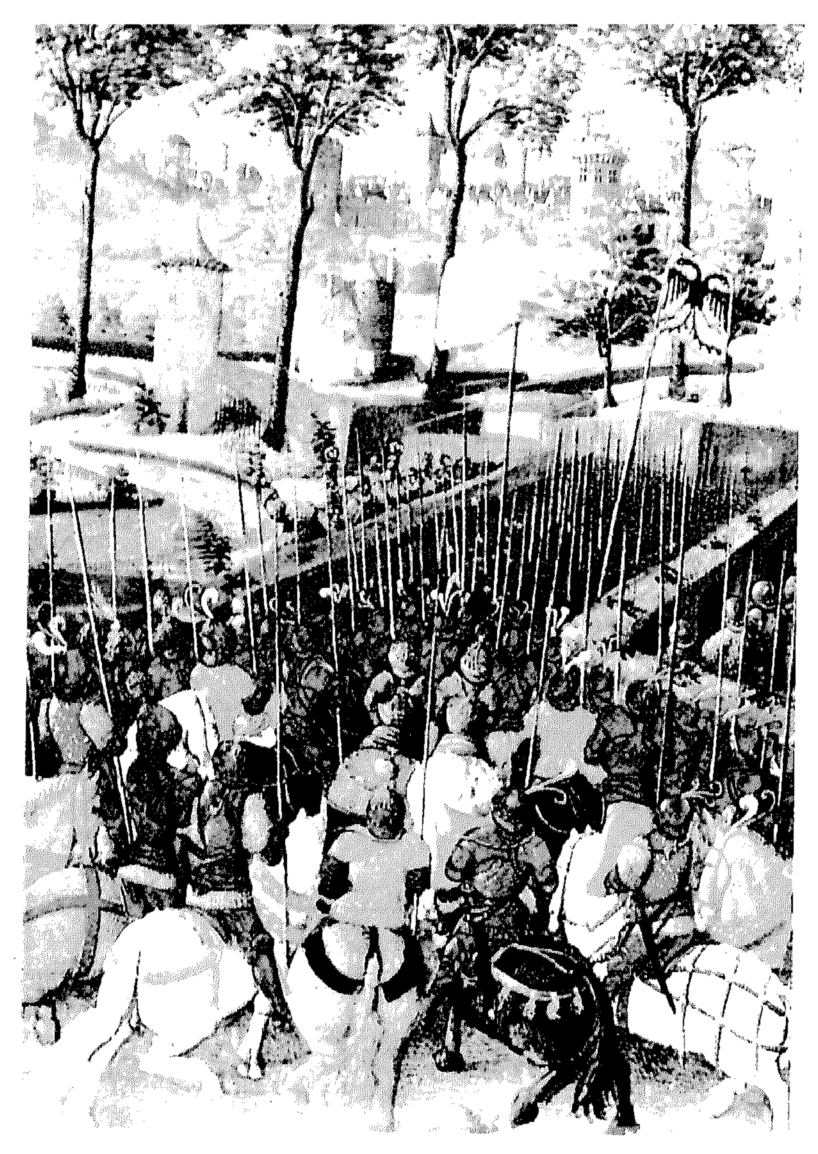
ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٢٩٨
تاريخ دمشق لابن القلانسي تحقيق د. سهيل زكّار ٤٦٣
الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١/ ٥١
الكامل في التاريخ لابن الأثير (حوادث ٥٤٣ هـ)
البداية والنهاية لابن كثير، حوادث سنة ٥٤٣ هـ
معجم البلدان لياقوت (مادّة حلحول) ٢/ ٢٩٠
تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٤٥١ - ٤٥٧
الحروب الصليبية لباركر ٧٦
الحروب الصليبية لزكار ١/ ٤٣٢
ولاة دمشق في العهد السلجوقي للمنجّد ١٠، ١١



منمنمة لدمشق إبّان الحملة الصليبية الثانية كما تخيّلها فنان أوروبي

عن كتاب : **The Crusades and the Holy Land**

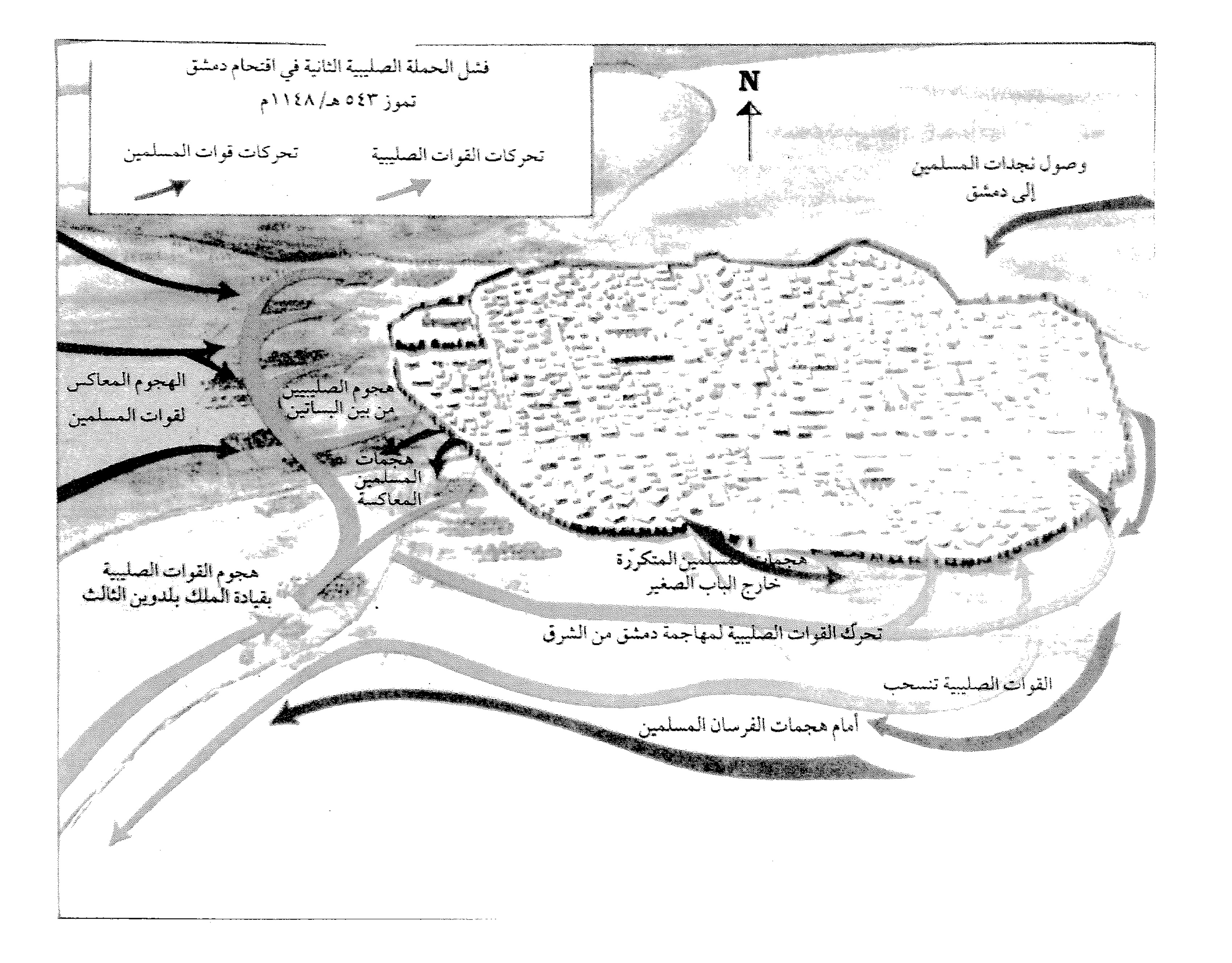
(رسم ملوّن من القرن الثالث عشر الميلادي في مكتبة Dodleian بأكسفورد)

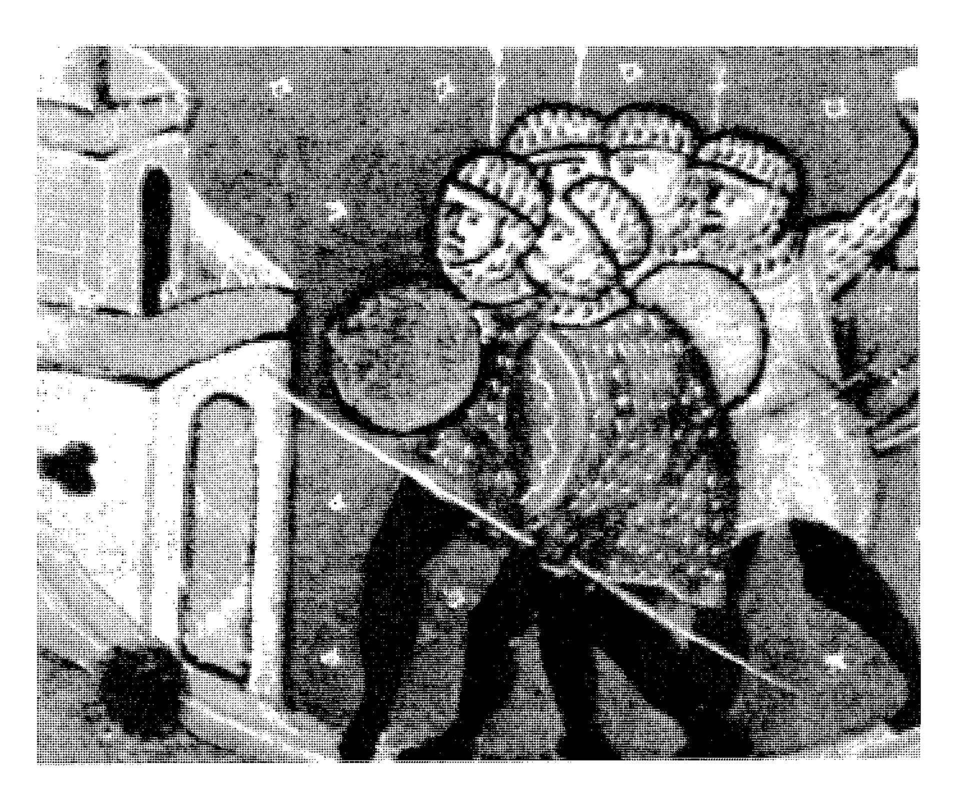


حصار دمشق من البساتين والجنائن غربيها عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م

(تفصيل من منمنمة في المكتبة الوطنية بباريس تعود لعام ١٤٩٠م)

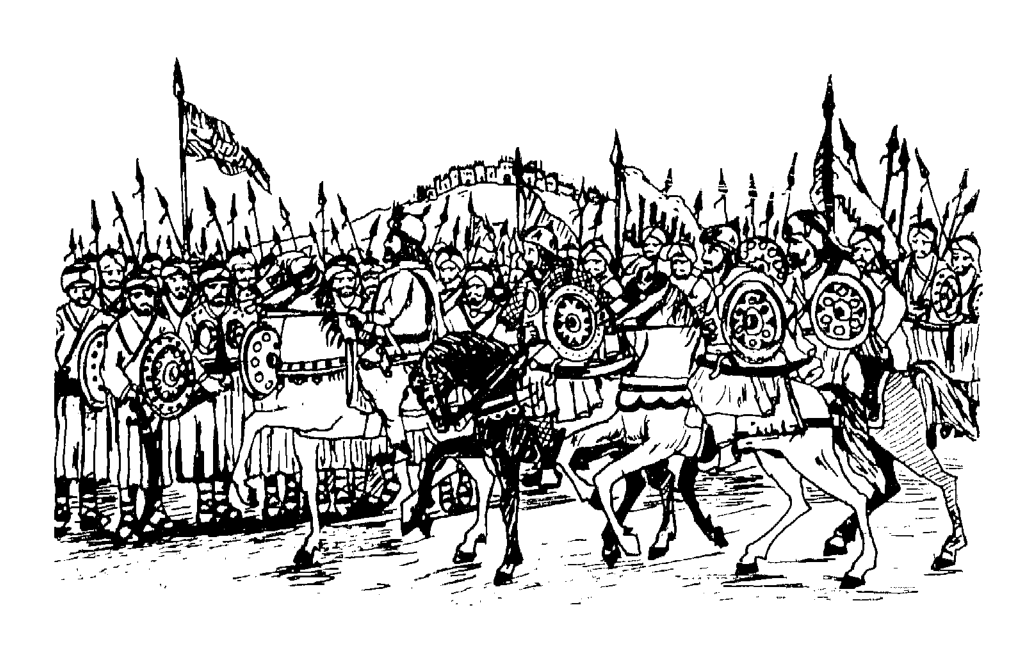
عن كتاب : **The Crusades and the Holy Land**


فشل الحملة الصليبية الثانية في اقتحام دمشق
تموز ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م
تحركات القوات الصليبية
تحركات قوات المسلمين
N
وصول نجدات المسلمين
إلى دمشق
الهجوم المعاكس
لقوات المسلمين
هجوم الصليبيين
من بين البساتين
هجمات
المسلمين
المعاكسة
هجوم القوات الصليبية
بقيادة الملك بلدوين الثالث
هجمات المسلمين المتكررة
خارج الباب الصغير
تحرك القوات الصليبية لمهاجمة دمشق من الشرق
القوات الصليبية تنسحب
أمام هجمات الفرسان المسلمين



الصليبيون يحاصرون دمشق في الحملة الثانية ١١٤٨م

(منمنمة من مخطوطة أخبار غليوم الصوري في المكتبة الوطنية بباريس)



قائد الجيش العربي يستعرض تشكيلاته القتالية قبل خوض المعركة



القتال بين المسلمين والفرنج خارج أسوار دمشق
(بتصرّف عن بطاقة بريدية صادرة في العهد العثماني)



من معارك المسلمين مع الفرنج في حصار دمشق

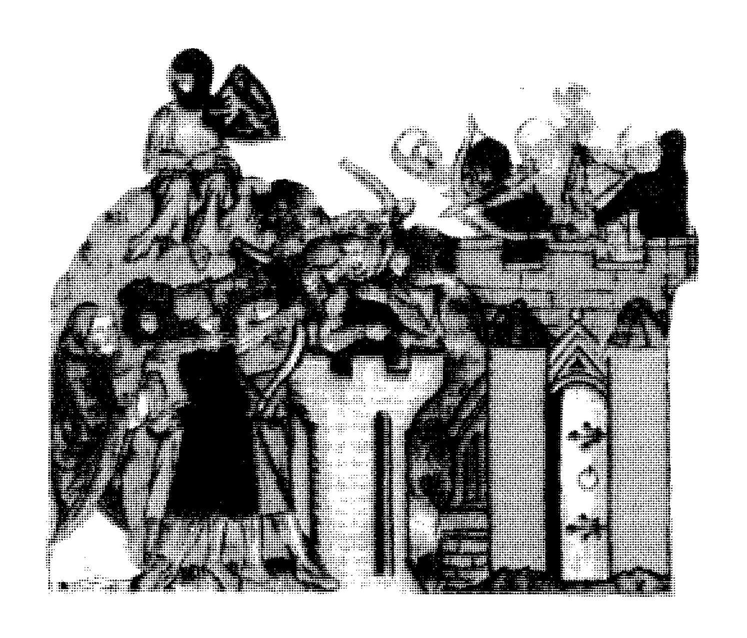
(من كتاب : صلاح الدين الأيوبي الصادر عن دار العلم للملايين ببيروت)



مصرع أحد القمامصة الفرنج في معركة مع المسلمين

عن كتاب : **The Crusades and the Holy Land**

(منمنمة في المكتبة الوطنية بباريس من القرن القرن الرابع عشر للميلاد)



من معارك المسلمين والفرنج

منمنمة عن كتاب : **The Crusades and the Holy Land**

(منمنمة في المكتبة الوطنية بباريس من القرن القرن الرابع عشر للميلاد)

فشل الحصار والتراجع عن دمشق

Failure of Damascus siege & Retreat

في فجر يوم الأربعاء، الثامن والعشرين من تموز ١١٤٨م، وتماماً بعد أربعة أيام من الحصار، قام الصليبيون بإزالة معسكرهم، والمسير نحو الجليل، وأحرقوا (الربوة) وما يجاورها انتقاماً وتشفّياً، وألقى كونراد الألماني مسؤولية الفشل على البارونات. ويرى رنسيمان Runciman أن الأموال التي دفعها معين الدين أنر هي التي حملتهم على الارتداد.

*****

أقول:

لم تكن الأموال وحدها هي التي جعلتهم يتراجعون، و رنسيمان عارف بالأسباب الحقيقة وتحدّث عنها بموضوعية كاملة، لكنه أراد حفظ (ماء وجه) الفرنج ولو جزئياً.

ولم يتركهم معين الدين أنر يتراجعون بهدوء وسلام، فأرسل خلفهم الفرسان التركمان الذين تميّزوا بالخفّة وسرعة الحركة، فأخذوا بالضغط على جناحي الجيش المنسحب منذ اليوم الأول ولعدة أيام متتالية، يمطروهما بوابل كثيف من السهام، فتناثرت جثث الفرنج من رجال وخيل على امتداد الطريق، وعبقت السهول برائحتها النتنة لعدة شهور تالية.

ووصلت فلول الفرنج إلى فلسطين نحو منتصف شهر ربيع الأول

٥٤٣ هـ/ أوائل شهر آب ١١٤٨م. وعادت القوات المحليّة منهم إلى أوطانها في أوروبا.

وكانت ضربة قاسمة للفرنج، فهم لم يصمدوا في الحصار إلا أربعة أيام وارتحلوا في اليوم الخامس. وتبدّدت أسطورة فرسان الغرب الذين لا يُقهرون، تلك الأسطورة التي انتشرت في الحملة الأولى.

ولولا دمشق وسلاجقتها لاستولى الفرنج على كثير من مدن الشام الداخلية.

وكان كل ما حقّقته الحملة الثانية لا يتعدّى فَقْد أعداد ضخمة من الرجال والعتاد، إضافة إلى تعرّضها لهوان شديد.

وإلى تندّر الناس في أوروبا بأن مثل هذا الجيش العَرَمْرَم لم يستطع الصمود إلا أربعة أيام.

ويقول (جورجس تيت Georges Tate): وكان لاصرار الفرنج المتكرّر على أخذ دمشق، والمحاولات العديدة لتحقيق هذا المخطّط، أن نجحوا في جعلها تنقاد إلى معسكر نور الدين.

*****

وانتشرت في أوروبا بعد عودة فرنج الحملة الثانية إلى بلادهم قصة طريفة تقول بأن الشيء الوحيد الذي غنموه منها هو فاكهة (الخوخ) الدمشقية المشهورة التي نقلوا زراعتها لقصورهم قبل أن تنتشر، وظلّت هذه القصة مثار التندّر والتفكه في أوروبا لمدة طويلة.

*****

أمّا كونراد الثالث ملك ألمانيا فلم يمكث في فلسطين طويلاً بعد رجوعه عن دمشق، ففي الرابع والعشرين من شهر ربيع الثاني ٥٤٣ هـ/ الثامن من أيلول ١١٤٨م، غادر مدينة (عكا) على ظهر سفينة متّجهة إلى (سالونيك) حيث أمضى عيد الميلاد ببلاط الامبراطور البيزنطي (مانويل الأول كومنينوس Manuel I Comnenus) اكتمل خلالها الوفاق بينهما، وأبرما اتفاقاً لمناهضة روجر ملك صقلية ومحاولة اقتسام أراضيه في شبه الجزيرة الإيطالية.

وتمّ في هذه الزيارة زواج أخيه (هنري) دوق أوستريا (النمسا اليوم) بـ(ثيودورا) إبنة أخ مانويل. عندها استبدّ الجزع بالبيزنطيين فبكوا حينما شهدوا أميرتهم الصغيرة الجميلة، تُبْذل لمصير بالغ الوحشية والهمجية، وبعبارة أخرى: «تُقدّم قرباناً لحيوان من الغرب» حسبما كتب شاعر بالبلاط لأمها يبثّها عطفه وعزاءه.

وفي شهر شباط من عام ١١٤٩م غادر كونراد القسطنطينية عائداً إلى ألمانيا.

* * * * *

أما الملك لويس فبقي في فلسطين ليقضي عيد القيامة في بيت المقدس، على الرغم من رسائل وتوسّلات (سوجر) رئيس الدير الفرنسي له بالعودة. فقد كان يدرك أن عودته ستقترن بطلاق زوجته، وما يترتّب على ذلك من نتائج سياسية، لذلك كان يسعى إلى تأجيل هذا اليوم المشؤوم.

وفي نفس الوقت، وبينما جدّد كونراد صلات الصداقة مع الدولة

البيزنطية، تعاظم نفور لويس من الأمبراطور البيزنطي مانويل كلما فكّر في ذلك، ولهذا غيّر سياسته، وسعى إلى التحالف مع روجر الثاني ملك صقلية. ثم إن ما وقع بينه وبين (ريموند) أمير أنطاكية من شجار، أزال العقبة الأساسية التي تحول دون هذا التحالف.

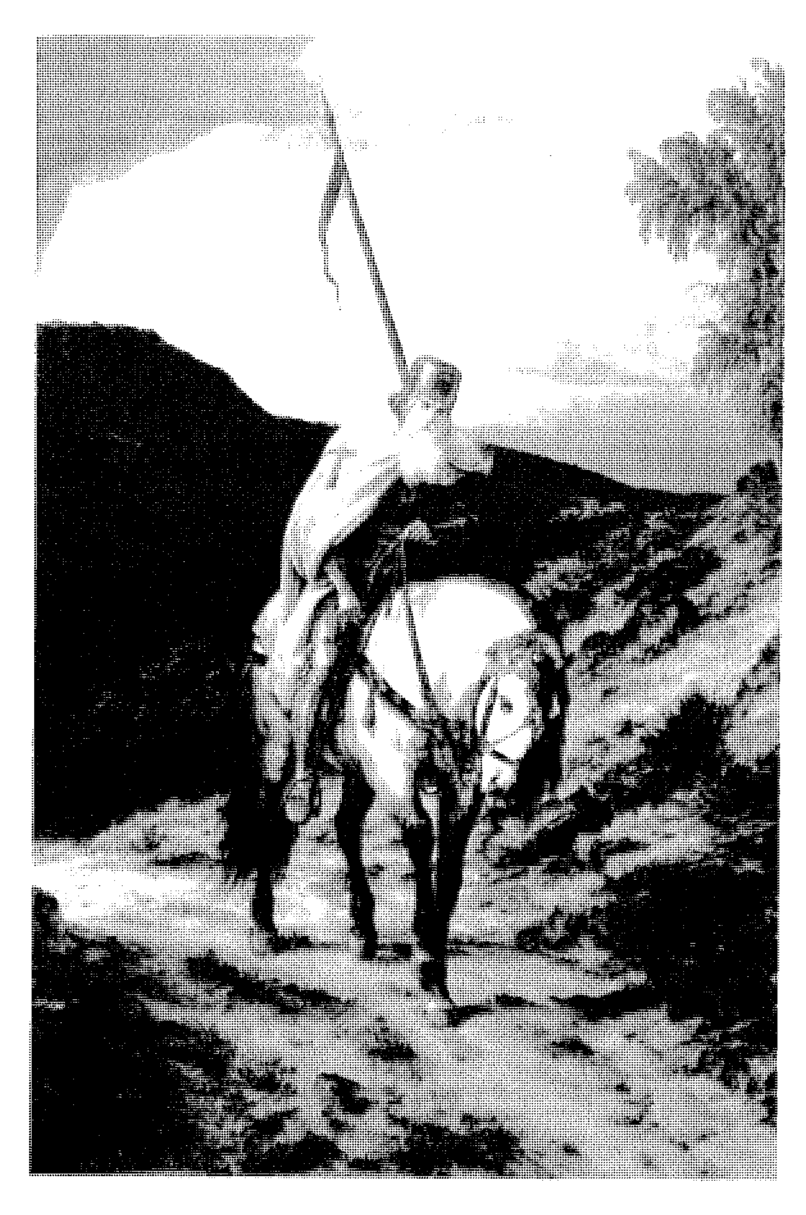
وفي أوائل صيف ١١٤٩م غادر فلسطين إلى فرنسة على سفينة صقلية.

تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ٣/ ٣٢٠

تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٤٥١

ولاة دمشق في العهد السلجوقي للمنجّد ١٠، ١١

أبواب دمشق للشهابي ٣٥٣



(عودة الصليبي)

لوحة زيتية من القرن التاسع عشر للميلاد لكارل فريدريك ليسّينغ محفوظة في متحف Rheinisches Landesmuseum في مدينة بون بألمانيا.

عن كتاب: The Crusades and the Holy Land

نصوص عن حصار دمشق
سنة (543 هـ / 1148م)
مستخرجة من بعض أهم
المصادر العربية والإسلامية

نصّ ابن القَلانِسي

(المتوفى ٥٥٥ هـ)

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وأولها يوم الجمعة الحادي والعشرين من أيار، والشمس في الجوزاء، وفي أوائلها تواترت الأخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الأفرنج، المقدم ذكرهم إلى ساحل البحر، وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من كان بها من الأفرنج، ويقال أنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع تقدير مائة ألف عنان، قصدوا بيت المقدس، وقضوا مفروض حجّهم، وعاد بعد ذلك من عاد إلى بلادهم، في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي ألمان أكبر ملوكهم، ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، والأعمال الشامية، إلى أن استقرّ الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق، وحدّثتهم نفوسهم الخبيثة بملكتها، وتبايعوا ضياعها وجهاتها، وتواصلت الأخبار بذلك، وشرع متولي أمرها الأمير معين الدين أنُر في التأهب والاستعداد لحربهم، ودفع شرّهم، وتحصين ما يُخشى من الجهات، وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ، وقطع مجاري المياه إلى منازلهم، وطمّ الآبار، وعفي المناهل، وصرفوا أعنّتهم إلى ناحية دمشق في حشدهم وحدهم وحديدهم، في الخلق الكثيرعلى ما يقال، تقدير الخمسين ألف من الخيل والرجل، ومعهم من السواد والجمال و الأبقار ما

كثروا به العدد الكثير، ودنوا من البلد، وقصدوا المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء معدوماً فيه، مقطوعاً عنه، فقصدوا ناحية المزّة، فخيّموا عليها لقربها من الماء، وزحفوا إليه بخيلهم ورجلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين، ونشبت الحرب بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك الفتاك، وأحداث البلد والمطوعة والغزاة الجمّ الغفير، واشتجر القتل بينهم، واستظهر الكفّار على المسلمين بكثرة الأعداد والعُدد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيّموا فيها، وقربوا من البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكّن أحد من العساكر قديماً ولا حديثاً منه، واستشهد في هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه اللّه، قريب الربوة على الماء، لوقوفه في وجوههم، وترك الرجوع عنهم، اتباعاً لأوامر اللّه تعالى في كتابه الكريم، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه اللّه جرى أمره هذا المجرى.

وشرعوا في قطع الأشجار والتحصين بها، وهدم العطاير[١٧] وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والروع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب، وحرجت معه الصدور، وباكروا إليهم في غد ذلك اليوم، وهو يوم الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لا يني في ذيادتهم ولا ينثني عن جهادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم، وخيل الكفّار

محجمة عن الحملة المعروفة لهم، إلى أن تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم إلى مكانه، وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف، بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجالة الأطراف تتتابع، وباكرهم المسلمون، وقد قويت نفوسهم، وزال روعهم، وثبتوا بإزائهم، وأطلقوا فيهم السهام، ونبل الجَرْح [١٨] بحيث تنتع[١٩] في مخيّمهم في راجل أو فارس، أو فرس، أو جمل.

ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها، رجالة كثيرة من الرماة، فزادت بهم العِدّة، وتضاعفت العُدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقرّه هذا اليوم، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء كالبُزاة[٢٠] إلى يعاقيب الجبل [٢١] والشواهين[٢٢] إلى مطار الحَجَل [٢٣]، وأحاطوا بهم في مخيّمهم، وحول مجثمهم، وقد تحصّنوا بأشجار الزيتون، وأفسدوها رشقاً بالنشّاب، وحذفاً بالأحجار، وقد أحجموا عن البروز، وخافوا وفشلوا، ولم يظهر منهم أحد، وظن بهم أنهم يعملون مكيدة، ويدبّرون حيلة، ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة[٢٤] والمناوشة خوفاً من المهاجنة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً، أو يجدون الغرّة احتيالاً، وليس يدنوا منهم أحد إلا صُرِع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع، وجعلوا يرصدونهم في المسالك وقد أينوا[٢٥] فيقتلون من ظفروا به، ويحضرون

رؤوسهم لطلب الجوائز عنها، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير.

وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية، بالخفوف إلى جهادهم، والمسارعة إلى استئصالهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم، فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها، والهوة التي ألقوا بنفوسهم إليها، غير الرحيل سحر يوم الأربعاء التالي مجفلين، والهرب مخذولين مفلولين، وحين عرف المسلمون ذلك وبانت لهم آثارهم في الرحيل، برزوا لهم في بكرة هذا اليوم، وسارعوا نحوهم في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووُجد في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم، وفاخر خيولهم ما لا عدد له ولا حصر يلحقه، بحيث لها أرائح من جيفهم، تكاد تصرع الطيور في الجو، وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبّة الممدودة في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها اللّه عليهم، وأكثروا من الشكر له تعالى ما أولاهم من إجابة دعائهم، الذي واصلوه في أيام هذه الشدّة، فللّه على ذلك الحمد والشكر.

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (حوادث سنة ٥٤٣ هـ)

تاريخ دمشق لابن القلانسي، تحقيق د. زكّار ٤٦٢

* * * * *

نصّ الأمير أسامة بن مُنْقِذ

(المتوفى ٥٨٤ هـ)

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يقاتلون للجنّة لا لرغبة ولا لسمعة.

ومن ذلك أن ملك الألمان [كونراد الثالث] الإفرنجي، لعنه الله، لما وصل الشأم اجتمع إليه كل من بالشأم من الافرنج، وقصد دمشق، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفِندلاويّ المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين، فلمّا قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن «أما هؤلاء الروم؟» قال «بلى» قال «فإلى متى نحن وقوف؟» قال «سر على اسم الله تعالى» فتقدّما فقاتلا حتى قُتلا، رحمهما الله، في مكان واحد.

كتاب الاعتبار لابن منقذ ٩٤

*****

نصّ ابن الأثِيْر

(المتوفى ٦٣٠ هـ)

في هذه السنة [٥٤٣ هـ] سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازماً على قصد بلاد الإسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوفر أمواله وعدده. فلما وصل إلى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا أمره ونهيه، فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين آبق بن محمّد بن بوري بن طغدكين [كذا في الأصل] وليس له من الأمر شيء وإنما الحكم في البلد لمعين الدين أنر مملوك جده طغدكين، وهو الذي أقام مجير الدين، وكان معين الدين عاقلاً عادلاً خيّراً حسن السيرة، فجمع العساكر وحفظ البلد. وأقام الفرنج يحاصروهم ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول بفارسهم وراجلهم فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس [كذا في الأصل] الفندلاوي المغربي، وكان شيخاً كبيراً فقيهاً صالحاً فلمّا رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلّم عليه وقال له يا شيخ أنت معذور لكبر سنّك ونحن نقوم بالذبّ عن المسلمين وسأله أن يعود فلم يفعل، وقال له قد بعت واشترى مني، فوالله لا أقلته ولا استقلته، يعني قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة﴾، وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قُتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن

دمشق. وقوى الفرنج وضعف المسلمون فتقدّم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر فأيقن الناس بأنه يملك البلد، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي يدعوه إلى نصرة المسلمين وكفّ العدو عنهم، فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب، فنزلوا بمدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزموا دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا به، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه. فأرسل إلى الفرنج يتهدّدهم إن لم يرحلوا عن البلد. فكف الفرنج عن القتال خوفاً من كثرة الجراح، وربما اضطروا إلى قتال سيف الدين فأبقوا على نفوسهم فقوي أهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب. وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء يقول لهم إن ملك المشرق [يقصد سيف الدين غازي] قد حضر فإن رحلتم وإلا سلّمت البلد إليه وحينئذ تندمون، وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية، وأمّا أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلّمته إلى سيف الدين وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام. فأجابوه إلى التخلّي عن ملك الألمان، وبذل لهم تسلّم حصن بانياس إليهم، واجتمع الساحلية بملك الألمان وخوّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد إليه، وإنه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته، ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد، وتسلّموا قلعة بانياس، وعاد الفرنج الألمانية إلى بلادهم وهي بزوراء القسطنطينية وكفى الله

المؤمنين شرّهم. وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق أن بعض العلماء حكى له أنه رأى الفندلاوي في المنام فقال له ما فعل اللّه بك وأين أنت فقال غفر لي وأنا في جنّات عدن على سرر متقابلين.

الكامل في التاريخ لابن الأثير، حوادث سنة (٥٤٣ هـ)
التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ٨٨

*****

نصّ سبْط ابن الجَوْزِي
(المَتوفى ٦٥٤ هـ)

. . . وفي ربيع الأول ٥٤٣ هـ[١١٤٨ م] نزلت الفرنج على دمشق، وخرج ملك الألمان من البحر في جيوش لا تُحصى، واجتمع عليه ملوك السواحل وكنودها، واجتمعوا في البيت المقدس، وصلّوا صلاة الموت، وعادو إلى عكّا وفرّقوا المال في العساكر، وكان مقدار ما فرّقوه تسعمائة ألف دينار، ولم يُظهروا أنهم يريدون دمشق، ووروا بغيرها وهرب المسلمون من بين أيديهم، وجمعوا الغلال والأتبان وأحرقوها، وكان صاحب دمشق مجير الدين بن محمّد بن بوري بن طُغتكين ومدبّر الأمور معين الدين أنر، فلمّا كان

يوم السبت سادس ربيع الأول، لم يشعر أهل دمشق إلا وملك الألمان قد ضرب خيمته على باب دمشق في الميدان الأخضر، واختلفوا في عددهم، فقال قوم في ستة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، ونزل الكنود والخيّالة على الشرف القبلي في مائة ألف راجل، واجتهد المسلمون في إحصائهم فلم يقدروا، وخرج إليهم معين الدين أُنر ومجير الدين آبق في مائة ألف راجل، سوى الفرسان، فقاتلوا في اليوم الأول قتالاً شديداً، فقُتل من المسلمين نحو من مائتين منهم الفندلاوي، وسنذكره في موضعه، وكان القتال يعمل ليلاً ونهاراً وضايقوا البلد، ونزلوا على أبوابه، وكان معين الدين أنر كاتَب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق يستصرخ به ويخبره بشدّة بأس الفرنج، ويقول أدركنا، فسار سيف الدين في عشرين ألف فارس، فنزل بحيرة حمص، وبعث إلى معين الدين يقول قد حضرت بجند عظيم، ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج، وكانت علينا الهزيمة، وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا أحد وأخذت الفرنج دمشق وغيرها، فإن أحببت أن أقاتلهم فيسلم البلد إلى من أثق به، وأن أحلف لك إن كانت النصرة لنا عليهم أنني لا أدخل إلى دمشق، وأرجع إلى بلادي فمطله معين الدين أنر وبعث إلى السواحلة يقول: هذا ملك الشرق نازل على حمص، وليس لكم به طاقة، فإن رحلتم وإلا أسلمت دمشق إليه، وهو يبيدكم، وأنا أعطيكم بانياس، فأجابوه، وحسّنوا للغرباء بالرحيل فأفهموهم، وكان زمان الفواكه فنزل الفرنج الوادي فأكلوا منها شيئاً كثيراً فأخلت أجوافهم، ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون، ولمّا ضاق بأهل دمشق الحال وأخرجوا الصدقات

والأموال على قدر أحوالهم، واجتمع الناس في الجامع الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف عثمان، وحثّوا الرماد على رؤوسهم، وبكوا وتضرّعوا، فاستجاب اللّه لهم. . . . واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام، وحملوا حملة رجل واحد، وكان يوماً لم يُر في الجاهلية والإسلام مثله. . . . فانهزم الفرنج، وقتلوا منهم عشرة آلاف . . . . وتبعوهم إلى الخيام، وحال بينهم الليل، فأصبحوا وقد رحلوا، ولم يبق لهم أثر.

النصّ من كتاب: الحروب الصليبية ٢/ ٧٧٧ للدكتور زكّار
ونقلناه بإذن خاصّ منه فله كل الشكر.

* * * * *

نصّ أبي شَامَة المقدسي

(المتوفى ٦٦٥ هـ)

فصل في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة: وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا

واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنهم بعدما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير ثمانمائة ألف وقصدوا البيت المقدّس وقضوا حجّهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرّت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعدّ لحربهم، فجاؤوا في تقدير خمسين ألفاً ودنوا من البلاد، ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعاً، فقصدوا ناحية المزّة، فخيّموا عليها لقربهم من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورجلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأول، ونشبت الحرب بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال والأجناد والأتراك والقتال وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفّار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيّموا فيها وقربوا من البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكّن أحد من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم وقال بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحول الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١/ ٥٢

عيون الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة١/ ٢٠٦

نصّ أبي الفداء مؤيد الدين إسماعيل

(المتوفى ٧٣٢ هـ)

في هذه السنة سار ملك الألمان والألمان بلادهم وراء القسطنطينية حتى وصل إلى الشام في جمع عظيم ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين آبق بن محمّد بن توري [بوري] بن طغتكين والحكم وتدبير المملكة إنما هو لمعين الدين اتز [أنر] مملوك جدّه طغتكين * وفي سادس ربيع الأول زحفوا على مدينة دمشق ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر وأرسل اتز إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فسار بعسكره من الموصل إلى الشام وسار معه أخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ففتّ ذلك في اعضاد الفرنج وأرسل اتز إلى فرنج الشام يبذل لهم تسليم قلعة بانياس فتخلوا عن ملك الألمان وأشاروا عليه بالرحيل وخوفوه من امداد المسلمين فرحل عن دمشق وعاد إلى بلاده وسلّم أنز قلعة بانياس إلى الفرنج حسبما شرطه لهم .

المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء، حوادث ٥٤٣ هـ

نصّ اليافعي

(المتوفى ٧٦٨ هـ)

سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة: في ربيع الأول منها نازل الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستّين ألف راجل فخرج المسلمون من دمشق وكانوا مائة وثلاثين ألف راجل وعسكر البلد فاستشهد نحو مائتين، ثم برزوا في اليوم الثاني فاستشهد جماعة وقتل منِ الفرنج عدد كثير، فلمّا كان في اليوم الخامس وصل غازي وأخوه نور الدين في عشرين ألفاً إلى حماه [الصواب حمص] وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرّع إلى اللّه تعالى وأخرجوا المصحف العثماني [مصحف عثمان] إلى صحن الجامع وضجّ النساء والأطفال مكشفين الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى اللّه عزّ وجلّ فأغاثهم، وركب قسيس الفرنج وفي عنقه صليب وفي يديه صليب وقال: أنا قد وعدني المسيح أن آخذ دمشق. فاجتمعوا حوله وحمل على البلد فحمل عليه المسلمون فقتلوه لعنه اللّه تعالى وقتلوا حماره وأحرقوا الصلبان، ووصلت النجدة فانهزمت الفرنج وأصيب منهم خلق كثير.

وفيها توفي أبو الحجّاج الفندلاوي يوسف بن دوناس المغربي المالكي كان عالماً صالحاً حلو المجالسة شديد التعصّب للاشعرية صاحب حط على الحنابلة، قتل في سبيل اللّه في حصار الفرنج بدمشق مقبلاً غير مدبر بالنيروز [لا وجود لمثل هذا المكان في دمشق] وقبره يزار في مقبرة الباب الصغير.

مرآة الجِنان لليافعي ٣/ ٢٧٧

نصّ ابن كثير

(المتوفى ٧٧٤ هـ)

ثم دخلت سنة ثلاث وأاربعين وخمسمائة وفيها حاصرت الفرنج وهم في سبعين ألف مقاتل، ومعهم ملك الألمان في خلق لا يعلمهم إلا اللّه عزّوجل، دمشق وعليها مجير الدين أرتق وأتابكه معين الدين، وهو مدبّر المملكة، وذلك يوم السبت سادس ربيع الأول، فخرج إليهم أهلها في مائة ألف وثلاثين ألفاً، فاقتتلوا معهم قتالاً شديداً، قتل من المسلمين في أول يوم نحو من مائتي رجل، ومن الفرنج خلق كثير لا يحصون، واستمر الحرب مدّة، وأخرج مصحف عثمان إلى وسط صحن الجامع، واجتمع الناس حوله يدعون اللّه عز وجل، والنساء والأطفال مكشفي الرؤوس يدعون ويتباكون، والرماد مفروش في البلد، فاستغاث أرتق بنور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل، فقصداه سريعاً في نحو من سبعين ألفاً بمن انضاف إليهم من الملوك وغيرهم، فلمّا سمع الفرنج بقدوم الجيش تحولّوا عن البلد، فلحقهم الجيش فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجمّاً غفيراً، وقتلوا قسّيساً معهم اسمه إلياس، وهو الذي أغراهم بدمشق، وذلك أنه افترى مناماً عن المسيح أنه وعده فتح دمشق. . . وقد كادوا يأخذون البلد. . . .

البداية والنهاية لابن كثير، حوادث ٥٤٣ هـ

نصّ ابن خلدون

(المتوفى ٨٠٨ هـ)

كان الافرنج منذ ملكوا سواحل الشام ومدنه تسير إليهم أمم الإفرنج من كل ناحية من بلادهم مدداً لهم على المسلمين لما يرونه من تفرّد هؤلاء بالشام بين عدوّهم، وسار في سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة] ملك الألمان من أمراء الإفرنج من بلاده في جموع عظيمة قاصدا بلاد الإسلام لا يشكّ في الغلب والاستيلاء لكثره عساكره وتوفّر عدده وأمواله فلمّا وصل الشام اجتمع عليه عساكر الافرنج الذين له ممتثلين أمرن فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق، فساروا لذلك سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة] وحاصروها، فقام معين الدين أنر في مدافعتهم المقام المحمود، ثم قاتلهم الافرنج سادس ربيع الأول من السنة فنالوا من المسلمين بعد الشدّة والمصابرة، واستشهد ذلك اليوم الفقيه حجّة الدين يوسف العندلاوي [صوابها الفندلاوي] المغربي وكان عالماً زاهداً، وسأله معين الدين يومئذ في الرجوع لضعفه وسنّه، فقال له: قد بِعْتُ واشترى مني فلا أقيل ولا أستقيل، يشير إلى آية الجهاد. وتقدّم حتى استشهد عند أسرت [لم يذكر أحد من المؤرّخين هذه التسمية ولا وجود لمحلّة بهذا الاسم. والصواب عند النيرب] على نصف فرسخ من دمشق، واستشهد معه خلق، وقوي الإفرنج ونزل ملك الألمان الميدان الأخضر. وكان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة إحدى وأربعين وولي ابنه سيف الدين غازي الموصل وابنه نور الدين محمود حلب، فبعث معين

الدين أنر إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فجاء لانجاده ومعه أخوه نور الدين وانتهوا إلى مدينة حمص، وبعث إلى الافرنج يتهدّدهم فاضطرّوا إلى قتاله، وانقسمت مؤنتهم بين الفريقين، وأرسل معين الدين إلى الألمان يتهدّدهم بتسليم البلد إلى ملك الشرق يعني صاحب الموصل، وأرسل إلى فرنج الشام يحذّرهم من استيلاء ملك الألمان على دمشق، فإنه لا يبقى لكم معه مقام في الشام، ووعدهم بحصن قاشاش [الصواب قلعة بانياس]، فاجتمعوا إلى ملك الألمان وخوّفوه من صاحب الموصل أن يملك دمشق، فرحل عن البلد، وأعطاهم معين الدين قلعة قاشاش [خطأ مكرّر صوابه قلعة بانياس]، وعاد ملك الألمان إلى بلاده على البحر المحيط في أقصى الشمال والمغرب، ثم توفي معين الدين أنر مدبّر دولة أرتق والمتغلّب عليه سنة أربع وأربعين [وخمسمائة] لسنة من حصار ملك الألمان والله أعلم.

تاريخ ابن خلدون ٥/ ١٨٤

نصّ سيِّد علي الحَرِيري

(المتوفي بعد ١٣١٧ هـ)

سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م: حاصر الصليبيون مدينة دمشق وفيها صاحبها مجير الدين آبق بن محمّد بن بوري بن طغتكين وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طغتكين وهو معين الدين أنر، فهو كان الحاكم والمدبّر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً ديّناً خيّراً حسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد.

وحاصرهم الصليبيون، فزحفوا إليهم سادس ربيع أول فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم، وكان في من خرج الشيخ حجّة الدين أبو الحجّاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ السادة المالكيّة بدمشق، وكان شيخاً زاهداً عابداً خرج راجلاً فرآه معين الدين، فقصده وسلّم عليه وقال له: يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال، فقال قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قول الله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنّة﴾ وتقدّم، وخرج معه أيضاً الشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول، فقاتلا حتى قتلا رحمهما الله.

وقوي أمر الصليبيين وتقدّموا وضعف أهل البلد عن ردّهم، وتقدّم الملك كونراد فنزل بالميدان الأخضر فأيقن الناس بأنه يملك البلد. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي يستغيث به ويستنجده، فجمع

عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي، فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الافرنج، فإن انهزمتُ دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا به، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه.

فأرسل معين الدين إلى الصليبيين يهددهم إن لم يرحلوا عن البلد. وكان قد حصل بينهم انقسام لأنهم ظنّوا امتلاك المدينة فتشاحنوا على من يكون ملكها، فلمّا سمعوا بمجيء سيف الدين ضعف قلبهم. وأرسل إليهم معين الدين يهدّدهم ويقول لهم إن ملك المشرق [يقصد سيف الدين] قد حضر فإن رحلتم وإلا سلّمت البلد إليه وحينئذ تندمون، وأرسل أيضاً إلى إفرنج الشام يقول لهم بأي عقل تساعدون هؤلاء الصليبيين الغرباء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية، وأمّا أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلّمته إلى سيف الدين وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام.

فأجابوه إلى التخلّي عن الصليبيين وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم. فاجتمع الملك بودوين وأرباب مملكته بالملك كونراد والملك لويس وخوّفوهم من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد إليه، وأنه ربما أخذ دمشق ونضعف عن مقاومته.

فباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم وتبينوا بإزائهم وأطلقوا فيهم السهام. وفي الغد أحاطوا بهم في مخيّمهم وقد تحصنّوا بأشجار البساتين، فأحجم الإفرنج عن البروز وخافوا

وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ المسلمون أنهم يدبّرون مكيدة أو حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجال على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً وليس يدنوا منهم أحد إلا صُرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجّالة الأحداث وجعلوا يقصدونهم في المسالك فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها. فرحلوا في سحر يوم الأربعاء عشر ربيع الأول، فبعد رحيلهم عن دمشق أشار بعض المقدّمين بحصار مدينة عسقلان، ولكن جميع الصليبيين ضعفت قلوبهم وذهبت شجاعتهم، ولذلك رفضوا هذه الشورة وعاد كل منهم إلى بلاده.

الحروب الصليبية للحريري ٨٥

نصوص عن حصار دمشق
سنة (543 هـ / 1148م)
مستخرجة من بعض أهمّ
المصادر الأجنبية

نصّ ولْيَم الصُوْرِي

(المتوفى ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م)

(١)

من الكتاب السابع عشر

عقد مؤتمر عام في عكّا الواقـعة قرب الساحل [الصواب أن عكّا مدينة ساحلية]، وأسماء من حضر هذا الاجتماع:

من الأمور المفيدة والجديرة بالإشارة إليها، وتتوافق وموضوع هذا التاريخ، أن ندوّن هنا للأجيال القادمة أسماء النبلاء الذين حضروا الاجتماع المشار إليه، وفيهم رجال جاؤوا من بلاد ذات قدر هام، وعلى رأسهم كونراد [كونراد الثالث Conrad III] ملك الألمان وإمبراطور الرومان، وبصحبته من كبار الأساقفة في بلاطه: أخوه (أوتو Otto) أسقف «فرايزنغ» وكان من رجال الفكر والكتابة، و(ستيفن Stephen) أسقف «ميتز Metz»، و(هنري Henri) أسقف «تول Toul» وهو شقيق تيري كونت الفلاندرز، و(ثيوفين) أسقف «بورتو» التيوتوني [الألماني] المولد، إضافة إلى النائب البابوي الذي رافق الحملة الامبراطورية بتكليف من البابا (يوجين).

*****

أمّـا الأمـراء العلمـانيـون فكـان منهـم (هنري Henri) دوق النمسـا شقيق الامبراطـور، والدوق (غيولـف) أحـد النبـلاء البارزيـن الأقويـاء، والأميـر (فريدريك Frederick) دوق «سوابياوباڤاريا Swabia & Bavaria» العظيم وهو ابن أخي الامبـراطور كـونراد، وكـان شـاباً سـوي الخلق، تولى الحكـم بعـد عـمّه كـونراد، وهـو اليـوم الرجـل الذي يحكـم الامـبـراطورية الرومانية حكماً نشيطاً فعّالاً.

* * * * *

كذلك كـان هنـاك (هيرمـان Herman) ماركـيز «ڤيـرونـا Verona»، و(برتولـد Bartold) من إقليـم «أندش» وهو الذي صار فيما بعد دوق «باڤاريا Bavaria»، وأيضـاً نسـيب الأمـيـر واسـمـه (وليم William) مـاركـيـز «مـونتـفرات»، و(گـاي Guy) كـونت «بلاندارس» الذي كـانت زوجتـه أخت الماركـيز المشار إليه، وكان هذان النبيلان الأخيران من كبار الأمراء البارزين في إقليم «لومبارديا Lombardy»، كـما كان من بين الحضور رجال عظام من أصحاب المراتب الرفيعة، ممن غابت عن ذاكرتنا أسماؤهم وألقابهم.

* * * * *

كـمـا شـارك في الاجـتـمـاع (لويس السـابع Louis VII) أتقى ملوك الفرنجـة، وصـاحب الذكـرى المجيدة، وبصحبتـه (جـودفري Godfrey)

أسقف «لانجرز»، و(أرنولف) سيّد «ليزييه»، و(گاي Guy) سيد «فلورنسا Florence»، وكردينال كاهن لكنيسة روما المسمّاة كنيسة القديس كريسوغونوس، والقاصد الرسولي، و(روبرت Robert) كونت «پرشي Perche» شقيق الملك، و(هنري Henri) كونت «ترويس» ابن الكونت ثيوبولد الأكبر وزوج ابنة الملك وكان شاباً دمث الأخلاق.

وكان مع الملك (ثيري Thierry) الكونت الكبير لبلاد «الفلاندرز Flanders» نسيب ملك القدس، و(إيڤس Ives) من «سواسون Soissons» الذي كان رجلاً عاقلاً ومخلصاً، وكان هناك عدد آخر من النبلاء الكبار وجميعهم جدير بالذكر، ولكن لمّا كان ذكرهم يتطلّب حيّزاً كبيراً فقد اضطررت لاغفال أسمائهم.

*****

وشارك من أهل بلادنا، (بلدوين الثالث Baldwin III) ملك بيت المقدس، وكان شاباً يبشّر حاضره بمستقبل زاهر، كما حضرت أمّه (ميليسند Melisende) وهي امرأة عفيفة جريئة القلب، لا تقلّ بذكائها عن أي أمير من الحاضرين، وبصحبتها كان (فولشر) بطريرك بيت المقدس، و(بلدوين Baldwin) أسقف «قيسارية Caesarea»، و(روبرت Robert) رئيس أساقفة «الناصرةNazareth»، و(رورجو) أسقف «عكّا Acre»، و(برنارد Bernard) أسقف «صيدا Sidon, Sagitta»، و(وليم William) أسقف «بيروت Beirut, Beyrouth»، و(آدم Adam) أسقف

بانياس Baniyas [المقصود بها بانياس الداخل بالجولان]، و(جيرالد Gerald) أسقف «بيت لحم Bethlehem»، و(روبرت Robert) مقدّم فرسان الداويّة [فرسان الهيكل أو المعبد Templars]، و(ريموند Raymond) مقدّم فرسان الاسبتارية [Hospitaler أو Hospitaller].

* * * * *

وكان من بين النبلاء العلمانيين (مناسيس) المراقب الملكي العام، و(فيليپ) أمير «نابلس Nablus, Naplouse»، و(إيلينانندوس) صاحب «طبرية Tiberias»، و(جيرارد Gerard) صاحب «صيدا Sidon, Sagitta»، و(ولتر Walter) صاحب «قيسارية Caesarea»، و(بينز Benz) صاحب المناطق الواقعة دون الأردن [كذا في الأصل ؟]، و(بالين) الكبير، و(همفري Humphrey) صاحب «تورون»، و(گاي Guy) صاحب «بيروت Beirut, Beyrouth»، وكثيرون غيرهم ممن لو ذكرتهم واحداً واحداً لاحتاج ذلك لصفحات طويلة.

* * * * *

ولقد اجتمع كل هؤلاء الرجال العظام في مدينة عكّا كما ذكرنا ليقرّروا قبل كل شيء أنسب وقت وأحسن مكان ليوسّعوا بمشيئة الربّ رقعة مملكتهم، ويضيفوا مجداً إلى المجد المسيحي.

* * * * *

(٢)

المجتمعون يقرّرون فرض الحصار على مدينة دمشق ويزحفون عليها حسب اتفاقهم:

بُحِثت القضيّة بحثاً وافراً ومُحِّصت تمحيصاً كثيراً قبل اتخاذ القرار، واختلفت الآراء تبعاً لاختلاف الجماعات، وتضاربت الحجج ما بين مؤيّد ومعارض كما هو المألوف في مثل هذه المواضيع، وأخيراً استقرّ الرأي على أن أفضل ما يفعلونه في مثل هذه الظروف هو حصار مدينة دمشق التي كانت تمثّل خطراً كبيراً يتهدّدنا، ولمّا تم الاتفاق على هذا القرار، نادى المنادي بأن يكون كل أمير على أهبّة الاستعداد لقيادة عساكره في اليوم المحدّد للزحف إلى الناحية المعيّنة، لذلك احتشدت جميع قوى المملكة الحربية من المشاة والفرسان والأهالي والحجّاج على حدّ سواء، كما جاء العاهلان العظيمان اللذان يحبّهما الربّ [يقصد كونراد الثالث ولويس السابع] وكانت معهما قواتهما، حتى إذا كان اليوم الخمس من أيّار ١١٤٨ من مولد المسيح، تقدّمت الجيوش المتحالفة على الصورة المتّفق عليها رافعة أمامها صليب الحياة، وتقدّمت إلى مدينة طبريّة، ومن هناك سلك الجيش بأجمعه أقصر الطرق الواقعة على امتداد بحر الجليل، والمؤدية إلى «بانياس» التي هي قيسارية فيليپ [وهو اسمها في العهد الروماني]، وهنا تباحث القادة مع رهط من الناس العالمين ببواطن الأمور في دمشق وأحوالها وما يجاورها من مناطق، وبعد تبادل الرأي والتشاور مع زعمائهم قرّروا أن أحسن السبل لمضايقة دمشق هي البدء بالاستيلاء على البساتين المحيطة بالجزء الأكبر من

المدينة، وهي البساتين التي يعزى إليها القسط الأكبر من حمايتها، وسيكون من السهل الاستيلاء على المدينة بعد الاستيلاء على هذه البساتين.

* * * * *

ولتنفيذ هذه الخطة تابعوا زحفهم، فاجتازوا جبل لبنان [سلسلة لبنان الشرقية] بين قيسارية فيليپ ودمشق، وانحدرا منه إلى السهل الموجود عند قرية «داريّا» التي تبعد عن المدينة أربعة أميال أو خمسة، وكان من اليسير عليهم وهم في هذه البقعة رؤية مدينة دمشق والوادي المحيط بها.

* * * * *

(٣)

وصف موقع دمشق:

تعتبر دمشق أكبر مدن الشام الصغرى المسماة أيضاً لبنان فينيقية، كماأنها مركز تلك المنطقة، لأننا نقرأ في أشعيا [الكتاب المقدّس] أن دمشق «رأس آرام» أي الشام، واشتقّ اسمها من اسم مؤسّسها الشهير أحد خدم إبراهيم ومعناه المدينة الدمويّة أو المدينة المليئة بالدمّ [وهذا وهم. أنظر كتابنا: معالم دمشق التاريخية]، وهي واقعة في سهل جافّ مجدب، إلا ما كان يسقى منه بواسطة قنوات تجلب إليه الماء من أعلاه، كما أن هناك نهراً ينحدر من جرف جبل مجاور في الجزء الأعلى من تلك الناحية، فتتدفّق

مـيـاهه في القنوات التي تخـتـرق السـهل ثـم تنسـاب فـيـمـا تحت ذلك من الأراضي، فإذا بهذه الأراضي الجدباء تخصب وتخضر.

* * * * *

وإذا كـانت المياه هنا شـديدة الوفرة فإن النهر يروي أيضاً ما يقع على جانبيه من بسـاتين الفـاكـهـة، ثـم يستـمـرّ في جريانه مـجـاوزاً سـور المـدينة الشرقي.

* * * * *

ولـمّا كانت «داريّا» شديدة القرب من دمشق فقد عبّأ القادة عساكرهم عندها استعداداً للقتال، وعيّنوا لكل فرْقة مهامها وأهدافها، لأنهم لو زحفوا بلا خطة مرسومة فلا بد أن تشبّ المنازعات بينهم وقد يؤدي الأمر إلى إعاقة تنفيذ المهام الموكلة إليهم.

* * * * *

ولـمّا كان الأمراء يدركون أن أعرفهم بالمنطقة هو ملك بيت المقدس [بلدوين الثالث]، فقد أجمعوا على أن يقدّموه عليهم ويجعلوه أمامهم في الزحف بمن معه من الجند ليفتح الطريق في وجه الكتائب التي تتلوه.

* * * * *

أمّا ملك الفرنجة [لويس السابع Louis VII] فقد كان التالي له، وكان مكانه القلب [قلب الهجوم] كي يعين الذين أمامه إذا ما دعت الحاجة إلى مثل هذه المعونة.

* * * * *

واتّفقوا على أن يكون الامبراطور «كونراد» على رأس الفريق الثالث أعني المؤخّرة، استعداداً لصدّ العدو إن هاجم العسكر من الخلف أو على غير توقّع منهم. وبذلك تكون القوّات الأمامية في مأمن من هجوم مفاجىء يأتيهم من الخلف.

* * * * *

فلمّا تمّ تنظيم الجيوش الثلاثة على هذا النحو، تقدم عسكرهم وحاول الاقتراب من المدينة ما أمكنه.

* * * * *

وكانت البساتين تمتدّ إلى الغرب عند الناحية التي كان جيشنا آخذ في الاقتراب منها، وكذلك [تمتدّ] إلى الشمال مسافة خمسة أميال أو أكثر باتجاه لبنان، وهي أشبه ما تكون بغابة تكتنف المدينة من كلّ جوانبها، كما أن هذه الأحراج كانت محاطة بأسوار [تسمى دُكُوك] من الطين لتبيان حدود كل

بستان، ولصدّ من تسوّله نفسه باقتحامها والاعتداء عليها.

* * * * *

وأمّا استعمالهم للطين فراجع إلى ندرة الصخور والحجارة في تلك الناحية، وكانت هذا الأسوار تجعل كل صاحب بستان عارفاً لبستانه، وجعلوا بين بعضها والبعض الآخر ممرّات وطرقاً عامّة شديدة الضيق، لاتتّسع إلا بالقدر الذي يسمح للمزارعين والحرّاس بالسير عبرها، مستصحبين الدواب المحمّلة بالفاكهة إلى المدينة.

* * * * *

وتعمل هذه البساتين على حماية المدينة حماية عظيمة، ذلك أن العدد الضخم من الأشجار المزروعة إلى جانب بعضها البعض كانت تجعل من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - على المرء الاقتراب من دمشق من ذلك الجانب، ولكن على الرغم من هذه الصعوبة فقد صمّم قادتنا منذ البداية على السير بالجيش عبر هذه الأحراج ليصلوا إلى المدينة، وكان يحملهم على ذلك أمران، أولهما هو أن ضياع معظم الأماكن الحصينة من أيدي الدماشقة (وهي الأماكن التي يبنون عليها الآمال الجسام) سوف ييسّر على الصليبيين التغلّب على كل ما سواها. وأمّا ثانيهما فنابع من رغبة قادتنا في توفير الفاكهة والماء للعسكر.

* * * * *

لذلك كان ملك بيت المقدس أول من قاد العسكر عبر هذه الدروب الضيّقة في الأحراج رغم ما صادفه الجيش من صعوبة بالغة في التقدّم، إذ كانت هذه المسالك الضيّقة تعطّل سيره فيها، كما كانت تزعجه أحياناً أخرى مكائد الأعداء الكامنين في الأيكات، مما يحمله رغم أنفه على الاشتباك معهم في القتال حين يجدهم قد سدّوا المسالك في وجهه واستولوا على الدروب الملتوية، هذا إلى جانب تربّص أهل البلد له في الشعاب في محاولة منهم لقطع الطريق عليه بشنّ الهجمات خفية وعلناً.

* * * * *

أضف إلى ذلك أنه كانت ترتفع في هذه البساتين ذاتها المباني الشاهقة التي يقوم على حراستها ويتولّى الدفاع عنها رجال تلاصقت أملاكهم بعضها ببعض، فتعاهدوا عهداً وثيقاً أن يبذلوا النفس والنفيس دفاعاً عنها.

* * * * *

واستفادوا من هذه النقاط فاستمرّوا يقذفون منها وابلاً لا ينقطع من السهام وغيرها، مما أدّى إلى حماية البساتين حماية صحيحة، ومنع أي واحد من الاقتراب منها بأي حال من الأحوال، كما أن السهام المنطلقة من بعيد جعلت هي الأخرى السير والتوغّل فيها شديدالخطورة على من يريد السير هناك، ولم تكن هذه الإجراءات القوية ضد تقدّمنا تأتي من جانب

واحد فقط أعني به تلك الحدائق [أي البساتين]، بل كانت هناك أخطار مماثلة تلحق بكل عابر لا يأخذ حذره، وأصبح الناس يترقّبون الموت يأتيهم من حيث لا يحتسبون، كما اختفى رجال على طول السور الداخلي وراحوا يطلّون - دون أن يراهم أحد - من الفجوات الصغيرة الموجودة بكثرة في الأسوار، فيطعنون المارّة بالرماح التي يحملونها في أيديهم، ويقال أنه هلك الكثيرون في هذا اليوم من جراء هذا الأمر شرّ هلاك، كما لحقت الأخطار المختلفة بمن حاول اجتياز هذه الطرق الضيّقة.

*****

(٤)

الصليبيون يشقّون طريقهم بين المزارع ويستولون بالقوّة على النهر رغم مجهودات العدو. وصف المعركة العظيمة التي خاضها الامبراطور فاستحقّ الاعجاب:

حين أدرك الصليبيون حقيقة الموقف ضاعفوا من ضغطهم حتى حطّموا المتاريس واستولوا على البساتين، وأخذوا كل من وجدوهم في المخابىء والبيوت أخذ عزيز مقتدر، فراح تلقوم ما بين أسير أخذوه، وقتيل أردوه بسيوفهم، فلمّا علم بذلك أهل البلد الذين جاؤوا للدفاع عن البساتين انكفئوا وجلين حتى لا يصيبهم نفس الضرّ، وهربوا زرافات إلى المدينة التي

تمكنت قواتنا من دخولها دون أي مقاومة بعد أن دارت الدائرة على الأعداء : هزيمة وقتلاً [أخطأ المترجم في أن قوات الفرنج تمكّنت من دخول المدينة ، وهي لم تدخلها أبداً ، وفي النص الفرنسي : دخلت قوّاتنا إلى داخل البساتين دونما معارضة] .

*****

وأدرك الجميع أن الصليبيين سوف يتقدّمون من البساتين لمحاصرة المدينة ، وحينئذ أسرعت قوّات دمشق من الفرسان ومن حلفائهم الذين جاؤوا لمساعدتهم وانطلقوا جميعاً ناحية النهر الذي يشقّ المدينة [المقصود به نهر بردى] ، طامعين في أن يتمكنوا بفضل سهامهم ومنجنيقاتهم أن يحولوا بين العسكر المنهوكين وبين بلوغ النهر ، ويمنعوهم من إطفاء ظمئهم من مياهه التي يتحرّقون لهفة عليها ، فلمّا سمع الصليبيون أن النهر قريب منهم غاية القرب أسرعوا شطره ليطفئوا ظمأهم ويرووا غلّتهم التي زاد من شدّتها ما تحمّلوه من المشاق المضنية ، وما أرهقتهم به سُحب التراب التي أثارتها سنابك الخيل وأقدام الرجال .

*****

كما حملهم منظر القوّات الكثيرة المتجمّعة على شاطىء النهر على أن يتوقّفوا قليلاً ، لكنهم سرعان ما جمعوا صفوفهم ، وزاد الموقف جرأة

وإقداماً فبذلوا كثيراً من المحاولات للسيطرة على النهر فلم تجدهم محاولاتهم هذه نفعاً.

* * * * *

وبينما كان الملك وفرسانه يجهدون أنفسهم من غير جدوى تعود عليهم، إذا بالامبراطور «كونراد» يتساءل - وهو على رأس الكتائب القادمة من ورائه - عمّا حمل الجيش على عدم التقدّم، فأعلموه بخبر استيلاء العدو على النهر، ومنعه عسكرنا من العبور، فاستشاط غضباً عند سماعه هذا النبأ، فانطلق بفرسانه ما أسعفتهم السرعة، حتى جاوزوا قوات الملك [لويس]، ووصل إلى المقاتلين الذين كانوا يبذلون جهدهم للاستيلاء على النهر، وحينئذ ترجّل الجميع عن جيادهم جرياً على عادة التيوتون [الألمان] إذا اشتدّت بهم الأزمة، وأصبحوا عسكر مشاة، ومدّوا دروعهم أمامهم، واشتبكوا مع العدو بالأيدي، وتلاحموا بالسيوف.

* * * * *

وصمد الدماشقة في بادىء الأمر صمود الأبطال، وحاربوا ببسالة، لكن سرعان ما تسرّب إليهم الوهن فلم يعودوا قادرين على تحمّل المقاومة، وتخلّوا عن النهر، ولاذوا بأذيال الفرار وهربوا سراعاً إلى المدينة.

* * * * *

وقيل بأن الامبراطور أظهر في هذا الاشتباك بطولات مجيدة، حتى ليقال أنه صرع بطريقة عجيبة جداً فارساً تركياً ظلّ يقاومه ببسالة عنيفة، لكن «كونراد» تمكّن من أن يضربه بسيفه ضربة فصلت رأسه ورقبته عن بقية جسده، وبقيت الكتف اليسرى وقد تدلّى منها الذراع وجزء من جنبه مما أفزع المواطنين الذين شاهدوا المنظر فهلعت له أفئدتهم وأفئدة من سمعوا النبأ من أفواه الآخرين، فيئس الناس يأساً مطلقاً من قدرتهم على المقاومة بل ومن الحياة ذاتها(٢٦).

* * * * *

(٥)

اليأس يدفع الدماشقة للتفكير في الفرار، فيقومون برشوة بعض القادة الصليبيين الذين يستجيب الجيش لتحريضهم فينتقل إلى الجانب الآخر من المدينة:

وهكذا سيطر الصليبيون على النهر وخلصت لهم ضفّتاه، وإذ ذاك انطلقوا فنصبوا خيامهم حول المدينة، وتمتّعوا بالنهر وبالأحراج التي استولوا عليها بالقوّة، واشتدّت الدهشة بأهل البلد لما شاهدوه من كثرة أعداد الصليبيين وعظيم شجاعتهم، وخامرهم الشكّ فيما إذا كانت قوّتهم كافية للصمود أمامهم، كذلك حملهم خوفهم من أن يباغتهم خصومهم بالهجوم عليهم على التشاور فيما بينهم، فاتّخذوا من الاجراءات ما يتّسم باليأس ،

فسدّوا جميع شوارع المدينة المؤدّية إلى معسكراتنا بجذوع أشجار شديدة الضخامة بالغة الطول، نظراً لأن أملهم الوحيد كان يتركّز في أن تسعفهم قوّتهم بالهرب في الاتّجاه المعاكس مع زوجاتهم وأولادهم في الوقت الذي يكون فيه الصليبيون منصرفين إلى إزالة هذه الحواجز.

*****

وبدا واضحاً للعيان أن المدينة لا بدّ ساقطة في أيدي الصليبيين، لكن الذي «فعله المرهب نحو بني آدم»[٢٧] تمّ عكس ما توقّعوه، إذ بينما كانت المدينة في أشدّ حالات الكرب والضيق، وقد ران اليأس على نفوس الناس، وأيقنوا أن قد عدموا القدرة على المغادرة، وبينما هم يستعدّون للخروج من المدينة بكلّ متاعهم أملاً منهم في النجاة بأنفسهم إذا بالربّ يعاقبنا على خطايانا، فقد أخذ الدماشقة في استغلال الطمع الذي كان مستحوذاً على نفوس بعض رجالنا فحاولوا السيطرة على قلوب من لا يطمعون في التغلّب عليهم بالقهر، ونجحت محاولاتهم الماكرة في أن يحملوا نفراً من أشرافنا [يقصد النبلاء] على رفع الحصار عن البلد بعد أن بذلوا لهم المال الكثير الذي جمعوه لهم حتى قاموا بدور «يهوذا» الخائن، فسمح هؤلاء الرجال لأنفسهم بالنزول إلى الدرك الأسفل من الجريمة بسبب ما جُبلوا عليه من الطمع الذي هو رأس كل الشرور، ومن جرّاء الرشوة التي أفسدت ضمائرهم والأماني الكاذبة التي طمعوا في تحقيقها.

*****

لذلك فإن عروضهم الدنيئة [يقصد كبار الصليبيين المرتشين] حملت الملك والامراء والحجّاج (الذين كانوا يعتمدون على إخلاصهم وإيمانهم) على أن يخرجوا من البساتين والأحراج، وأن ينطلقوا بجيوشهم إلى الجانب الآخر من المدينة، وتذرّعوا بذرائع واهية لاخفاء جرمهم فادّعوا أن الجانب الآخر من البلد المطلّ على الجنوب والشرق خال من الأحراج التي تحميه، كما أنه لا يوجد به نهر أو خندق يمنعهم من الاقتراب من التحصينات، وأذاعوا أن السور المنخفض المبني من اللبن لن يستطيع الصمود أمام أول هجوم عليه، وأنهم لن يكونوا في هذا الموضع في حاجة ماسّة إلى آلات الحرب [المنجنيق ونحوه] أو بذل مجهودات عنيفة، لأن السور لا بد أن ينهار عند تعرّضه لأول هجمة لهم عليه، ولن يكون من الصعب أن يشقّوا لأنفسهم طريقاً إلى داخل البلد، وكان هدفهم الوحيد من تقديم هذه المبرّرات هو أن يحملوا الجيش على التحوّل من موضعه الحالي، وزعموا أنه يصعب تشديد الضغط منه على المدينة، على حين أنه لا يمكن من الجانب الآخر الاستمرار في الحصار لفترة طويلة.

*****

فلمّا سمع ملكا الجيوش المتّحدة وجميع قوّادها هذا الكلام الكاذب لم يرتابوا فيه، إذ سرعان ما أخلوا الموضع الذي حصلوا عليه بشقّ النفس، وتكبّدوا فيه هلاك الرجال، وهكذا تحولّت جميع الفرق من هذا

المكان بتوجيه من الخونة، وضرب الجند مخيّماتهم في الجانب الآخر من المدينة.

*****

لكن سرعان ما اتّضح لهم أن هذا الموضع الجديد بعيد كلّ البعد عن بساتين الفاكهة الكثيرة وعن الماء الوفير، وأن كلّ ما لديهم من الطعام آخذ في النقصان، وحينئذ أدركوا أن الخيانة آتت أكلها، وراحوا يهمهمون - ولكن بعد فوات الأوان - أن قد غُرِّر بهم تغريراً فاحشاً، ودخلت عليهم الغفلة حين قبلوا الانتقال من موضعهم الذي كانوا فيه لأنه كان أصلح الأمكنة وأجداها عليهم.

*****

(٦)

نقص المؤونة لدى الجيش، وكشف اللثام عن وضاعة الخونة، ورفع الحصار، ثم عودة رجالنا إلى ديارهم:

تناقصت المؤونة في المعسكر الصليبي الذي كان أصحابه قبل زحفهم على ثقة من أن الوقت لن يطول بهم حتى يتمّ الاستيلاء على المدينة، فلم يحملوا من الزاد إلا ما يكفيهم لأيّام قلائل، وقد تأثّر الحجّاج كثيراً من

هذا الأمر ، خصوصاً وأنهم كانوا يجهلون المنطقة ، فقد أقنعوهم بأن دمشق ستسقط في أيديهم من أول هجوم يشنّونه عليها ، وأكّدوا لهم في نفس الوقت أنهم إذا عدموا كافة أنواع الطعام فإن الجيش - مهما كانت كثافة عدده - قادر على أن يعيش على الفاكهة التي سوف يحصلون عليها بلا ثمن يدفعونه .

أدّى هذا الوضع المضطرب الطارىء إلى أن يساور الشك نفوس الصليبيين فأكثروا من المشاورات فيما بينهم ، سراً وعلانية ، ليتدبّروا فيها أي طريق ينبغي عليهم سلوكه في هذا الموقف ، فأدركوا بأن رجوعهم إلى الموضع الذي كانوا فيه صار أمراً صعباً بل مستحيلاً ، ذلك لأنه ما كاد الصليبيون يرتحلون عنه حتى بادر الأعداء - وقد أدركوا غايتهم - إلى دخول المدينة وأقاموا فيها تحصينات أقوى من تحصيناتها السابقة ، كما عمدوا إلى الطرق التي سبق للصليبيين الدخول منها فسدّوها بمتاريس من الكتل الخشبية الضخمة والأحجار الثقيلة ، كما أقاموا هناك طائفة كبرى من رماة النبال ليحولوا دون تمكّن العدو من البلد من الناحيةالتي يعسكرون فيها لعدم وجود الطعام الكافي بين أيديهم ، كما عمدوا من ناحية أخرى إلى ما فيه تعطيل الهجوم عليهم من الموقع الحالي .

*****

لذلك شرع الأمراء والحجّاج في التشاور فيما بينهم ، وتبيّن لهم بأجلى صورة خيانة من كانوا قد وثقوا في إخلاصهم فاستأمنوهم على حياتهم ومصالحهم ، فتقزّزت نفوسهم اشمئزازاً من الخيانة التي جازت عليهم ،

ولمّا أيقنوا بأن مشروعهم مقضى عليه بالفشل الذريع فقد صمّموا على أن ينفضوا أيديهم منه، وأن ينكفئوا عائدين إلى ديارهم. وترتّب على آثامنا أن اضطرّ الملوك والأمراء الذين تجمّعوا بأعداد ضخمة إلى الارتداد دون أن يحقّقوا هدفهم المنشود، فعادوا إلى المملكة سالكين نفس الطريق الذي جاءوا منه، يجلّلهم الخزي ويسيطر عليهم الخوف، وأصبحوا منذ ذلك الحين وطوال بقائهم في الشرق بل وبعد ذلك أيضاً ينظرون بعين الشكّ والريبة إلى كل ما يفعله قادتنا، واعتبروا - ويحق لهم ذلك - أن جميع خطط هؤلاء الكبار إنما تنطوي على الخيانة، ولم يعودوا يكترثون قيد أنملة بأحوال المملكة.

*****

وظلّت ذكرى الأهوال التي كابدوها عالقة بأذهانهم حتى بعد رجوعهم إلى أوطانهم، وأصبحوا ينظرون بعين الاشمئزاز إلى ما ينطوي عليه مسلك هؤلاء النبلاء من الدناءة. ولم تكن تلك النظرة قاصرة على هؤلاء الحجّاج فحسب، بل جاوزتهم إلى غيرهم حتى من لم يساهم في الحملة، فتضاءل حبّهم للمملكة، وترتّب على ذلك أن لم يعد يقوم برحلة الحجّ بعدئذ إلا أفراد قلائل وأقوام وهنت حماستهم، وبالإضافة إلى ذلك فالملاحظ حتى اليوم أن من يجيئون لا يطيلون مكثهم بيننا حتى لا يدخلوا نفس التجربة وتصيبهم نفس المصائب.

*****

(٧)

اختلاف الرأي حول المسؤول عن هذه الخيانة العظمى، والاقتراح بمحاصرة عسقلان مرّة ثانية ولكن الفشل يصيب هذه المحاولة الثانية:

أشير هنا إلى أنني كثيراً ما تحدثّت إلى رجال عقلاء ممن لا زالت ذاكرتهم تعي أخبار تلك الأيّام، قاصداً من وراء ذلك أن أدوّن في هذا الكتاب الحالي ما أخبروني به، وقد حاولت أن أفهم علّة هذا الخطأ الفادح الشنيع، وأن أعرف من هم الذين كانوا وراء الخيانة، وكيف تمّ تنفيذ هذه الجريمة القذرة، فوجدتّ تضارباً بيّناً واختلافاً كبيراً بين روايات بعضهم وبعض فيما يتعلّق بها، منهم من ينسب ما جرى إلى كونت الفلاندرز [ثييري Thierry] ويعتبره المسؤول عنها، ويحمّله إثم ما حدث، إذ من المعروف أنه كان مع الجيش في هذه الحملة، ويقولون انه لمّا صارت قوّاتنا أمام دمشق واحتلّت الغابات [البساتين] والنهر بالقوّة وفرضت الحصار على البلد، جاء هذا الكونت إلى كلّ واحد من العاهلين [كونراد ولويس] واحداً بعد الآخر، وصار يلحّ عليه بأن يقطعه مدينة دمشق بعد إتمام فتحها، ويقال بأن العاهلين أبديا استجابة إلى ما طلبه الكونت منهما.

*****

ولكن على الرغم من موافقة بعض نبلاء المملكة على ما طلبه كونت الفلاندرز، إلا أن هناك آخرين استشاطوا غضباً من هذا

الخبـر لدى سماعهم إيّاه، ورأوا أن هذا الأمير الكبير تكفيه أملاكه الخاصّة كل الكفاية، وكان يظنّ به أنه يحارب في سبيل إعلاء مجد الربّ وليس سعياً وراء مكافأة ينالها. ولم يكن يخيّل لأحد أن أن يصرّ على أن ستحوذ لنفسه على قسم كبير من المملكة، وذلك لأن هؤلاء الأمراء أنفسهم كانوا يطمعون أن تضاف إلى المملكة أي رقعة من الأرض مهما كانت مساحتها فيزيدون هم بالتالي مساحة ممتلكاتهم، لذلك فقد استفزّهم الحنق فدفعهم لسلوك مسلك شائن تمثّل في إيثارهم احتفاظ الدماشقة بمدينتهم بدلاً من أن يستردّها الصليبيون [الجدد القادمون من الغرب] فتوهب للكونت. وقالوا إنه من الظلم الفادح أن يُغفل أمر هؤلاء الذين تحمّلوا المشاق الجسام ومن بذلوا أرواحهم في الحرب في سبيل المملكة ثم لا يكافأون على ما بذلوا، في الوقت الذي يجني فيه من وفدوا منذ وقت قريب الثمار التي تمّ الحصول عليها بالجهد المستمرّ الطويل.

* * * * *

على أن هناك آخرين قالوا أن أمير أنطاكية [ريموند أمير تولوز Raymond of Toulouse] كرّس كل جهده ليجعل الفشل من نصيب مشروع الملك لويس (السابع) الذي أثار حنق الأمير إذ فارقه وهو غاضب منه رغم ما قدّمه صاحب أنطاكية من الإحسانات الكثيرة إليه، ومن ثمّ فقد أغرى فريقاً من كبار رجال الجيش على تعقيد الأمور تعقيداً حمل الملك الفرنسي على التخلّي عن المشروع نهائياً، ونفْض يديه منه، وإيثار الرجوع عنه، فرجع

رجوعاً مشيناً .

*****

وهناك قصص أخرى مفادها أنه لم يحصل شيء من هذا القبيل، سوى أن العدو رشا أشخاصاً معيّنين بقدر كبير من المال حتى ينتهي الأمر إلى هذه الكارثة الفادحة .

*****

ومن الأمور العجيبة ما يقال من أنهم تبيّنوا بعد حين أن كلّ هذه النقود التي حصلوا عليها بالطرق الخسيسة كانت نقوداً مزيّفة لا تساوي شيئاً .

*****

وهكذا اختلفت الآراء اختلافاً بيّناً في شأن من تقع علي عاتقه مسؤولية هذا العمل الكريه، ولقد عجزت (أنا وليم الصوري) عن الوصول إلى الخبر اليقين في هذا الموضوع .

*****

وأيّاً كان الآثمون فلا بد من أن سيأتي اليوم الذي يجزون فيه الجزاء

المكافىء لما ارتكبوه، ما لم يسعوا لطلب الغفران من الربّ فتشملهم رحمته الواسعة.

*****

وهكذا رجع قومنا كما ذكرنا ولم يجنوا مجداً، وفرح الدماشقة لرحيلهم، فقد كان خوفهم من الصليبيين ثقيل الوطأة على نفوسهم، أمّا أهلنا فكانوا على العكس من ذلك، إذ يقول لسان حالهم مع القائل «صار عُوْدي للنوح، ومزماري لصوت الباكين».

الحروب الصليبية لوليم الصوري ٣/ ٣٠٥
الحروب الصليبية لزكّار ١/ ٤٢٩

أقول:

كل المبرّرات التي ذكرها (وليم الصوري) حول فشل حصار دمشق بعد أربعة أيام، ورفعه عنها في اليوم الخامس، والتي عزاها إلى الرشوة والخيانة بين قادة الصليبيين، كانت (لحفظ ماء الوجه) وطمس الأسباب الحقيقية.

فدمشق كانت محاطة بالبساتين والجنائن المثمرة بالفاكهة والخضار من كل أطرافها، من الشمال والجنوب والشرق والغرب، فمن الشمال كانت بساتين الصالحية، ومن الجنوب بساتين الشاغور (البرّاني) اليانعة الوافرة،

وتمتدّ خارج الباب الصغير إلى مسافات بعيدة وتربط الغوطتين الشرقية والغربية، ومن الشرق بساتين الغوطة الشرقية الشهيرة لا زالت موجودة إلى اليوم خارج الباب الشرقي، ومن الغرب الشرفان الأعلى والأدنى وغيرهما.

وجميع هذه البساتين يرويها نهر بردى وفروعه وأقنيتها والأنهر الصغيرة الأخرى التي كانت تتوزّع فيها وحولها.

إذن كلام وليم الصوري في هذا المجال مرفوض جملة وتفصيلاً، لأنه يخالف الحقيقة الطوبوغرافية لواقع الأرض ومزروعاتها.

وعندما ذكرت أن كلامه هو (لحفظ ماء الوجه)، كنت أعني أنه أراد إخفاء حقيقة الصراعات الخفيّة التي كانت تدور بين الإمبراطور كونراد والملك لويس السابع والملك بلدوين الثالث، فكلٌ منهم يخاف صاحبه، وكلٌ طامعٌ في تولّي دمشق بعد اقتحامها، أضف إلى ذلك اقتناع بلدوين بما حذّره به معين الدين أنر من أنه لو تمّ اقتحام دمشق وتأسيس مملكة للفرنج فيها، فقد يحكمها كونراد أو لويس أو أحد زبانيّتهما، ولما بقي هو ملكاً على القدس، إذ من المحتمل أن يوسّع أحدهم مملكة دمشق باتّجاه الجنوب ويستولي على الأراضي المقدّسة.

كذلك تهرّب من ذكر عدم مساعدة الفرنج المحليين للحملة استناداً لنصيحة معين الدين أيضاً.

أو لربّما كانت الغيرة والحسد واحدة من الأسباب، فانتشار سمعة كونراد الثالث القتالية على حساب شهرة لويس السابع، وتوجّس الثاني من الأول وخشيته أن يصبح (خارج اللعبة) إذا تمّ اقتحام دمشق، لأن هناك احتمالاً كبيراً في أن يتولاّها أحد زبانية كونراد، أو أحد نبلاء بيت المقدس.

أو لربّما قصد بتركيزه على هالة الرشوة وخيانة البعض منهم التملّص من الاعتراف بحقيقة دفاع المسلمين وتكاتف السلاجقة - رغم خلافاتهم الداخلية - للوقوف في وجه الفرنج منطلقين من المثل القائل (أنا وأخي على ابن عمّي، وأنا وابن عمّي على الغريب). وهو أمر منتظر منه سيّما وهو من جهة الفرنج قلباً وقالباً.

كذلك - وهو أمر مستغرب من مؤرّخ كبير مثله - أغفل التطرّق لبطولات العرب المسلمين في دفاعهم الملحمي ضدّ ثلاثة جيوش جرّارة عدوّة، وكذلك لم يشر ولو بكلمة واحدة للنجدات التي كانت تصل إلى دمشق تباعاً من خارجها، وأيضاً لم يذكر اقتراب وصول سيف الدين غازي صاحب الموصل بقوّاته التي بلغت - كما يقول المؤرّخون العرب - نحو عشرين ألف مقاتل، إضافة إلى جيش أخيه نور الدين محمود صاحب حلب.

ورغم أنه من المؤرّخين الكبار الذين لا يأخذون الأمور بمسلّماتها، بل يستقصون ويمحّصون ويقارنون ويقاطعون المعلومات التي سمعوها، لكنه يبقى فرنجيّ المحتد، وبجانبهم، ويعكس وجهة نظرهم.

لكنه يعترف في نهاية المطاف بأن الأمر محيّر، وأن السبب الحقيقي للفشل غير معروف لديه، خصوصاً وأنه سمع الأنباء المتضاربة والروايات المتباينة والآراء المختلفة حولها.

*****

نصّ لمؤلف سرياني رهاوي مجهول

- معاصر للحملة -

وفي عام ١٤٥٨ [بالتقويم اليوناني، ويعادله عام ١١٤٨ للميلاد]:
بعد سقوط الرها للمرّة الثانية، اجتمع ملك الألمان وملك فرنسا على رأس جيش قوامه ثلاثمائة وخمسة وتسعون ألف مقاتل، ووصلوا إلى القسطنطينية عاصمة الإغريق عن طريق البحر، وغرّر الامبراطور بهم [يقصد إمبراطور القسطنطينية] وأرسل معهم أدلاّء قادوهم إلى الصحراء حيث لا ماء ولا طعام، وبعد أن تقدّموا مسيرة عشرة أيّام عن القسطنطينية نفذ منهم طعامهم، ولم يجدوا بيوتاً أو قرى يستطيعون أن يشتروا منها أي شيء، وحتى الماء نفذ منهم، فهاموا في صحراء جافة مجدبة، ولم يعلموا ماذا يفعلون، فقد هجرهم مرشدوهم ليلاً وأخطروا تركمان كبدوكية [هي منطقة في تركيا]، فخرج الأمير مسعود مع جيشه، فوجدهم في الصحراء منهوكي القوى من الجوع والعطش، ونجا الملكان ومعهما قليل من الجند، ووصلا إلى البحر، ثم تقدّما إلى أنطاليا [مدينة تركية على ساحل البحر المتوسّط] وذهبا بالسفن إلى أنطاكية بعد أن خسرا كل شيء، أمّا التركمان فقد غنموا غنائم لا تعدّ ولا تحصى من الذهب والفضّة التي كانت بين أيديهم كالحصى، وفي أواخر هذا العام وصل إلى عكّا أمير آخر يدعى ألفونسو (الفونش) ومعه زوجته وعائلته وتبعه ألف من الخيّالة وكان من أقرباء كونت طرابلس الذي كان يخشى أن يطالبه هذا بحصّة أرضه وأملاكه، لذلك دسّ له السمّ الزعاف مع واحد من أفراد بيته الذي ناوله إيّاه فمات.

وكـان بلدوين على عـرش القـدس آنذاك، وقـد قـابله ملك الألمـان وملك الفـرنجـة في بيت المـقـدس، واتّفـقوا جـميـعاً على مـهاجـمـة دمشق، وإلقـاء الحـصـار عليـهـا، وعندمـا أحـاطوا بالمـدينة، شـدّدوا الهـجـوم عليـهـا وخـصـوصـاً الألمـان، وأرادت الحـامية أن تستسلم بعـد أن شعـرت بالضيق والخطر، ولكن الحسد والغيرة التي امتاز بها الفرنجة سبّبت إخفاق الحصار ونجاة المدينة، فقد بدا ملك بيت المقدس يفكّر بنفسه أن الفرنجة الغرباء إذا استولوا على المـدينة فإنهم سوف يصبحون أقوياء، وربّما أخذوا بلاده منه، ولذلك أرسل رسـالة إلى رجال الحـاميـة يسألهم كم يعطونه إذا جعل الملوك الغرباء يرتحلون عن المدينة؟

وسبّب هذا العرض السرور لدى جند الحامية، فوعدوا بإعطاء ملك القدس مئة ألف دينار ذهبية، فنصح المَلِكين أن يحولا معسكريهما، وهكذا انتقلا من موقع حصين إلى موقع غير مناسب، وعندما رأى الملكان أن ملك القدس غير مخلص غضبا، وتركا دمشق وذهبا عائدين إلى عكّا، واستلم ملك القـدس المـئـة ألف دينار، لكنه وجـد بعـد وقت قـصـيـر أنهـا كـانت من النحاس الأصفر وليس ذهباً، هذا وقفل الملكان راجعين إلى بلادهما بحراً.

النصّ من كتاب: الحروب الصليبية ٢/ ٥٢٣ للدكتور زكّار ونقلناه بإذن خاصّ منه فله كل الشكر.

نصّ ابن العِبْرِي

(المتوفى ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦م)

. . . ولمّا سمع الفرنج بما جرى من الغوائل في الرها تدفّقوا إلى إيطالية وأقبل ملك الألمان في تسعين ألف فارس، وملك فرنسة الذي يدعوه العرب فوتش في خمسين ألفاً سوى الرجّالة الذين بلغوا حدّ الكثرة. وتوجّهوا في السنة ١٤٥٩ لليونان (١١٤٨م) إلى القسطنطينية وحاربوها حرباً شديدة إذ اطّلعوا على خيانة اليونان وغدرهم. وبعدما دفع لهم الملك منوئيل ذهباً وافراً وأقسم أن يهديهم الطرق بأمانة، غدر بهم وأرسل من دلّهم على طريق وعرة وجبال قاحلة لا ماء فيها. وظلّوا تائهين خمسة أيام وانهزم اليونان هُداتهم فقضى ربوات منهم عطشاً هم وخيلهم. وسمع الأتراك فانقضّوا على المشتّتين في الجبال وجعلوا يفتكون بهم فئةً فئةً حتى امتلأت بلادهم من الغنائم وبيعت وزنات الفضّة في ملطية بيع الرصاص. أما الفرنج الذين أفلتوا وعادوا إلى سواحل بحر بُنْطس [مضيق الدردنيل أو بحر إيجة] فقد أخذ اليونان الخبثاء يخلطون كلساً في القمح ويطعمونهم. فكانوا إذا أكلوا سقطوا كوماً كوماً وقضوا.

وقد نجا ملك الألمان في ثلاثة من القمامصة لا غير، وسار إلى أورشليم [القدس الشريف Jerusalem] وصلّى وتبرك بقبر المخلّص، وأقام بضعة أيّام ثم زحف إلى دمشق في عشرة آلاف فارس وستّين ألف راجل. وكان عدد الأتراك والعرب نحو مائة وثلاثين ألف راجل سوى

الفرسان. ولمّا عرف الفرنج أنهم على كثرتهم لا قوّة لهم، أخذتهم النخوة والشجاعة فحملوا عليهم حتى وصلوا إلى الأنهار ودخلوا الجنائن.

أيس المُعين [معين الدين أنر] صاحب دمشق فأرسل سراً إلى ملك أورشليم وخدعه بالكلام والذهب، وقدّم له مائتي ألف دينار من نحاس ملطوخة بذهب مصري. وأرسل كذلك إلى صاحب طبريّة خمسين ألفا من الذهب المزيّف. وقد اطّلع الفرنج على ذلك وأدركوا الخيانة. على أني طالعت خمسة كتب عربية مختلفة لم أعثر فيها على حكاية هذا التزييف. غير أن البطريرك ميخائيل المغبوط [غبطته] ذَكَرها في تاريخه. ولمّا اطّلع ملك الفرنج على الغشّ والخداع ترك دمشق وعاد إلى وطنه يتفطّر قلبه غَمّاً وأسفاً. تلك كانت عاقبة أولئك الجنود الفرنج الكثيري العَدَد والعُدَد.

تاريخ الزمان لابن العبري ١٦٢

*****

نصّ ميخائيل زابوروف

- مؤرّخ سوڤياتي -

في ٢٤ حزيران (يونيو) ١١٤٧م تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث ومقرّبوهما مع وصيّة العرش ميليساندا وأعيان القدس. وعن هذا اللقاء تغيّب - لأسباب مختلفة - أسياد دول الصليبيين في سورية الشمالية - ريمون من أنطاكية، ريمون من طرابلس، جوسلين من الرها. [و] تناول البحث خططاً مختلفة للعمليات الحربية. وأخيراً تخلّى قادة الصليبيين عن أقرب أهدافهم - استعادة الرها - ونسوا الحرب ضد الموصل ومضوا، مع القوّات التي تشكّلت في مملكة القدس، يحاصرون مدينة دمشق المحصّنة تحصيناً منيعاً، لأن فتحها كان يُبشّر بغنيمة وافرة! دام الحصار خمسة أيّام (٢٣ - ٢٧ تموز - يوليو) ولكن عبثاً.

ولم تتوقّف المشاحنات بين الفرسان الفرنسيين والألمان والأهم هو أن احتمال فتح دمشق لم يكن يطيب لقسم . . . [جملة غير واضحة المعنى في الأصل] من بارونات مملكة القدس. ففي المقام الأول كانت ترد عندهم هموم مغايرة تماماً. كان ينبغي الاحتفاظ على الأقلّ بالأراضي الفلسطينية المحتلّة سابقاً. وبقدر ما كانت تتوطّد مواقع آل زنكي في الصراع ضدّ الصليبيين، كانت التربة تميد أكثر فأكثر تحت أقدام بارونات مملكة القدس. وكان تحسين العلاقات مع دمشق واستغلال التناقضات بين حكّامها وآل زنكي يبدوان لهم أفضل بكثير. وبالعكس، لم يكن انتصار الصليبيين الفرنسيين والألمان يبشّر الصليبيين القدماء بأي خير، إذ كان الكونت ثييري

من الفلاندر موعوداً بدمشق. وبالنتيجة نضجت بين بارونات مملكة القدس «خيانة القضيّة المسيحيّة».

إن غياب وحدة الفكر بين المحاصرين لم يبق سراً على حكّام دمشق، ويروي المؤرّخان الشرقيّان أبو الفرج الأصفهاني وميخائيل السرياني أنه أرسلت من المدينة إلى معسكر المحاصرين، إلى ملك القدس بودوان [بلدوين] الثالث، بعثة سرّية. وكان مغزى نصائح المبعوثين يتلخّص فيما يلي: على بودوان أن لا يأمل في البقاء في القدس إذا «ثبّت كونراد العظيم (كونراد الثالث) قدميه في دمشق». وعرض المبعوثون على الملك ٢٠٠ ألف دينار، وعلى بارون طبريّة ١٠٠ ألف دينار لكي يقنعا الملك الألماني بالانسحاب. وفي أواخر تموز (يوليو) ١١٤٨م تخلّى فرسان الصليب عن مشروعهم، دون أن يحصلوا على شيء، بناء على إصرار هؤلاء البارونات الذين رشاهم واشتراهم الوزير الدمشقي معين الدين النور [أنر]، فضلاً عن ذلك، بالذهب (الذي كان مزيّفاً) كما اتّضح فيما بعد). وقد اضطروا إلى ذلك، خصوصاً وأن معين الدين قد دعا من جهته، وإن لم يكن بطيبة خاطر، قوّات الموصل إلى نجدته. ومن الشمال أخذت تقترب من المدينة المحاصرة قوّات سيف الدين الموصليّ ونور الدين من حلب. وبما أن الصليبيين كانوا قد خسروا عدداً كبيراً من الناس، فقد تراجعوا إلى حدود مملكة القدس. وبما أن كونراد الثالث قد اقتنع بأن الوضع ميؤوس منه فقد عاد إلى ألمانيا مع أتباعه القلائل في ربيع ١١٤٩م عبر القسطنطينية وسلانيك. وبعد بضعة أشهر عاد لويس السابع إلى بلاده.

الصليبيون في الشرق لزابوروف ١٨٥

هوامش الفصل السابع

(١) مُعيِن الدين أُنَرْ: (. . . ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م) هو الأمير الأتابك أنر (بضم الألف وفتح النون والراء المهملة) المعروف بمعين الدين بن عبد الله الطُغتكيني بالولاء، ويلقّب بملك الأمراء. أمير الجيش الشامي وصاحب دمشق، ومقدّم عسكرها، ومدبّر الدولة. كان أحد مماليك طُغتكين في العهد السلجوقي، ثم أصبح مدبّر حفيده محمود بن بوري بن طغتكين. كان أنر عاقلاً سايساً مدبّراً، حسن الرياسة، ظاهر الشجاعة، كثير الصدقات. هبّ لمقاومة حصار الفرنج لدمشق عام ١١٤٨م، ودافع عنها بالدهاء والقتال. وهو الذي أنشأ المدرسة المعينية الحنفية بحصن الثقفيين غربي المسجد الأموي [في منطقة الحريقة اليوم] عام ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م، وكانت من أوليات المدارس التي أنشئت بدمشق. وإليه يُنسب (قصر معين) ببلاد الغور من أعمال دمشق. تزوجت ابنته عصمت الدين خاتون من نور الدين الشهيد. وبعد وفاته من صلاح الدين الأيوبي، وهي صاحبة التربة الخاتونية بسفح قاسيون [في جادة ابن المقدّم الآخذة من الجسر الأبيض إلى سوق الجمعة اليوم].

وتوفي أنر في ليلة الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ٥٤٤ هـ/ التاسع والعشرين من آب ١١٤٩م، ودفن أولاً في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة المعينية التي عمّرها، ومنها إلى قبة بمقابر العونية شمالي دار البطّيخ [وبلغة اليوم كانت القبّة بجوار المدرسة الشامية البرّانية في حي سوق صاروجا، ودرست عند تنظيم المنطقة وفتح شارع الثورة].

وكان منقوشاً على ساكف بابها الحجري كتابات مؤرّخة فيها:

١/ بسم الله الرحمن الرحيم. يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا

٢/ ولا يغرنكم بالله الغرور. عملت هذه القبة على قبر الأمير الاسفهسلار الكبير

٣/ أتابك معين الدين الفقير إلى رحمة الله الشهيد السعيد أنر رحمه الله. توفي يوم الأحد

٤/ سابع عشر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وخمسماية وا [و] قفت الخاتون الكبيرة الدار رحمها

٥/ الله على هذه القبة البستان التي [كذا] تحتها والفندق واثنا عشر دكان وثلثة عشر بيت وقف عليها.

أنظر: الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ١/٥٨٨، وفيّات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٩٧، خطط دمشق للمنجد ١٣٢، ولاة دمشق في العهد السلجوقي ١٥، ٢٢ و ح ٣.

(٢) رأس الحربة: تعبير عسكري يطلق على طلائع القوات المتقدّمة التي تشتبك مع العدو أولاً.

(٣) الميدان الأخضر: موضع معرض دمشق الدولي اليوم، بين التكية السليمانية وساحة الأمويين، بين نهري (بردى) شماله و(بانياس) جنوبه.

(٤) منازل العسكر: لم أعثر على الموضع المذكور في أي من المصادر المطبوعة، ولا أستبعد أن يكون قرب قرية داريّا بدليل أن بعض المراجع تؤكد نزول الفرنج قربها وهي تقع على نفس المسافة من دمشق.

(٥) لم تحدد المصادر أي نهر هو، ولكن لا بدّ أن يكون نهر (بردى) أو (بانياس) أو (الداراني) وهما من فروع بردى، والأخير أكثرهم احتمالاً لما ذكره ابن الحكم الأندلسي في قصيدته ومطلعها:

(بشطّ نهر داريّا أمور ما تواتينا).

(٦) النيرب: اسم قديم لمنتزه كان في موضع حيّي أبو رمّانة والمالكي الحاليين، بين الربوة ودمشق شمالي طريق بيروت.

(٧) الفندلاوي: فقيه زاهدمن الشهداء، وهو حجّة الدين يوسف بن درناس الفندلاوي (وقيل دوناس أو دوباس أو ذي باس)، أبو الحجّاج، المغربي، شيخ المالكية وفقيهها في عصره، قدم الشام وسكن مدّة في «بانياس»، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرّس فيها بمذهب الإمام مالك، وحدّث بالموطأ (كتاب الإمام مالك)، وبغيره، وكان شيخاً طاعناً في السنّ، حسن المفاكهة، حلو المناظرة، كريم النفس، مطرحاً للتكلّف، قوي القلب، صاحب كرامات، ودفن في مقبرة الباب الصغير. أنظر: تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤٦٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/ ٢٠.

(٨) الحلحولي: محدّث زاهد من الشهداء، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي الجعدي، ولد بحلب ونشأ بها، وسار إلى الآفاق، وكان آخر أمره أن انقطع بمسجد في ظاهر دمشق. وخرج الشيخ الحلحولي في جماعة لقتال الفرنج بأرض النيرب قرب الربوة فاستشهد في نفس اليوم الذي استشهد فيه الشيخ يوسف الفندلاوي. أنظر: تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤٦٤، ومعجم البلدان لياقوت (مادّة حلحول) ٢/ ٢٩٠.

(٩) تحدّد هذه القصيدة المكان الذي كان يستقي منه الفرنج عندما نزلوا في داريّا ألا وهو نهر (الداراني) قبل نزولهم على الميدان الأخضر والاستقاء من نهر (بردى) الرئيسي.

(١٠) مسجد خاتون: كان في الشرف القبلي (المنطقة الممتدّة بين الجامعة والجمارك اليوم)، أنشأته ومدرستهاصفوة المُلك الستّ زمرّد خاتون في العهد السلجوقي سنة ٥٢٦ هـ في (تل الثعالب)، وهي أخت الملك دُقاق، وزوجة تاج الملوك بوري، ثم زوجة الأتابك عماد الدين زنكي والد السلطان نور الدين (الشهيد). أنظر: خطط دمشق للعلبي ١٨٥.

(١١) جِسْرِين: قرية في غوطة دمشق الشرقية، على الحافّة اليسرى لنهر بردى، وعلى بعد كيلومتراً واحداً من بلدة (كفر بطنا). وهي قرية قديمة تعود للعهد الآرامي، وما تزال تحتفظ ببعض الأعمدة الكورنثية الرومانية، واسمها من السريانية كَفْرَبْطْنُو (ܟܦܪ ܒܛܢܐ) بمعنى: القرية

الولود أو قرية الجنين أو القرية الحبلى .

(١٢) أخطأ رنسيمان القول بأن (الربوة الواقعة على نهر بردى تقع تحت أسوار المدينة مباشرة) ، فهي تبتعد عن دمشق غرباً نحو أربعة كيلومترات بلغة اليوم ، وكانت تمتدّ بينهما بساتين اللؤلؤتين الكبرى والصغرى ، ووادي البنفسج ، والشرفان الأعلى والأسفل ، والنيرب السفلي وغيرها .

(١٣) الجرخ : سهام خاصّة تطلق من قسي بعيدة المدى ، وغالباً ما تحمل مواد ملتهبة . أنظر : معجم دوزي مادة (جرخ) .

(١٤) سيف الدين غازي : هو غازي بن زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر بن عبد الله ، سيف الدين ، من أتابكة السلاجقة ، وصاحب الموصل ، توفي ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م .

(١٥) نور الدين محمود : هو محمود بن زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر بن عبد الله ، نور الدين ، أبو القاسم ، الملقّب بالشهيد ، شقيق سيف الدين غازي . مؤسّس الدولة النورية الأتابكية في الشام ومصر ، وامتدّت سلطته إلى الموصل وديار بكر والجزيرة وبعض بلاد المغرب وجانب من اليمن ، ولد سنة ٥١١ هـ/ ١١١٨م ، وملك حلب سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م ، ثم ملك دمشق سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م ، وتوفي سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م ، ودفن أولاً بقلعة دمشق ، ثم نقلت رفاته إلى المدرسة النورية الكبرى التي إنشأها عند باب الخوّاصين (سوق الخيّاطين اليوم) . أنظر : وفيّات الأعيان لابن خلكان ٥/ ١٨٤ ، معجم ألقاب أرباب السلطان للشهابي ١٤٠ .

(١٦) الكندسطبل : لعلها تحريف لكلمة كونستابل Constable وهو لقب يُطلق على أحد النبلاء أو أحد كبار الموظّفين في قصر الملك ، أو حاكم قلعة ، أو مدينة محصّنة ، أو موظف مسؤول عن الأمن ، ويطلق اليوم في إنكلترا على رجل الشرطة . علماً بأن (دوزي) لم يشر إليها في معجمه المعروف : Supplément aux Dictionnaires Arabes .

(١٧) العطاير : يعتقد الدكتور سهيل زكّار أنها تصحيف يحتمل أن صوابه (الحظائر)، وفي نسخة القاهرة (القناطر).

(١٨) الجرح في النسخة المطبوعة في القاهرة، أما في نسخة دمشق التي حقّقها د. سهيل زكّار فهي (الجرخ) وعنها يقول: (كانت هذه السهام تُطلق من قسي خاصّة، قوية وبعيدة المدى، وغالباً ما كانت تحمل مواد ملتهبة من النفوط وغير ذلك). أنظر معجم دوزي، مادة (جَرْخ).

(١٩) في نسخة القاهرة: تتّبع.

(٢٠) البُزاة جمع بأز وهو طير من الجوارح يُصطاد به.

(٢١) يعاقيب الجبل جمع يعقوب : ذكور طيور الحَجَل التي تعيش في الجبال.

(٢٢) الشواهين: كلمة فارسية تُطلق على نوع من الطيور الجارحة من جنس الصقر طويل الجناحين، ومفردها: شاهِيْن.

(٢٣) الحَجَل جمع حَجَلَة: طائر في حجم الحَمام أحمر المنقار والرجلين يعيش في الصرود العالية ويستطاب لحمه.

(٢٤) في نسخة القاهرة (المكاردة).

(٢٥) في نسخة دمشق (الأين) هو التعب والإعياء، وفي نسخة القاهرة: انثنوا، وفي أصلها: أمنوا.

(٢٦) لم يذكر ابن القلانسي هذه الرواية رغم تواجده في دمشق خلال الحصار.

(٢٧) الكتاب المقدّس: المزامير ٦٦/ ٥.

الفصل الثامن

المحاولة الرابعة لاحتلال دمشق

حملة (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧م)

The Forth Attempt to Occupy Damascus

(1157 A.D/552 A.H)

هذه المحاولة لم يذكرها سوى (وليم الصوري)، وقد تعرّض (ابن الأثير) إلى شقّها الأول فقط حين قصد نور الدين محمود بلاد السلطان قلج أرسلان، فافتتح مدينة «مرعش» وقلعتي «كيسوم» و«بهنسا».

والغريب في الأمر عدم توافق تاريخ السنة التي حدثت فيها هذه الحملة، ففي حين يذكرها وليم الصوري في سنة (١١٥٧م) وتقابلها سنة ٥٥٢ هـ.

بينما يذكرها ابن الأثير في حوادث (٥٦٨ هـ) وتقابلها سنة ١١٧٣م، فإذا سلّمنا بهذا التاريخ لوصلنا إلى أنه غير مقبول ولا معقول لسببين:

أولهما: أن نجم الدين أيوب لم يكن موجوداً في دمشق خلال تلك السنة، فقد غادرها إلى مصر بدعوة من ابنه وزير مصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٥ هـ.

وثانيهما: أن بغدوين أي بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لم يقد هذه الحملة إذ توفي في ٢٧ من صفر ٥٥٧ هـ/ الثالث عشر من شباط ١١٦٢م، أي قبلها بـ(١١) سنة.

فكيف حدث هذا الغلط عند ابن الأثير وهو من عمالقة المؤرّخين؟

نصّ وليَم الصُوْرِي

(المتوفى ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م)

(٢٧)

من الكتاب الثامن عشر

نور الدين يهاجم بلاد سلطان قونية ويستولي على بعضها بالقوة كما يمضي الملك مخرّباً أرباض دمشق:

أحسّ نور الدين بالفرحة الكبرى تملأ جوانحه لرحيل هذا الأمبراطور [يقصد رحيل إمبراطور بيزنطة مانويل الأول كومنين عن سورية] ذي البأس الشديد الذي كان وصوله سبباً في إشاعة الخوف الكبير في نفسه، كما أن رحلته في البلاد كانت ذات وقع سبّب له قلقاً عظيماً.

* * ** *

فلمّا رحل الامبراطور اطمأن خاطر نور الدين من ناحية «مانويل» فهو صاحب الحول المفزع الذي زادت مغادرته الناحية من يقين نور الدين أن قد جاءته الفرصة التي طال انتظاره لها، لذلك استدعى عسكره من شتّى أرجاء دولته، وأنفذ حملة ضد سلطان «قونية» الواقعة على تخوم بلاده، فسقطت في يده مدينة «مرعش» وقلعتا «كيسوم» و«بهنسا» الحصينتان وذلك لوجود السلطان بعيداً عنها، ولم يكن من اليسير عليه إرسال النجدة إلى هذه

الأماكن، وقد وضع نور الدين في ذهنه هذه الأمور فخاطر وهاجم «قونية» وكان صاحبها أقوى منه هو ذاته.

*****

وجاء خبر هذه الحملة إلى الملك [بلدوين الثالث] الذي كان لا يزال معوقاً حيث هو على رأس قوّاته، ولكن دلّه إدراكه على أن دمشق - وقد خلت من قوّتها الحربية - قد أصبحت فريسة سهلة لمطامع كل متربّص لها، لذلك صمّم على الاستفادة من هذا الوضع فجمع العسكر مهاجماً دمشق، ولم يجد أحداً يصدّه، فأضرم النار في كل ما صادفه، وعاث في كل نواحيها إفساداً حسبما أملت عليه أهواؤه، واستباح لجنده الناحية كلها امتداداً من «بصرى» مدينة بلاد العرب الشهيرة حتى دمشق فراحوا يحرقونها ويدمّرونها كيفما شاءوا.

*****

وكان يوجد في دمشق رجل من عليّة القوم اسمه «نجم الدين»[1] أدرك نور الدين فيه خبرته التامّة بالشؤون الدنيوية فعهد إليه بإدارة أموره الخاصّة ورعاية المدينة بكل ملحقاتها، تاركاً له حريّة التصرّف في الحكم بها، فلمّا عرف نجم الدين انشغال مولاه بأمور مهمّة في أماكن أخرى غير هذه النواحي، على حين أن ليس تحت يده هو ذاته سوى قوّة ضئيلة هي التي يمكنه بها أن يقاوم الملك (بلدوين)، فقد راح يتدبّر الوسائل التي تجنّبه الأخطار التي تكتنفه، فقدّم للملك أربعة آلاف قطعة من الذهب، وردّ عليه

ستة فرسان من الفرسان العاديين كانوا بأسره، وجعل ذلك كلّه ثمناً لهدنة أمدها ثلاثة أشهر، وقد استطاع نجم الدين بفطنته هذه أن يستخدم المال لرشوة الكثيرين حتى يتشفّعوا له عند الملك الذي استجاب لما يرجوه، ونجح نجم الدين بهذه الاجراءات الحازمة أن يخلّص البلد من جيش الملك.

*****

ولمّا انتهى في هذه الأثناء أمد الهدنة التي كان نجم الدين حاكم دمشق قد اتّفق عليها مع الملك، وكان انصرامها قبل أن يفرغ نور الدين من حملته مما ترتّب عليه ضرورة بقائه في تلك النواحي المذكورة آنفاً، لذلك اقتحم الملك (بلدوين الثالث) أرض العدو بقوة السلاح، وراح يخرّب الاقليم كما يهوى، فساق الماشية والأسرى، وأحرق ما صادفه، وأفسد الناحية دون أن يجد أحداً يتصدّى لدفعه، حتى إذا فرغ من تدمير البلد والحقول المحيطة به واسترقاق السكان عاد إلى مملكته سالماً.

الحروب الصليبية لوليم الصوري ٣/ ٤٣٦

نصّ ابن الأثير
(المتوفى ٦٣٠ هـ)

ثم دخلت سنة ثمان وستّين وخمسمائة : وفي هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي إلى مملكة عزّ الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهي ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازماً على حربه وأخذ بلاده منه ، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً فصار إلى نور الدين مستجيراً به وملتجئاً إليه فأكرم نزله وأحسن إليه وحمل له ما يليق أن يُحمل إلى الملوك ، ووعده النصرة والسعي في ردّ مُلكه إليه ، ثم إنه أرسل إلى قلج أرسلان يتشفّع في إعادة ملكه فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين إليه فابتدأ بكبسون [كيسون] وبهنسى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها ، وكان ملكه لمرعش أوائل ذي القعدة والباقي بعدها ، فلمّا ملكها سيّر طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها ، وكان قلج أرسلان لمّا سار نور الدين إلى بلاده قد سار من طرفها التي تلي الشام إلى وسطها ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقّف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الفرنج ما أزعجه ، فأجابه إلى الصلح وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة وقال له : أنت مجاور الروم ولا تغزوهم ، وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ، ولا بد من الغزاة معي ، فأجابه إلى ذلك ، وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهي لذي النون ، فبقي العسكر في خدمة ذي النون إلى أن مات نور الدين ، فلما مات رحل عسكره عنها ، وعاد قلج أرسلان وملكها .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ، حوادث سنة ٥٦٨ هـ

المحاولة الخامسة لاحتلال دمشق

(٥٥٣ هـ/ ١١٥٨م)

The Fifth Attempt to Occupy Damascus

(1158 A.D/553 A.H)

استولى نور الدين محمود بن زنكي (الملقّب بالشهيد) على مدينة دمشق سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م، وأسّس فيها الدولة لأتابكية النورية منهياً بذلك حكم البوريين «آل بوري» فيها، وتوفي فيها سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م.

ومنذ لحظة دخوله بدأ بتحصين المدينة وترميم أسوارها وأبراجها وأبوابها، وانتهج خطّة دفاعية غاية في العبقرية الحربية، فسدّ باب كيسان الجنوبي الشرقي للتخفيف من مخاطر دخول الفرنج عبره، وفتح باب السلام وباب الفرج من جهة الشمال.

وتجلّت عبقريته بإقامة مسجد ومئذنة فوق كل باب، وكانت تلك المآذن بمثابة مراكز مرتفعة لمراقبة أي تقدّم لجيوش العدو والاعلان عنها بالوقت المناسب وقبل اقترابها من المدينة.

كذلك أقام خارج كل باب سوقاً «باشورة» تتعرّج مساراته بزوايا قائمة فتعرقل سير العدو فيه وتسهّل أمر الدفاع عنه من جهة، وتخفّف الصدمة الرئيسية المباشرة عن الأبواب من جهة أخرى.

وأضاف إلى أبراج دمشق الدفاعية برجاً جديداً سمى «برج نور الدين» لا زال قائماً في السور قرب باب الجابية.

نصّ ابن القلانسي

(المتوفى ٥٥٥ هـ)

ودخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وفي يوم الأحد التاسع من شهر ربيع الآخر من السنة، برز الملك العادل نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب [فوق نهر الداراني بأراضي داريّا] في العسكر المنصور بآلات الحرب، مجداً في جهاد الكفرة المشركين، وقد كان أسد الدين [شيركوه] قبل ذلك عند وصوله في من جمعه من فرسان التركمان غار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم ما كان بها من خيّالة الافرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم فغنموهم، وقُتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المولّى حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى، ورؤوس القتلى، والغنيمة لم يصب منهم غير فارس واحد فُقد، ولله الحمد على ذلك والشكر.

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (حوادث سنة ٥٥٣ هـ)

أقول:

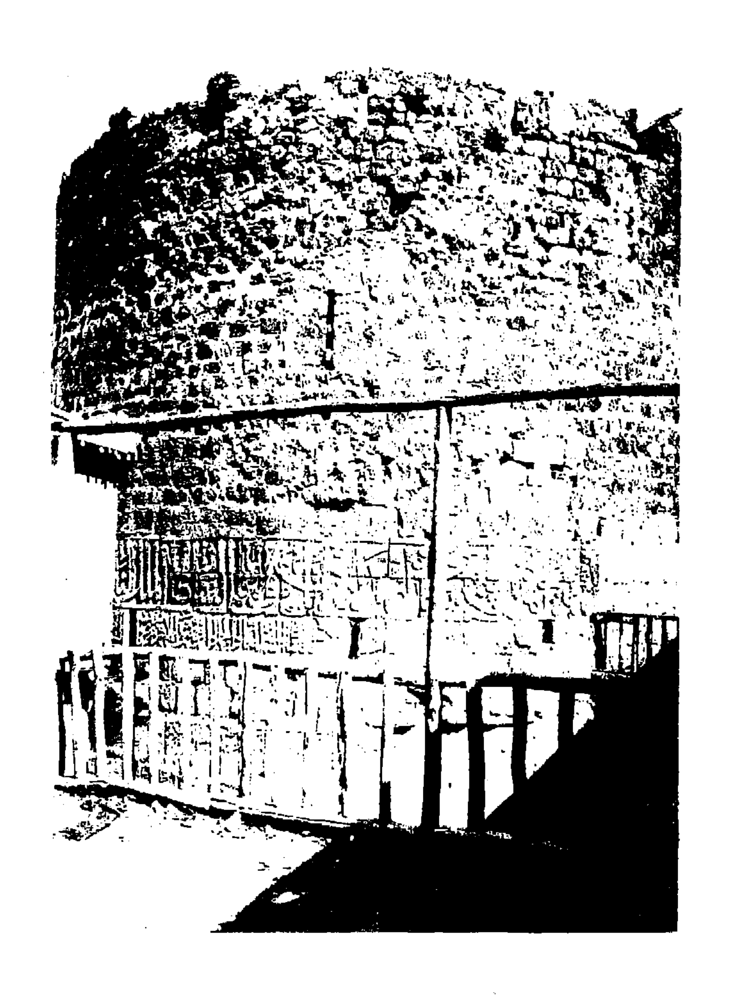
لم يذكر ابن الأثير هذه الواقعة، كما لم يذكرها ابن كثير. أمّا أبو شامة في (الروضتين ١/ ١٢٠) فقد نقلها حرفياً من نص ابن القلانسي ونسبها بكل أمانة إلى المصدر.

نصّ رنّسيمان

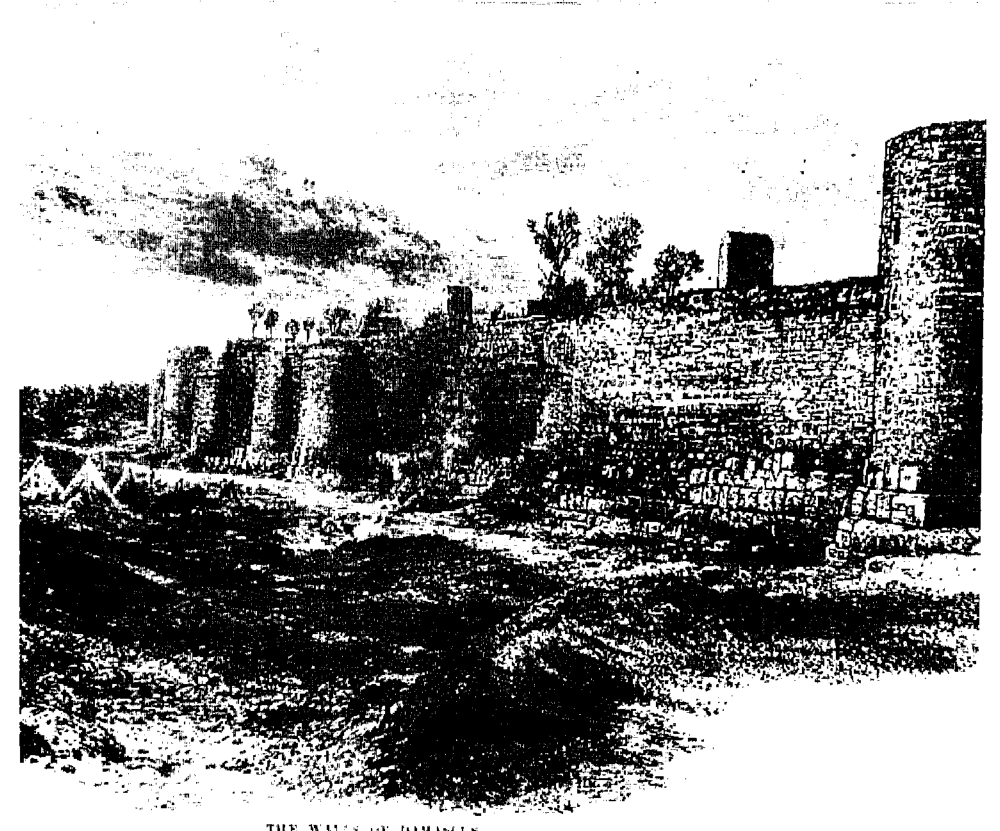
في شهر صفر ٥٥٣ هـ/ آذار ١١٥٨م، قام الملك بلدوين الثالث مع كونت فلاندر[٢] بحملة بزحف مفاجىء على دمشق ذاتها، وكان قبيل ذلك قد توجّه بحملة إلى أطراف دمشق، وفي بداية شهر ربيع الأول / أول نيسان من نفس السنة، فرضا الحصار على قلعة داريّا[٣] بضواحي دمشق، وإذ استعاد نور الدين عافيته، اتّخذ طريقه فعلاً صوب الجنوب للقضاء على المؤامرات التي ترعرعت أثناء مرضه، ولمّا وصل إلى دمشق في السابع من ربيع الأول / السابع من نيسان، أعرب سكّانها عن سعادتهم وفرحهم به، وأدرك بلدوين أنه من الحكمة أن ينسحب. على أن نور الدين لم يلبث أن قام بمهاجمة الفرنج. بينما كان قائده شيركوه[٤] يغير على أراضي صيدا، هاجم قلعة «الحبيس جَلْدك»[٥] التي شيّدها الفرنج معقلاً لهم على ضفاف اليرموك، إلى الجنوب الشرقي من بحر الجليل. وتعرّضت الحامية إلى ضغط بلغ من الشدّة أنها لم تلبث أن وافقت على التسليم إذا لم تصلها المساعدة في فترة عشرة أيام. وعندئذ نهض الملك مع كونت ثيري لنجدة القلعة، غير أنهما اتخذا الطريق الذي يقع شمالي البحيرة، ويؤدي إلى دمشق، بدلاً من التوجّه إليها مباشرة. ونجحت الحيلة، إذ أن نور الدين خاف على مواصلاته، فرفع الحصار عن القلعة. والتقى الجيشان عند قرية البطيحة[٦]، الواقعة إلى الشرق من الوادي الأعلى لنهر اليرموك. ولم يكد الفرنج يلمحون المسلمين حتى هاجموهم، بعد أن اعتقدوا أنهم ليسوا إلا جماعة من الكشّافة، حتى حدث أن بغلاً كان بلدوين بذله لشيخ كان معروفاً

أنه بصحبة نور الدين، شمّ رائحة ما كان بين دواب الفرنج من البغال، فدلهم على أن العسكر الاسلامي بأسره قد وصل. وبلغ الباعث عند الفرنج على القتال من القوة ما هزّ قوة المسلمين. وإذ لا زالت صحة نور الدين ضعيفة، جرى إقناعه بأن يغادر ساحة القتال، على أنه حدث عند رحيله، أن انصرف كل جيشه وانسحب في اضطراب وخلل. على أن انتصار الفرنج كان من الاكتمال ما حمل نور الدين على أن يطلب عقد هدنة. ولم يقع في بضع سنوات تالية على الحدود السورية الفلسطينية شيء من الحروب الخطيرة. وأضحى بوسع كل من بلدوين ونور الدين أن يوجّه اهتمامه صوب الشمال.

تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٥٦٥



برج «نور الدين» الذي أقامه في محلّة باب الجابية
لدعم الدفاع عن دمشق

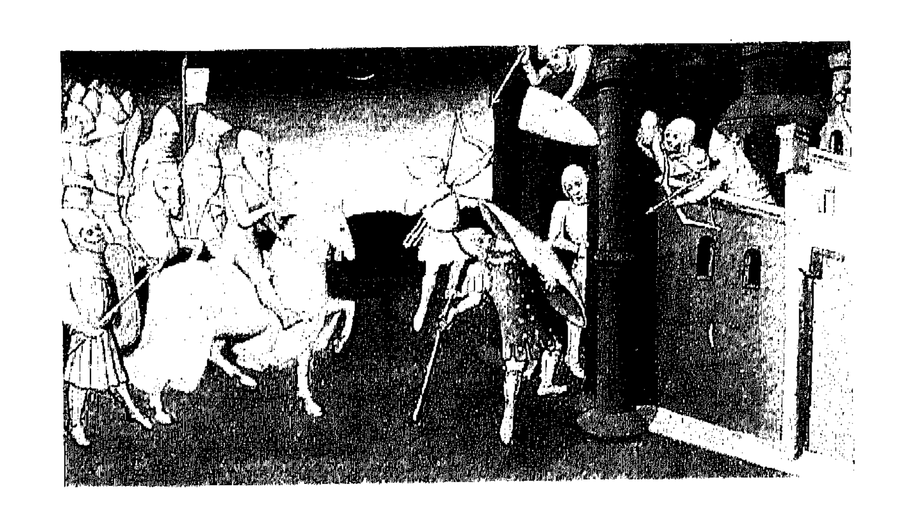


THE WALLS OF DAMASCUS.

أسوار دمشق وأبراجها بين الباب الشرقي وباب كيسان



الباشورة التي أقامها نور الدين خارج الباب الشرقي وغيره من أبواب دمشق



من معارك الصليبيين المهاجمين والمسلمين المدافعين

عن كتاب: **The Crusades and the Holy Land**



من معارك المسلمين والفرنج

عن كتاب : **The Crusades and the Holy Land**

نص بلا تاريخ حول محاولة الفرنج الانقضاض على دمشق

نصّ للأمير أسامة بن منقذ

(المتوفى ٥٨٤ هـ)

(قَصد الفرنج دمشق)

نصّ غريب عجيب بلا تاريخ، عثرت عليه في (كتاب الاعتبار) للأمير أسامة بن منقذ ، وأقسم بأنني أمضيت ساعات طويلة في البحث والتقصّي، علني أتوصل إلى الزمن الذي جرت فيه هذه المحاولة، رجعت إلى أمهات المصادر الاسلامية فلم أجد لها ذكر، وغرقت في المصادر الأجنبية دونما جدوى، وحاولت استخلاص بعض الأحداث الواردة فيه ومقارنتها بالنصوص العربية والأجنبية، ولم أتوصّل إلى شيء، فالنصّ مسبوك بأحداث غير واضحة، وهو فريد في صياغته، ولعل باحث آخر يكمل عني هذا العبء الثقيل.

وعنوان النصّ كما ورد: (قصد الفرنج دمشق).

أمّا المتن فهو: «ومن نفاذ المشيئة في الآجال والاعمار أن الافرنج، خذلهم اللّه، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها [ويعلّق د. فيليب حتّي محقق الكتاب بالحاشية ١٣ فيقول: بقيادة بالدون الأول ملك أورشليم عام ١١١٣] ؟ . فاجتمع منهم خلق كثير. وسار إليهم صاحب الرها وتل باشر [واسمه بالإفرنجية Turbessel بين حلب والرها] وصاحب أنطاكية. فنزل صاحب أنطاكية على شيزر في طريقه إلى دمشق، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحمّاماتها وقياسيرها واشتراها البرجاسيَّة [Bourgeoisie] ووزنوا لهم أثمانها، وما عندهم شكّ في فتحها وملْكها. وكفر طاب

[من قرى معرّة النعمان] إذ ذاك لصاحب أنطاكية [روجر Roger] فجرّد من عسكره مائة فارس انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة. فلمّا سار إلى دمشق اجتمع من بالشأم من المسلمين لقصد كفر طاب وأنفذوا رجلاً من أصحابنا يقال له قُنيب بن مالك فجسّ لهم كفر طاب في الليل، فوصلها دارها وعاد وقال: ابشروا بالغنيمة والسلامة. فسار المسلمون إليهم فالتقوا على مثكير [كذا في الأصل]. فنصر اللّه سبحانه الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم. وكان قُنيب الذي جسّ لهم كفر طاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة. فلمّا ظفروا بالافرنج وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده. فمضى يركض إلى الخندق. فرمى عليه رجل من الافرنج من الحصن حجراً فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها. فكانت إذا ندبت على ابنها قُنيب تتدفّق ثدياها باللبن حتى تُغرق ثيابها. فإذا فرغت من ندبها عليه وسكنت لوعتُها عادت ثدياها كالجلدتين ما فيهما قطرة لبن. فسبحان من اشرب القلوب الحنَّة على الاولاد.

ولما قيل لصاحب أنطاكية وهو على دمشق: قد قتل المسلمون أصحابك. قال: ما هو صحيح. قد تركت بكفر طاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلّهم.

وقضى اللّه سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على الافرنج، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا جميع دوابّهم. فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذلّه، والحمد للّه ربّ العالمين.

كتاب الاعتبار لابن منقذ ١١٤

هوامش الفصل الثامن

(١) نجم الدين: هو الملك الأفضل نجم الدين أيّوب بن شاذي بن مروان، أبو الشكر، والد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وإليه ترجع نسبة الأيوبيين جميعاً. أصله من دوين (في أواخر إقليم أذربيجان، تجاور بلاد الكرج)، وولي أبوه قلعة تكريت، فكان أيوب معه فيها إلى أن مات، وولي مكانه، ثم عُزِل عنها فرحل إلى الموصل، فأقام مدّة وولي قلعة بعلبك، ثم انتقل إلى دمشق فأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي. وولي ابنه صلاح الدين وزارة الديار المصرية أيّام العاضد، فدعاه إليه، فانتقل أيّوب إلى مصر سنة ٥٦٥ هـ، وخرج العاضد للقائه إكراماً لولده صلاح الدين، ولمّا انفرد صلاح الدين بالسلطنة أقطعه الاسكندرية والبحيرة إلى أن مات ودفن في القاهرة من سقطة عن فرسه سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٣م، ثم نُقل إلى المدينة المنوّرة. وكان خيّراً جواداً عاقلاً، فيه دهاء، رأى من أولاده عدّة ملوك حتى صار يقال له: «أبو الملوك»، أنظر الأعلام للزكلي ٢/ ٣٨.

(٢) كونت فلاندر: هو ثييري Thierry كونت الفلاندرز.

(٣) قلعة داريّا: لم يصل إلى علمي وجود قلعة في مدينة داريّا، خصوصاً وأنها اليوم بجوار العاصمة دمشق من جهة الغرب وعلى بعد ٨ كيلومترات منها، كما لم تذكر المصادر المطبوعة مثل هذه القلعة، وتقع داريّا في أرض سهلية فسيحة تكتنفها الجبال من الشمال الغربي والجنوب، مثل جبل عنتر وجبل داريّا، إعمارها قديم، وعثر فيها على آثار تعود إلى العهد الروماني منها تمثال لإله الحب عند الرومان «إيروس»، وكانت مجمعاً «لآل جفنة» ملوك الغساسنة. وبعد ظهور الاسلام سكنتها بعض القبائل العربية من «عنس وخولان»، ونزل بها بعض الصحابة والتابعين، وقد شاركت في الأحداث السياسية التي تعرّضت لها مدينة دمشق، كالفتن بين القيسية واليمنية، وتعرّضت للتخريب والحرق، وجدّدها نور الدين محمود بن زنكي. أنظر المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٣/ ٢٩٩.

أقول: تخبّط كثير من الباحثين حول منشأ اسم «داريّا»، فمنهم من أرجعها إلى «دير ريّا» وهي ابنة ملك من ملوك دمشق بنت فيها ديراً فعرفت به. ومنهم من يقول بأن الاسم من السريانية: دْرُوْيِي (ܕܪܘܝܐ) بمعنى: دُور ومنازل. ولكن الاحتمال الأكبر كونه من السريانية: دَيْرُوَيُو (ܕܝܪܘܝܐ) وتعني: ناسك، متعبّد، راهب. ويكون معناها (قرية الناسك).

(٤) شيركوه: هو الملك المنصور شيركوه بن شاذي بن مروان، أبو الحارث، أسد الدين، وعمّ صلاح الدين الأيوبي، وكلمة شيركوه أعجمية بمعنى: «أسد الجبل» أو «أسد الغابة». ولد في زمن غير معروف، وصار من كبار قوّاد جيش نور الدين الزنكي، فأرسله إلى مصر على رأس جيش لنجدة شاور بن مجير السعدي سنة ٥٥٨ هـ، وذهب إليها ثانية لنجدة ابن أخيه صلاح الدين سنة ٥٦٢ هـ، وثالثة إلى بلدة «بلبيس» المصرية فطرد الفرنج منها، ومنحه الخليفة الفاطمي «العاضد بالله» لقب الملك المنصور وولاه الوزارة، وتوفي بالقاهرة سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م، ثم نُقل جثمانه ودفن في المدينة المنوّرة بوصيّة منه. وكان شيركوه عاقلاً شجاعاً مدبّراً وقورا، أنظر الأعلام للزكلي ٣/ ١٨٣.

(٥) قلعة الحبيس جلّدك: ورد ذكرها في تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٥٦٦ دون أن يعلّق عليها المترجم ولو بحاشية، و لم أجد لها ذكر في المصادر العربية، وأرجّح أنها كانت حصناً غير مشهور تاريخياً.

(٦) البُطَيحة: لم أجد في «معجم بلدان فلسطين» قرية بها الاسم، بل سهلاً على الجانب الشمالي الشرقي لبحيرة طبريّا يرويه نهر الأردن. كما لم يرد اسم البطيحة في «المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري».

الفصل التاسع

تراجم
لمن كتب من العرب و المسلمين
عن محاولات اقتحام دمشق
في الحملتين الأولى والثانية

إبن القَلانِسي

(توفي ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م)

حمزة بن أسد بن عليّ بن محمّد التميمي المعروف بابن القلانسي، أبو يعلى، مؤرّخ ثقة، من أهل دمشق، تولّى رئاسة كتّابها مرتين، وكان أديباً، له إنشاء جيّد وشعر حسن، وعناية بالحديث، ولد بدمشق عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢م، وتوفي بها عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م.

الأعلام للزركلي ٢/ ٢٧٦

أقول: له كتاب (ذيل تاريخ دمشق)، طُبع في القاهرة بمكتبة المتنبّي دون ذكر تاريخ للطباعة ولا اسم المحقّق، وفي نهايته تكملة من منتخبات تواريخ ابن الأزرق الفارقي، وسبط بن الجوزي، والحافظ الذهبي.

وهناك طبعة أخرى من الكتاب باسم (تاريخ دمشق) صدرت عن دار حسّان للطباعة والنشر بدمشق عام ١٩٨٣، قام بتحقيقها الدكتور سهيل زكّار، لكنها لا تحوي على التكملة المنشورة في الطبعة المصرية.

والنص الذي كتبه حول محاولات احتلال الفرنج لدمشق، من أغنى النصوص وأكثرها تفصيلاً ودقّة وأمانة تاريخية، سيّما وأنه كان شاهد عيان بحكم عمله فيها، وعاصر الأحداث وعايش تلك الفترات العصيبة التي مرت بالمدينة.

تاريخ

أبي يعلى حمزة ابن القلانسي

المعروف

بذيل تاريخ دمشق

تتلوه نخب من تواريخ

ابن الأزرق الفارقي

وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي

مكتبة المتنبي

القاهرة

العَظِيمي

(توفي ٥٥٦ هـ/ ١١٦١م)

محمّد بن علي بن محمّد بن أحمد بن نزار، أبو عبد الله التنوخي الحلبي، المعروف بالعَظِيمي، مؤرّخ، له شعر، من أهل حلب، ولد سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠م، وتوفي سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦١م، وعمل في حياته مدرّساً في حلب، وزار دمشق عدّة مرّات، واجتمع بابن عساكر والسمعاني. من كتبه مخطوط «تاريخ العظيمي» مرتّب على السنين، ونقل عنه ابن خلّكان وغيره من كتّاب التراجم، وانتهى فيه إلى حوادث سنة (٥٣٨ هـ)، ونشرت مجلة (Journal Asiatique 1938 P. 353-44) قطعة كبيرة منه نقلاً عن مخطوطة محفوظة في الآستانة كتبت سنة ٦٣٣ هـ وهي في ٢١٧ ورقة.

وله كتاب «تاريخ حلب» حقّقه ونشره إبراهيم زعرور عام ١٩٨٤.

الأعلام للزركلي ٦/ ٢٧٧

أقول: العظيمي هو أقرب المؤرخين للأحداث بعد ابن القلانسي، ذكر محاولة احتلال دمشق سنة ٥٢٣ هـ في كتابه «تاريخ حلب»، وعنه نقلنا النصّ المجزوء والمختصر كثيراً عن نصّ ابن القلانسي، وأعتقد أن السبب في ذلك كونه من أهل حلب وفيها عاش، لكنه قام بزيارة دمشق أكثر من مرّة.

تاريخ حلب

محمد بن علي العظيمي الحلبي

٤٨٣ - ٥٥٦ هـ / ١٠٩٠ - ١١٦١ م

حققه وقدم له

ابراهيم زعرور

دمشق ١٩٨٤

أسامة بن مُنْقِذ

(توفي ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م)

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، أبو المظفّر، مؤيّد الدولة، أمير، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر قرب مدينة حماة، ومن العلماء الشجعان، ولد في شيزر سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م، وسكن دمشق، وانتقل إلى مصر سنة ٥٤٠ هـ، وقاد عدّة حملات على الصليبيين في فلسطين، وعاد إلى دمشق، ومنها إلى حصن كيفا حيث أقام فيه إلى أن ملك السلطان صلاح الدين الأيوبي دمشق، فدعاه السلطان إليه، فأجابه وقد تجاوز الثمانين، وتوفي فيها سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م.

له تصانيف في الأدب والتاريخ منها «الاعتبار»، و«القلاع والحصون»، و«لباب الآداب»، و«البديع في نقد الشعر»، و«المنازل والديار» وغير ذلك.

الأعلام للزركلي ١/ ٢٩١

أقول: جاء نصّه في كتاب «الاعتبار» حول حصار دمشق سنة ٥٤٣ هـ شديد الاختصار، وفيه روح من نصّ ابن القلانسي. والغريب في أمر كتابه المذكور أنه أغفل التواريخ الزمنية للأحداث التي يذكرها. ولقد عثرت فيه على نصّ غريب عجيب حول محاولة لاحتلال دمشق مجهولة التاريخ، ولم أجد مثل هذا النصّ عند أي مؤرّخ آخر.

كتاب الاعتبار

لأُسامة بن منقذ

وهو مؤيّد الدولة أبو مظفّر أسامة بن مُرشد الكِناني الشّيزري

عن النسخة الفريدة المحفوظة في مكتبة الاسكوريال باسبانيا

حرّره

فيليب حتي، د. ف.

مطبعة جامعة برنستون
الولايات المتحدة
١٩٣٠

ابن الأثير

(توفي ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م)

علي بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أبو الحسن، عزّ الدين ابن الأثير، المؤرّخ الإمام، ومن العلماء بالأنساب والأدب، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م، وسكن الموصل، وتجوّل في البلدان، وعاد إلى الموصل وتوفي فيها سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م. وكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء. من تصانيفه «الكامل في التاريخ» مرتّب على السنين، بلغ فيه سنة ٦٢٩ هـ، واعتمد عليه أكثر من جاء بعده من المؤرّخين. و«أسد الغابة في معرفة الصحابة»، و«اللباب» في الأنساب، و«التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»، و«الجامع الكبير» في البلاغة، و«تاريخ الموصل» لم يتمّه.

الأعلام للزركلي ٤/ ٣٣١

أقول: يعتبر ابن الأثير من أعظم مؤرّخي القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، وجائت النصوص التي دوّنها في «الكامل» وكرّرها في «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية» في أحداث سنة ٥٤٣ هـ حول المحاولات الصليبية لاحتلال دمشق غنية بالتفاصيل المستوحات من ابن القلانسي.

سبْط ابن الجَوْزي
(توَفي ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م)

يوسف بن قِـزْأوغلي أو - قِـزُغلي - ابن عـبـد اللّه، أبو المظفّـر، شمس الدين، سبط أبي الفرج ابن الجوزي، مؤرّخ، ومن الكتّاب الوعّاظ، ولد في بغـداد سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥م، وبهـا نشـأ، وربّاه جـدّه، وانتـقـل إلى دمشق فـاستوطنهـا وتوفي فيهـا سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م. من تصـانيفه الكثيرة «مرآة الزمـان في تاريخ الأعيـان»، و«تذكرة خواص الأمّة بذكر خـصـائص الأئمّة» و«الجليس الصالح»، و«كنز الملوك في كيفية السلوك»، و«حكايات ومواعظ»، و«مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة»، و«الانتصار والترجيح»، و«اللوامع» وغير ذلك مما كثر.

الأعلام للزركلي ٨/ ٢٤٦

أقول: طبعت جامعة (أم القرى) في السعودية الجزء الأول والثاني فقط من كتابه «مرآة الزمان» ويغطي حتى سنة ٥١٧ هـ.

كمـا قام الدكتـور سهيل زكّار بنشر جزء من المخطوط الأصلي في كتابه (الحروب الصليبية) معتمداً على نسخة المخطوط المحفوظ في مكتبة أحمد الثالث في اسطنبول برقم ٢٩٠٧ - الجزء الثالث عشر.

وقد تفضّل الدكتـور زكّار مشكوراً بالسـماح لـي بنشـر النصـوص

المتعلّقة بأحداث دمشق من هذا المخطوط.

وفي المخطوط وصف للمحاولات الثلاث لاقتحام دمشق خلال السنوات ٥١٩ هـ، ٥٢٣ هـ، ٥٤٣، ويبدوا من سياقها أنها تكرار مع قليل من التصرّف عن ابن القلانسي أو ابن الأثير، وفيها قليل من الإضافات لبعض الأسماء لعله نقلها من مصدر آخر.

أبو شَامَة

(توفي ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧م)

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، أبو القاسم، شهاب الدين، أبو شَامَة، لُقّب بذلك لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر. مؤرّخ، محدّث، باحث، أصله من القدس، ولد في دمشق سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢م، ونشأ فيها، وولّي مشيخة دار الحديث الأشرفية، ودخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه، فمرض وتوفي سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧م. من تصانيفه الكثيرة «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» النوريّة والصلاحية، و«ذيل الروضتين»، و«مختصر تاريخ ابن عساكر»، و«تاريخ دمشق» وغير ذلك مما كثير، وقد وقف كتبه ومصنّفاته جميعها في الخزانة العادلية بدمشق، فأصابها حريق التهم أكثرها.

الأعلام للزركلي ٣/ ٢٩٩

أقول: لم يتعرّض أبو شامة في كتابه «الروضتين» لذكر محاولتي ٥١٩ هـ و ٥٢٣ هـ، واكتفى باختصار نصّي ابن القلانسي وابن الأثير حول حصار دمشق سنة ٥٤٣ هـ. أمّا محاولة ٥٥٣ هـ فاختصرها من ابن القلانسي غير أن النصّ جاء مضطرباً، وتسلسل الأحداث فيه غير واضح.

أبو الفداء

(توفي ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م)

إسماعيل بن علي بن محمود بن محمّد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيَّد، صاحب حماة، مؤرّخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب وعلم الهيأة، ونظم الشعر وليس بشاعر، وأجاد الموشّحات، ولد في دمشق سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣م، ونشأ بها، ورحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر محمّد بن قلاوون المملوكي، فأحبّه الناصر وأقامه سلطاناً مستقلاً في حماة سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠م (وكان الوحيد من بقايا الأيوبيين الذي حكم في العهد المملوكي)، فانصرف إلى حماة، فقرَّب العلماء ورتّب لبعضهم المرتّبات، وحسنت سيرته، واستمرّ في الحكم حتى توفي سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م.

له كثير من المؤلّفات، أشهرها «المختصر في تاريخ البشر» تُرجم إلى الفرنسية واللاتينية وقسم منه إلى الانكليزية، و«تقويم البلدان» تُرجم إلى الفرنسية، وغيرهما.

الأعلام للزركلي ١/ ٣١٩

أقول : أبو الفداء متأخر عن تاريخ حصار دمشق سنة ٥٤٣ هـ بما يزيد عن قرن ونصف، في كتابه «المختصر في تاريخ البشر» الذي نقلنا عنه النصّ المختزل عمن سبقوه طبّق الحكمة القائلة : (خير الكلام ما قلّ ودلّ).

اليافعي

(توفي ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧م)

عبد اللّه بن أسعد بن علي اليافعي، عفيف الدين، مؤرّخ، باحث، متصوّف، من شافعية اليمن، نسبته إلى يافع بن حمير. ولد ونشأ في عدن سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨م، وحجّ سنة ٧١٢ هـ وعاد إلى اليمن، ثم رجع إلى مكّة سنة ٧١٨ هـ، فأقام، وفيها توفي سنة توفي ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧م.

من كتبه «مرآة الجِنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان» أربعة مجلدات، و«نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية»، و«الدرّ النظيم في خواصّ القرآن العظيم» وغير ذلك. كثير.

الأعلام للزركلي ٤/ ٧٢

أقول : اليافعي من المؤرّخين المتأخّرين عن محاولات احتلال دمشق بما يزيد قليلاً عن القرنين. لذلك لم يعايش الأحداث أو يشهدها، وكبقية من تقدّم عنها، نقل في كتابه (مرآة الجِنان) عمن سبقه من المؤرّخين خصوصاً ابن الأثير، وكان نقله حرفياً تقريباً.

ابن كَثِيْر

(توفي ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣م)

إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ مؤرّخ فقيه، ولد بقرية من أعمال بصرى بحوران سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠٢م، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ، ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق سنة ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣م.

من مصنّفاته الكثيرة «البداية والنهاية» في التاريخ وينتهي بسنة ٧٦٧ هـ، و«شرح صحيح البخاري»، و«طبقات الفقهاء الشافعيين» و«الاجتهاد في طلب الجهاد» وغير ذلك كثير.

الأعلام للزركلي ١/ ٣٢٠

أقول: المشكلة عند ابن كثير أنه من المؤرّخين المتأخّرين، وبينه وبين الحملات الصليبية على دمشق ما يزيد عن القرنين، لذلك جاءت نصوصه في مصنّفه (البداية والنهاية) منقولة ومختصرة عمن سبقه كابن الأثير وغيره.

ابن خَلْدُون

(توفي ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م)

عبد الرحمن بن محمّد بن محمّد، ابن خلدون، أبو زيد، وليّ الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر، فيلسوف مؤرّخ، وعالم اجتماع باحث. أصله من إشبيلية، ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢م، ونشأ بها، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ودمشق، وتولى أعمالاً، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس، ثم توجّه إلى مصر، فأكرمه سلطانها المملوكي الظاهر برقوق، وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزيّ بزيّ القضاة محتفظاً بزيّ بلاده، وعزل، وأعيد، وتوفي فجأة سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م.

الأعلام للزركلي ٣/ ٣٣٠

أقول: من المؤرّخين المتأخرين جداً عن أحداث دمشق في الحملات الصليبية عليها بما يزيد عن قرنين ونصف، ولم تكن نصوصه إلا نقلاً عمن سبقه، خصوصاً ابن الأثير، لكنها جاءت مجزوءة مهلهلة الأحداث فيها كثير من أسماء الأماكن المغلوطة والتي صحّحتها في نصّه.

سيِّد علي الحَرِيري

(توفي بعد ١٣١٧ هـ/ بعد ١٩٠٠م)

كاتب مصري مجهول الترجمة، ليس بمؤرّخ، عُرف بتصنيفه كتاب «الأخبار السنيّة في الحروب الصليبية»، وفرغ منه عام ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩م.

وجاء في معجم المؤلّفين: علي الحريري، من علماء أول القرن الرابع عشر الهجري، له الأخبار السنيّة في الحروب الصليبية. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ.

وفي إيضاح المكنون: الأخبار السنيّة في الحروب الصليبية للسيّد علي الحريري المصري في وقائع ٤٩٠ إلى ٦٩٠ هـ. أوّله الحمد للّه الذي جعل تاريخ الأولّين عبرة للآخرين. في مجلّد مطبوع. وفي معجم المطبوعات العربية: الأخبار السنيّة في الحروب الصليبية. مصر ١٣١٧ هـ.

طُبع هذا الكتاب للمرّة الأولى في القاهرة سنة ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩م، وأعيد طبعه في مطبعة النيل سنة ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١م، وطبع للمرّة الثالثة بدار التضامن ومؤسّسة دار الكتاب الحديث في بيروت سنة ١٩٨٨م، وقام بتحقيقه الدكتور عصام محمّد شبَارو.

الحروب الصليبية للحريري ٥

أقول: الحريري من الكتّاب المتأخّرين كثيراً، وكتابه منقول بكامله ممن سبقه كابن الأثير بصورة خاصّة، لكنه كتاب جيّد في معلوماته وسبكه وتسلسل أحداثه ولغته، وأحياناً إعادة صياغة بعض الجمل المشوّشة أصلاً.

تراجم
لمن كتب من غير العرب و المسلمين
عن محاولات اقتحام دمشق
في الحملتين الأولى والثانية

ابن العِبْرِي

(توفي ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦م)

غريغوريوس، أبو الفرج، جمال الدين، ابن الشمّاس تاج الدين هارون المتطبّب، ابن توما الملطيّ، السرياني، الشهير بابن العِبْري، نسبة إلى قرية (عِبْرا) على نهر الفرات بالقرب من مدينة ملطية (ملاطية) في أواسط تركيا اليوم.

ويعلّق ابن العبري على لقبه هذا بقوله: (إذا كان سيّدنا المسيح سمّى نفسه سامرياً فلا غضاضة عليك إن دعوك بابن العبري، لأن مصدر هذه التسمية نهر الفرات، لا ديناً معيباً، ولا لغة عبريّة).

ولد غريغوريوس ابن العبري سنة ١٢٢٦م، وترهّب في أنطاكية سنة ١٢٤٤م، حيث سيم كاهناً، وأصبح في العشرين من عمره أسقفاً على «جوباس»، ومنها نُقل إلى أسقفيّة «لاقَبين»، ثم إلى «حلب»، وفي سنة ١٢٦٤م رقّي إلى مقام (المفريان)، أي كبير رئيس أساقفة، وهو نائب عام لبطريرك أنطاكية لبلاد الشرق التي كانت آنذاك تحت السيطرة المغوليّة. وتنقّل خلال اثنتين وعشرين سنة، لممارسة وظيفته، بين بغداد وتكريت والموصل ودير مار متّى الكبير (قرب الموصل) في العراق، وأذربيجان، خصوصاً تبريز ومراغة التي توفي فيها سنة ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦م.

وخلال إقامته في «مراغة» وكان صاحب المقام الأعلى لكنيسته في المملكة المغولية، دعي للتعاون مع الخواجة نصير الدين الطوسي في

الاشراف على المرصد المتطوّر الذي بناه هولاكو في مراغة وجمع فيه علماء من جنسيّات مختلفة، منهم الصيني (فومانغ شي).

أكمل ابن العبري تاريخ بطريرك أنطاكية ميخائيل الأول، المعروف بميخائيل السرياني حتى سنة ١٢٨٦م، أي بإضافة تسعين سنة إليه، لأن ذلك التاريخ يتوقّف عند سنة ١١٩٦م، وسمّاه (تاريخ الزمان) ويعرف أيضاً (بتاريخ الدول السرياني)، ونقله إلى العربية الأب إسحق أرملة، وصدر تباعاً في مجلة المشرق بين السنوات ١٩٤٩ - ١٩٥٦م، وفي عام ١٩٨٦ جمعته (دار الشروق ش م م) ببيروت في كتاب واحد اسمه (تاريخ الزمان).

تاريخ الزمان لأبي الفرج جمال الدين ابن العبري ١١

أقول: لم يأت ابن العبري بجديد عمن سبقه من المؤرّخين العرب والمسلمين. وكان كتابه (تاريخ الزمان) الذي نقلنا عنه النصّ تتمّة لتاريخ ميخائيل الأول السرياني بطريرك أنطاكية. والشيء الملفت للنظر أنه ذكر في نصّه مطالعته لخمسة كتب عربية مختلفة ليتحقّق من حكاية الذهب المزيّف الذي قدّمه معين الدين أنر لملكيّ القدس وطبرية، فلم يعثر عليها.

فياليته ذكر لنا أسماء تلك الكتب أو أسماء كتّابها، إذن لاستطعنا أولاً معرفة مصادره بشكل أدقّ، وثانياً ربما كانت هذه الكتب أو بعضها مما لم يصلنا، وما أكثر ما ضاع منها بالتلف أو الحريق أو هجمات المغول والتتار.



تاريخ الزمان

لأبي الفرج جمال الدين ابن العبري

نقله إلى العربية

الأب إسحق أرملة

وصدر تباعاً في مجلة المشرق (١٩٤٩ - ١٩٥٦)

قدم له

الأب الدكتور جان موريس فييه

صدر لمناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف

١٢٨٦ - ١٩٨٦



دار المشرق ش م م

ولْيَم الصُوْري

William of Tyre

(وفاته ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م ومختلف فيها)

يعتبر وليم الصوري من أعظم مؤرّخي العصور الوسطى، على الرغم مما اتّصف به من آراء شخصية متحيّزة، ومن كراهيته لسيطرة العلمانيين على الكنيسة.

ولد وليم الصوري في الشرق، بالقدس غالباً، قبيل سنة ١١٣٠م، ومن المرجّح أنه تعلّم بمدارسها في طفولته العربية واليونانية، إلى جانب اللاتينية والعبرية والفارسية. ثم سافر إلى فرنسة لاستكمال تعليمه، وعاد إلى فلسطين فصار حوالي سنة ١١٦٠م، رئيساً لشمامسة مدينة «صور» وإليها نُسب، ثم أضحى في الفترة الواقعة بين ١١٧٠ - ١١٧٤م رئيساً لديوان الرسائل بالمملكة، وقام أيضاً بتأديب الملك المقبل (بلدوين الرابع)، وفي سنة ١١٧٥م تقلّد رئاسة أسقفية صور.

ولمّا فشل سنة ١١٨٣م في أن يصبح بطريركاً، لجأ إلى روما، وأقام فيها حتى وفاته قبل سنة ١١٨٧م.

وفي سنة ١١٦٩م بدأ بكتابة تاريخه وعنوانه باللاتينية:

Historia rerum in partibus transmarinis gestarum

أما نسخته باللغة الفرنسية القديمة القريبة من اللاتينية فعنوانها:

L'Estoire de Eracles, Empereur, et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ibid.

والنسخة الانكليزية :

History of Deeds Done Beyond the Sea.

أي (تاريخ ما جرى من الأمور فيما وراء البحار)، ويتناول دراسة الفترة الواقعة بين ١٠٩٥ - ١١٨٤م، وقسّمه إلى عدة كتب، من الكتاب الأول حتى الثالث والعشرين، وفرغ من الكتاب الثالث عشر سنة ١١٨٣م ، فحمل جميع ما كتب إلى روما، وأكمل العمل فيها حتى وفاته .

تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان ٢/ ٧٧٢

الحروب الصليبية لزكّار ١/ ٩١

أقول : أمّا الكتاب السابع عشر من تاريخه فيشتمل على وصف موسّع ومفصّل للاجتماع الذي جرى في مدينة عكّا الساحلية في عام ١١٤٨م لدراسة وتحضير الهجوم على دمشق، والذي نجم عنه الاتفاق على الخطّة وتحديد (ساعة الصفر) في شهر تموز من نفس العام .

كما يعدّد أسماء من حضره كملك ألمانيا كونراد الثالث، وملك فرنسة لويس السابع، وحاشيتهما من الأمراء ذوي المناصب الرفيعة، وكذلك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس وأساقفتها والأمراء والمقدّمين . وفي الكتاب تعداد لأسماء من حضروا وألقابهم ومراتبهم .

ثم ينتقل إلى الحديث عن أوضاع مدينة دمشق، وذكر اشتقاق اسمها، ووصفِ موقعها الجغرافي وأنهارها وبساتينها . بعدها يذكر توزيع المهام القتالية لكلٍ من ملك ألمانيا وفرنسة وبيت المقدس .

ثم يصف أحداث الحملة خلال الحصار وما جرى فيها من معارك

والتحامات، ويضيف تحليلاً دقيقاً لنفسيات المقاتلين من الفرنج، ولا ينسى المبالغة في تمجيد بطولة ملك الألمان وملك فرنسة في القتال. وينتهي إلى ذكر الخيانة التي وقعت في صفوف الفرنج، ثم اضطرارهم لرفع الحصار والتراجع نحو الأراضي المقدسة وفشل الحملة في تحقيق أهدافها.

ونشر الدكتور سهيل زكّار في كتابه (الحروب الصليبية) الصادر عن دار حسّان بدمشق عام ١٩٨٤م، الكتاب السابع عشر من تاريخه والمتعلّق بالحملة الصليبية الثانية.

وأمّا الهيئة العامّة المصرية للكتاب في القاهرة فنشرت كامل تاريخ وليم الصوري تحت عنوان (الحروب الصليبية)، من الكتاب الأول حتى الثالث والعشرين، وقام الدكتور حسن حبشي بترجمته والتعليق عليه، وتم طبعه بين السنوات ١٩٩١ - ١٩٩٥م.

وعنه نقلنا النصّ المتعلّق بحصار دمشق.

الحروب الصليبية لوليم الصوري ٣/ ٣٠٥

الحروب الصليبية للدكتور زكّار ١/ ٤٢٩

الحروب الصليبية

الجزء الثالث

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

ستيفن رَنسيمان
Steven Runciman

هو الابن الثاني للفيكونت رنسيمان أوف دو كسفورد، ولد عام ١٩٠٣م، وتلقى تعليمه في ايتون، وأتمّ دراسته الجامعية في بكلية ترينيتي بجامعة كمبردج في إنكلترا .

وظل عضواً بكلية ترينيتي خلال السنوات ١٩٢٧ - ١٩٣٨م، وفي عام ١٩٤٠م صار ملحقاً صحفياً بالمفوّضيّة الانكليزية في صوفيا ببلغاريا، ومنها انتقل إلى السفارة البريطانية بالقاهرة عام ١٩٤١م .

وقام بتدريس الفن والتاريخ البيزنطي في جامعة اسطنبول بين السنوات ١٩٤٢ - ١٩٤٥م .

ثم أضحى ممثّلاً للمجلس البريطاني في بلاد اليونان خلال ١٩٤٥ - ١٩٤٧م . وعاد إلى التدريس مرة أخرى في كلية مودلين بجامعة أكسفورد بانكلترا، وكذلك في جامعة سانت أندروز، ورأس الجمعية الانكليزية اليونانية . وفي عام ١٩٥٨م حاز على لقب فارس Knite .

ورَنسيمان من الكتّاب الحديثين، ويُعتبر كتابه (تاريخ الحروب الصليبية History of the Crusades) من الكتب القليلة في موضوعيتها وعدم مغالاتها في الوقائع من وجهة النظر الدينية والتاريخية، إضافة إلى توخّيه الدقّة في عرض التفاصيل الدقيقة ومحاكمتها، وأحياناً نقدها بكل صراحة وموضوعية .

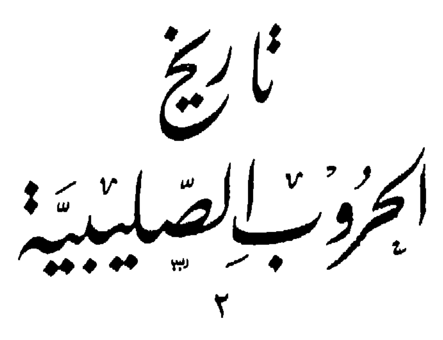
وطُبع هذا الكتاب في Cambridge University Press خلال

السنوات ١٩٥١ - ١٩٥٤م، وأعيد طبعه بثلاثة مجلّدات بعد تنقيحه عام ١٩٨٠م، ثم قام الأستاذ الدكتور السيّد الباز العريني استاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة بترجمته إلى العربيةونشرته دار الثقافة في بيروت بلبنان خلال السنوات ١٩٦٧ - ١٩٦٩م.

تاريخ الحروب الصليبية لرَنسيمان

* * * * *

ستيفن رنسيمان



٢

مملكة بيت المقدس

١١٠٠ - ١١٨٧ م

نقله الى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني

استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة - بيروت، لبنان

ميخائيل زابوروف
Michel A. Zaborov

مؤرّخ سوفيتيّ معاصر معروف، ولد عام ١٩٢٠م، ونال درجة الدكتوراة في التاريخ، وعكف على دراسة الحروب الصليبية فوضع فيها عديداً من البحوث والمقالات والكتب، ومن أشهر كتبه:

١ - «الحروب الصليبية» صدر عام ١٩٥٦م.

٢ - «البابويّة والحروب الصليبية» صدر عام ١٩٦٠م.

٣ - «الصليبيون وحملاتهم إلى الشرق» صدر عام ١٩٦٢م.

٤ - «مقدمة في علم تاريخ الحروب الصليبية» صدر عام ١٩٦٦م.

٥ - «علم تاريخ الحروب الصليبية (الأدب) من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر» صدر عام ١٩٧١م.

٦ - «تاريخ الحروب الصليبية في الوثائق والمواد» صدر عام ١٩٧٧م.

٧ - «بالصليب والسيف» صدر عام ١٩٧٩م.

٨ - «الصليبيون في الشرق» صدر عن دار التقدّم بموسكو عام ١٩٨٠م، وترجمه إلى العربية الياس شاهين وطبع في نفس الدار عام ١٩٨٦م، وهو الكتاب الذي أخذنا عنه بعض النصوص القليلة.

وقد تُرجم عدد كبير من كتب زابوروف ومقالاته إلى الإنكليزية والبلغارية والاسپانية والألمانية واليابانية والتشيكية وغيرها من اللغات.

المصادر العربية

حرف أ
حرف ب

- البداية والنهاية : ابن كثير ، دار التراث العربي ، بيروت ١٩٨٨ .

حرف ت

- تاريخ دمشق : ابن القلانسي ، تحقيق د . سهيل زكّار ، دار حسّان ، دمشق ١٩٨٣ .
- تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر ، تحقيق د. صلاح الدين المنجّد ، مجلّد ١ ، ٢ ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٥١ .
- تاريخ حلب : محمّد بن علي العظيمي الحلبي ، تحقيق ابراهيم زعرور ، دمشق ١٩٨٤ .
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية : ابن الأثير ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ودار المثنّى ببغداد ١٩٦٣ .
- تاريخ الحروب الصليبية : ستيڤن رنسيمان ، ترجمة د . السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ١٩٦٨ .
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين : د. فيليب حِتّي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٢ .

- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام: أحمد علي اسماعيل، الشركة المتّحدة للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٣ .

حرف ث
حرف ج
حرف ح

- الحروب الصليبية: د. سهيل زكّار، دار حسّان، دمشق ١٩٨٤ .
- الحروب الصليبية: وليم الصوري، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، سلسلة تاريخ المصريين (٤٥، ٥٥، ٦٨، ٧٧)، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة ١٩٩١ - ١٩٩٥ .
- الحروب الصليبية: سيد علي الحريري، دار التضامن، بيروت ١٩٨٨ .
- الحروب الصليبية: أرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ١٩٦٧ .
- الحروب الصليبية: أمين معلوف، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الفارابي، ط ٢، بيروت، لبنان ١٩٩٣ .

حرف خ

- خطط دمشق: أكرم حسن العلبي، دار الطبّاع، دمشق ١٩٨٩ .

حرف د

- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبَرْبَر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨ .
- الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النعيمي، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٨ .
- الدبّابات: العميد الركن محمّد وليد الجلاّد واللواء أحمد يوسف، دمشق ١٩٨٤ .

حرف ذ

- ذيل تاريخ دمشق: ابن القلانسي، مكتبة المتنبي، القاهرة (بلا تاريخ).

حرف ر

- الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة، دار الجيل، بيروت (بلا تاريخ).

حرف ز

حرف س

حرف ش

حرف ص

- الصليبيون في الشرق: ميخائيل زابوروف، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦.

حرف ض
حرف ط
حرف ظ
حرف ع

- عيون الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة، تحقيق أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١.
- العسكرية العربية الاسلامية: اللواء الركن محمود شيت خطّاب، دار الشروق، بيروت والقاهرة ١٩٨٣.

حرف غ
حرف ف
حرف ق

- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: ابن طولون، تحقيق محمّد أحمد دهمان مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٠.

حرف ك

- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦.
- كتاب الاعتبار: أسامة بن منقذ، تحقيق د. فيليب حتّي مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٠.

حرف ل

حرف م

- المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء، مكتبة المتنبّي، القاهرة (بلا تاريخ).
- مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب: ابن واصل، مصر (بلا تاريخ).
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان: عبد اللّه بن أسعد اليافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية: د. قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥م.
- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري: مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٩٢.
- من ذكريات الغزو الفرنجي: د. شاكر مصطفى، دار طلاس، دمشق ١٩٩٦

حرف ن

حرف هـ

- هنا بدأت الحضارة : د. قتيبة الشهابي ، دار الأبجدية ، دمشق ١٩٨٨ .

حرف و

- وفـيّـات الأعـيـان : ابن خلّكان ، منشـورات الشـريف الرضي ، قمّ ، الجمهورية الإسلامية الإيرانية .
- ولاة دمشق في العهد السلجوقي : د. صلاح الدين المنجّد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٨١ .

حرف ي

* * * * *

المصادر الأجنبية

- Encyclopedia Americana .
- Larousse Encyclopedia .
- The Reader's Digest Great Encyclopaedic Dictionary
- Grolier Encyclopaedia .
- Encarta Encyclopaedia .
- De Prefectione LudoviciVII regis Francorum in Orientem; Odo de Deuil.
- History of the Crusades; Steven Ranciman.
- Supplément aux Dictionnaires Arabes; R. Dozy, Librairie du Liban 1991.
- The Crusades and the Holy Land; Georges Tate, Thames and Hudson, London 1991.

معجم المصطلحات العربية والانكليزية

Holy Lands	الأراضي المقدّسة
Arnold of Brescia	أرنولد أمير بريسيا
Iznik	إزنيك : نيكايي : نيقية
Eski şhehir	أسكي شهر : دوريلايم
Moslems & Franks Weapons	أسلحة المسلمين والفرنج
Bavaria	إقليم باڤاريـــا
Bohemia	إقليم بوهيميا
Provence	إقليم پروڤانس
Normandy	إقليم نورمانديا
Aquitaine	أكوتين
Manganon	الآلة الحربية (كلمة يونانية تفيد : المنجنيق)
Eleanor of Aquitaine	إليانور أميرة أكوتين
Alexius I Comnenus	أليكسيوس الأول كومنينوس
Amalric I	أماريك الأول
Anjou	أنجو
Antioch	أنطاكية
Innocent III	إنوسنت الثالث
Innocent IV	إنوسنت الرابع

Pope Urban II	البابا أوربان الثاني
Pope Victor II	البابا فكتور الثاني
Baniyas	بانياس
Tower	البرج
Bourgeoisie	البرجاسيّة
Bernard	برنارد
Bernardo Paganelli	برناردو پاگانيلّي
Bethlehem	بيت لحم
Hungary	بلاد المجر
Baldwin II	بلدوين الثاني
Baldwin III	بلدوين الثالث
Bohemond of Taranto	بوهمند أمير تورنتو
Bohemund II	بوهمند الثاني
Beirut, Beyrouth	بيروت
Bethlehem	بيت لحم
Perche	پرشي
Prussia	پروسيا
Pisa	پيزا
Pella	پيلاّ
Retreat	التراجع
Turkoman	التركمان

Development of Crusaders Weapons	تطوّر أسلحة الصليبيين
Turbessel	تل باشر
Toul	تول
Theodora	تيودورا
Thierry	ثييري
Gadara	جدارا
Gerash	جرش
Genoa	جنوى
Pike	الحَرْبَة
Excommunication	الحرْم الكَنَسي
Crusades	الحروب الصليبية
Siege	الحصار
First Crusade	الحملة الصليبية الأولى
Disastrous Crusade	الحملة الكارثة
Hook	الخطّاف
Salvation	الخلاص وغسل الذنوب
Dagger	الخِنْجَر
Hammer	الدبّوس أو المطرقة
Armor; Armour	الدّرع
Damascus	دمشق
Damietta	دمياط

دوريلايم : إسكي شهر	Dorylaeum
دول المـدن	City States
ديكاپوليس	Decapolis
ديون	Dion
راؤول أمير ڤيرماندوا	Raoul of Vermandois
رأس الحربة	Arrowhead
رافانا	Raphana
راهب بَنَدَكتي	Cistercian
الرُّمح	Spear
الرها	Edessa
روجر الثاني	Roger II
ريتشارد الأول	Richard I
ريموند أمير تولوز	Raymond of Toulouse
الزَرَدِيّات	Chain Mail
زيت النّفط	Oil of Naphtha
سقيتوپولس	Scythopolis
السّلاجقة	Seljuqs
سلالة هوهنْشْتَوْفِن	Hohenstaufen
سلالم الحصار	Sieging Ladders
سوابياوباڤاريا	Swabia & Bavaria
سواسون	Soissons

Suger	سوكير
Sword	السيف أو الحسام
Champane	شامپانيا
Sidon, Sagitta	صيـدا
Tiberias	طبريـة
Tripoly	طرابلس
Ascalon	عسقلان
Acre	عكا
Battle-Ax	الفـأس أو البَلْطَـة
Fulk of An. Jou	فـولك كونـت أنجـو
Hospitaller: Hospitaler	فرسان الاسپتارية
Templars	فرسان الداويّة (فرسـان الهيكل أو المعبــد)
Franks	الفرنج
Frederick Barbarossa	فريدريك بارباروس
Frederick II	فريدريك الثاني
Florence	فلورنسا
Fulk V	فولك الخامس
Philadelphia	فيلادلفيا
Philippe II	فيليپ الثاني
Verona	ڤيرونا
Jerusalem	القدس

Constantinople	القسطنطينية
Longbow	القوس الطويل
Bow & Arrow	القوس والسهم (القوس والنَشّاب)
Hand Crossbow; Bow & Arrow	القَوْس والنَشّاب اليدوي
Konya	قونية
Caesarea	قيسارية
Callinicus	كالّينيكوس
Sulfur	الكبريت
Battering Ram	كَبْش النَقْب أو الخَرْق
Cluny	كلوني
Clairvaux	كليرڤو
Clermont	كليرمون
Kanatha	كناتا
Count	كونت (رتبة شرف)
Conrad III	كونراد الثالث
Constable	كونستابل
Godfrey of Bouillon	گودفري أمير بويون
Lother	لوثير
Lombardy	لومبارديا
Louis IX	لويس التاسع
Louis VII	لويس السابع

Manzikert	مانزيكرت
Manuel I Comnenus	مانويل الأول كومنينوس
Hungarians	المجريون
Tuscany	مدينة توسكاني
Lance	المِزْراق
Lorraine	مقاطعات اللورين
Flanders	مقاطعة الفلاندرز (الأراضي المنخفضة)
Burgundy	مقاطعة بورغاندي
Saxony	مقاطعة ساكسونيا
Latin Kingdom of Jerusalem	مملكة القدس اللاتينية
Mangonel: Ballista; Catapult	المَنْجَنيق أو العَرَّادَة
Metz	ميتز
Milan	ميلانو
Melisinde	ميليسيند
Nablus, Naplouse	نابلس
Greek Fire	النار الإغريقية
Nazareth	الناصرة
Saltpeter	نترات البوتاسيوم أو الصوديوم
Rhine	نهر الراين
Orontes	نهر العاصي
Nicaea	نيكايي : إزنيك : نيقية

Henry II	هنري الثاني
Henry The Proud	هنــري المتغطــرس
Hippos	هيبّوس
Hugh of Payens	هيو پاينز
Orontes Valley	وادي العاصي
Walter the Penniless	ولتر المُفْلِس
William de Bury	وليم دو باري
William of Tyre	وليم الصوري
Eugenius III	يوجينيوس الثالث

معجم المصطلحات الانكليزية والعربية

Acre	عكا
Aquitaine	أكوتين
Alexius I Comnenus	أليكسيوس الأول كومنينوس
Amalric I	أماريك الأول
Anjou	أنجو
Antioch	أنطاكية
Aquitaine	أكوتين
Armor; Armour	الدّرع
Arnold of Brescia	أرنولد أمير بريسيا
Arrowhead	رأس الحربة
Ascalon	عسقلان
Baldwin II	بلدوين الثاني
Baldwin III	بلدوين الثالث
Ballista; Mangonel; Catapult	المَنْجَنِيْق أو العَرّادَة
Baniyas	بانياس
Battering Ram	كَبْش النَقْب أو الخَرْق
Battle-Ax	الفأس أو البَلْطَة
Bavaria	إقليم باڤاريا

Beirut, Beyrouth	بيــروت
Bernard	برنارد
Bernardo Paganelli	برناردو پاگانيلّي
Bethlehem	بيت لحم
Bohemia	إقليم بوهيميا
Bohemund II	بوهمنـد الثانـي
Bohemond of Taranto	بوهمند أمير تورنتو
Bourgeoisie	البرجاسيَّة
Bow & Arrow	القوس والسهـم (القوس والنَشَّاب)
Burgundy	مقاطعة بورغاندي
Caesarea	قيسارية
Callinicus	كالّينيكوس
Catapult: Ballista; Mangonel	المَنْجَنيق أو العَرّادَة
Chain Mail	الزَرَدِيّات
Champane	شامپانيا
Cistercian	راهب بَنَدَكتي
City States	دول المـدن
Clairvaux	كليرڤو
Clermont	كليرمون
Cluny	كلوني
Conrad III	كونراد الثالث

Constable	كونستابل
Constantinople	القسطنطينية
Count	كونت (رتبة شرف)
Crusades	الحروب الصليبية
Dagger	الخِنْجَر
Damascus	دمشق
Damietta	دمياط
Decapolis	ديكاپوليس
Development of Crusaders Weapons	تطوّر أسلحة الصليبيين
Dion	ديون
Disastrous Crusade	الحملة الكارثة
Dorylaeum	دوريلايم : إسكي شهر
Edessa	الرها
Eleanor of Aquitaine	إليانور أميرة أكوتين
Eski şhehir	إسكي شهر : دوريلايم
Eugenius III	يوجينيوس الثالث
Excommunication	الحرْم الكَنَسي
First Crusade	الحملة الصليبية الأولى
Flanders	مقاطعة الفلاندرز (الأراضي المنخفضة)
Florence	فلورنسا
Franks	الفرنج

Frederick Barbarossa	فريدريك بارباروس
Frederick II	فريدريك الثاني
Fulk V	فولك الخامس
Fulk of An. Jou	فولك كونت أنجو
Gadara	جدارا
Genoa	جنوى
Gerash	جرش
Godfrey of Bouillon	گودفري أمير بويون
Greek Fire	النار الإغريقية
Hammer	الدبّوس أو المطرقة
Hand Crossbow; Bow & Arrow	القَوْس والنَشّاب اليدوي
Henry II	هنري الثاني
Henry The Proud	هنري المتغطرس
Hippos	هيبّوس
Hohenstaufen	سلالة هوهنْشْتَوْفِن
Holy Lands	الأراضي المقدّسة
Hook	الخطّاف
Hospitaller: Hospitaler	فرسان الاسپتارية
Hugh of Payens	هيو پاينز
Hungarians	المجريون
Hungary	بلاد المجر

Innocent III	إنوسنت الثالث
Innocent IV	إنوسنت الرابع
Iznik	إزنيك : نيكايي : نيقية
Jerusalem	القدس
Kanatha	كناتا
Konya	قونية
Lance	المِزْراق
Latin Kingdom of Jerusalem	مملكة القدس اللاتينية
Lombardy	لومبارديا
Longbow	القوس الطويل
Lorraine	مقاطعات اللورين
Lother	لوثير
Louis VII	لويس السابع
Louis IX	لويس التاسع
Manganon	الآلة الحربية (كلمة يونانية تفيد : المنجنيق)
Mangonel: Ballista; Catapult	المَنْجَنيق أو العَرَّادَة
Manuel I Comnenus	مانويل الأول كومنينوس
Manzikert	مانزيكرت
Melisinde	ميليسيند
Metz	ميتز
Milan	ميلانو

Moslems & Franks Weapons	أسلحة المسلمين والفرنج
Nablus, Naplouse	نابلس
Nazareth	الناصرة
Nicaea	نيكايي : إزنيك : نيقية
Normandy	إقليم نورمانديا
Oil of Naphtha	زيت النّفط
Orontes	نهر العاصي
Orontes Valley	وادي العاصي
Pella	پيلاّ
Perche	پرشي
Philadelphia	فيلادلفيا
Philippe II	فيليپ الثاني
Pike	الحَرْبَة
Pisa	پيزا
Pope Urban II	البابا أوربان الثاني
Pope Victor II	البابا فكتور الثاني
Provence	إقليم پروڤانس
Prussia	پروسيا
Raoul of Vermandois	راؤول أمير ڤيرماندوا
Raphana	رافانا
Raymond of Toulouse	ريموند أمير تولوز

Retreat	التراجع
Rhine	نهر الراين
Richard I	ريتشارد الأول
Roger II	روجر الثاني
Saltpeter	نترات البوتاسيوم أو الصوديوم
Salvation	الخلاص وغسل الذنوب
Saxony	مقاطعة ساكسونيا
Scythopolis	سقيتوپولس
Seljuqs	السَّلاجقة
Sidon, Sagitta	صيدا
Siege	الحصار
Sieging Ladders	سلالم الحصار
Soissons	سواسون
Spear	الرُّمح
Suger	سوگير
Sulfur	الكبريت
Swabia & Bavaria	سوابياوباڤاريا
Sword	السيف أو الحسام
Templars	فرسان الداويّة (فرسان الهيكل أو المعبد)
Theodora	تيودورا
Thierry	ثييري

Tiberias	طبريـــة
Tower	البرج
Tripoly	طرابلس
Toul	تول
Turbessel	تل باشر
Turkoman	التركمان
Tuscany	مدينة توسكاني
Verona	ڤيرونـا
Walter the Penniless	ولتر المُفْلِس
William de Bury	وليم دو باري
William of Tyre	وليم الصوري

المسرد العام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

المصادر العربية

حرف أ
حرف ب

- البداية والنهاية: ابن كثير، دار التراث العربي، بيروت ١٩٨٨.

حرف ت

- تاريخ دمشق: ابن القلانسي، تحقيق د. سهيل زكّار، دار حسّان، دمشق ١٩٨٣.
- تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، تحقيق د. صلاح الدين المنجّد، مجلّد ١، ٢، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥١.
- تاريخ حلب: محمّد بن علي العظيمي الحلبي، تحقيق ابراهيم زعرور، دمشق ١٩٨٤.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية: ابن الأثير، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ودار المثنّى ببغداد ١٩٦٣.
- تاريخ الحروب الصليبية: ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٦٨.
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: د. فيليب حِتّي، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢.

- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام: أحمد علي اسماعيل، الشركة المتّحدة للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٣ .

حرف ث
حرف ج
حرف ح

- الحروب الصليبية: د. سهيل زكّار، دار حسّان، دمشق ١٩٨٤ .
- الحروب الصليبية: وليم الصوري، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، سلسلة تاريخ المصريين (٤٥، ٥٥، ٦٨، ٧٧)، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة ١٩٩١ - ١٩٩٥ .
- الحروب الصليبية: سيد علي الحريري، دار التضامن، بيروت ١٩٨٨ .
- الحروب الصليبية: أرنست باركر، ترجمة د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ١٩٦٧ .
- الحروب الصليبية: أمين معلوف، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الفارابي، ط ٢، بيروت، لبنان ١٩٩٣ .

حرف خ

- خطط دمشق: أكرم حسن العلبي، دار الطبّاع، دمشق ١٩٨٩ .

حرف د

- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبَرْبَر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨.
- الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النعيمي، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٨.
- الدبّابات: العميد الركن محمّد وليد الجلاّد واللواء أحمد يوسف، دمشق ١٩٨٤.

حرف ذ

- ذيل تاريخ دمشق: ابن القلانسي، مكتبة المتنبي، القاهرة (بلا تاريخ).

حرف ر

- الروضتين في أخبار الدولتين: أبو شامة، دار الجيل، بيروت (بلا تاريخ).

حرف ز
حرف س
حرف ش

حرف ص

- الصليبيون في الشرق : ميخائيل زابوروف ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦ .

حرف ض
حرف ط
حرف ظ
حرف ع

- عيون الروضتين في أخبار الدولتين : أبو شامة ، تحقيق أحمد البيسومي ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٩١ .
- العسكرية العربية الاسلامية : اللواء الركن محمود شيت خطّاب ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ١٩٨٣ .

حرف غ
حرف ف
حرف ق

- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : ابن طولون ، تحقيق محمّد أحمد دهمان مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٨٠ .

حرف ك

- الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦ .
- كتاب الاعتبار: أسامة بن منقذ، تحقيق د. فيليب حتّي مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٠ .

حرف ل

حرف م

- المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء، مكتبة المتنبّي، القاهرة (بلا تاريخ).
- مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب: ابن واصل، مصر (بلا تاريخ).
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان: عبد اللّه بن أسعد اليافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية: د. قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥م.
- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري: مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٩٢ .
- من ذكريات الغزو الفرنجي: د. شاكر مصطفى، دار طلاس، دمشق ١٩٩٦

حرف ن

حرف هـ

- هنا بدأت الحضارة: د. قتيبة الشهابي، دار الأبجدية، دمشق ١٩٨٨.

حرف و

- وفيّات الأعيان: ابن خلّكان، منشورات الشريف الرضي، قمّ، الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
- ولاة دمشق في العهد السلجوقي: د. صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨١.

حرف ي

*****

المصادر الأجنبية

- Encyclopedia Americana .
- Larousse Encyclopedia .
- The Reader's Digest Great Encyclopaedic Dictionary
- Grolier Encyclopaedia .
- Encarta Encyclopaedia .
- De Prefectione LudoviciVII regis Francorum in Orientem; Odo de Deuil.
- History of the Crusades; Steven Ranciman.
- Supplément aux Dictionnaires Arabes; R. Dozy, Librairie du Liban 1991.
- The Crusades and the Holy Land; Georges Tate, Thames and Hudson, London 1991.

الفهرس

* * * * *

٣٠٠٠ ط١ / ١٢ / ١٩٩٨